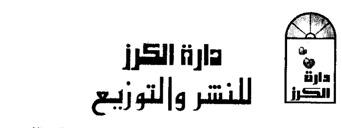
دكتور إسماعيل إبراهيم

مشايخ ضد السلطة والسلطان



مشايخ
ضد السلطة والسلطان

د. إسماعيل إبراهيم



email:darat_al_karaz@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٦٢٥ / ٢٠٠٥
I.S.B.N. 977-6156-01-0

طبع في القاهرة

إهداء

إلى القابضين على الجمر، إلى المتمسكين بكلمة الحق، إلى أصحاب الرأي الحر، المؤمنين الصادقين، الغيورين على الدين، المدافعين عن كرامة الوطن. إلى كل عالم دين حق يعى الدور الحقيقي لعالم الدين في إيقاظ وعى الأمة ونصح الحاكم والرعية ونهضة الأمة.

إلى شباب اليوم ومنهم أبنائى أحمد ومحمد وحسام وميرنا..

حتى يعرفوا أنه لا صحوة ولا عودة إلى مجد الإسلام وقوته إلا بالتمسك بالدين ومن خلال علماء المسلمين.

د. إسماعيل إبراهيم

المقدمة

في أحلك لحظات التاريخ وأشدها ظلمة، كان علماء الدين هم شعاع النور والهداية وصوت الحــق والعدل، الذى يبشر المظلومين والصابرين، أن الفجر آت، وأن دولة الظلم ساعة، ودولة العدل والحق إلى قيام الساعة.

كلمـــا اشـــتدت قسوة الحكام وتجبروا وصرفوا الناس عن جادة الطريق، كلما ازداد علماء الـــدين الحقيقيين تمسكا بالشريعة، وتفانوا في هداية الناس والعودة بهم إلى رحاب الله والذود عن دينه.

وعلـــى مدار التاريخ الإسلامى كان علماء الدين المدركين لحقيقة دورهم المعتصمين بالله، دائما في قلب كل معركة خاضتها الشعوب من أجل حريتها واستقلالها، إن لم يشاركوا بالحرب والقـــتال، فهم يشاركون بكلمة الحق في وجه السلطان المستبد، يدعمون جبهات القتال بالعلم النافع وبتحفيز النفوس وتقوية الهمم.

ولسبب ما في نفوس بعض الحكام، ونفاقاً لذوى السلطان، أهمل كُتاب التاريخ المحدثون دور الـــدين الإســـلامى وجهاد علماء الدين في حركات التحرر العربية في العصر الحديث، فقد كان الـــدين هو المحرك الأساسى، والباعث على الصمود في وجه المستعمرين، وكان هو الطاقة التى لا تنفد، التي استمد منها أهالى البلاد المحتلة العون والمدد، لمواصلة الجهاد حتى تحررت بلادهم.

ســـجلات التاريخ المنصف، التى لم تُزيف تؤكد ذلك بجلاء ووضوح؛ سواء في مصر أم في الجزائر، أم في تونس وغيرها من الأوطان، التى اصطلت بنيران الاحتلال.

هـــؤلاء العلماء كانوا أطوع الناس لله، وأحرصهم على رضائه سبحانه وتعالى، وأنصحهم للراعـــى والـــرعية، ترى فيهم القدوة الطيبة، والخلق الفاضل، والسلوك القويم، والتمسك بهدى القرآن، وتعاليم رسولهم الكريم (ﷺ).

في مختلف العصور قاموا بالنصيحة، وحاربوا المنكر، ووقفوا إلى جانب الحق، لا يخشون إلا الله، ولا يرجون سوى وجه ربهم القدير.

بأمـــثال هؤلاء العلماء والمشايخ صلُح حال المسلمين، وسادوا العالم، وكانت دولتهم عزيزة مُهابه، ولن يعود للعرب والمسلمين مجدهم، إلا إذا وُجد من جديد في أمتنا أمثال هؤلاء الرجال.

تـــربى معظـــم هـــؤلاء الرجال الذين يفخر بهم التاريخ في أحضان الدين، وتلقوا العلم في المساجد، ومنها الأزهر الشريف، الذى كان لعلمائه دور بارز في القيادة الروحية للأمة، بل كانوا يقودون الشعب في كل معاركه.

كانـــوا يدعمون سلطة الحكام إذا أحسنوا، ويزلزلون عروشهم إذا جنحوا إلى الظلم، وكان المصــــريون يفـــزعون إلى علمـــاء الأزهر في أوقات المحن للدفاع عن حقوقهم والوقوف في وجه استبداد الحكام.

•• العالم المسلم العامل بمبادئ دينه، والعارف لرسالة العلماء لا يبالي في الحق أميراً ولا ملكاً ولا صـــاحب ســـلطان مادام على الحق، وإذا دعا إلى الخير بدأ بنفسه، وهكذا كان «سعيد بن المســـيب»، الـــذى ظل صلبا في الحق طوال حياته، ضُرب وحُبس وأُوذى في جسده وماله، ولم يتحول أبداً عن الحق.

•• عالم الدين الحق؛ يتكلم من قلبه، يُزهد الناس في الدنيا وهو أول الزاهدين فيها، لا يزهدهم فـــيها ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها، ولا يأخذ منهم هدية، ولا يتخذ جاهه وسيلة إلى الحظوة عند الملـــوك والقرب من السلاطين، وهكذا كان الحسن البصرى، حربا على علماء السوء الذين يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا، وكان صوت الحق الذى لا يلين، لا يسكت عن إنكار منكر، ولا تمنعه منه هيبة أمير، ولا بطش ملك.

•• من هؤلاء العلماء، عالم ترك ثروة من الفقه والعلم، وأنشأ في الحياة الفكرية تياراً جديداً خصـــباً، أعلى فيه قدر العقل والنظر والتأمل والعلم، وجمع المعارف كلها وعلوم الدنيا والدين، ودافـــع عـــن حرية الإرادة وحرية الرأى، التى هى أساس قدرة الإنسان على تنفيذ أمر الله تعالى بالأمـــر بالمعـــروف والنهى عن المنكر، كان جسوراً في الدفاع عن الحق وقوياً على الباطل. هو الإمام «جعفر الصادق» الذى رفض أن يكون خليفة، وتفرغ للعلم ودعوة الناس إلى الحق.

•• المـــؤمن الحق هو من أطاع الله ورسوله، وأولى الأمر إلا في معصية، نصرة الدين شاغله الأول، وقول الحق لدى السلطان ديدنه، وهكذا كان «أبو حنيفة النعمان» صاحب الاقتحامات الفكـــرية الجسور، الذى كان عارفاً بأحوال الحياة، مستوعباً كل ثقافة من سبقوه ومن عاصروه، خبيراً بالرجال، شديداً على الباطل، مرير السخرية بالمزيفين، لاذعا مع المنافقين من متعاطي الفقه والعلـــم والثقافة في عصره، الذى دافع عن حرية الرآى حتى الموت، فكان بحق فارس الرأى الحر الجسور.

•• أين علماء اليوم الذين سكتوا عن الحق من علماء الأمس الذين اعتزوا بالعلم فأعزهم الله، ولم يبـــيعوا إخلاصـــهم بعرض زائل من أعراض الدنيا، ولم يقولوا كلمات النفاق حرصاً علي منصب أو مال.

فلقد أغلى الله سعرهم، ورفع من قيمتهم، فلم يستطع أن يشتريهم أحد غير ربهم. من هؤلاء العـــالم الفقـــيه النقي الورع، أمير المؤمنين في الحديث «سفيان الثوري» سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى.

هـــذا العـــالم لم يخش في الله لومة لائم، ولم يسكت على باطل رآه، ولم يكف عن توجيه النصح إلى الحكام قبل المحكومين.

•• واجب العلماء نحو الآمة كبير، وقد عرف علماء السلف الصالح أهمية هذا الدور، فقاموا بواجــب النصــيحة والدعــوة إلى الله في مختلف العصور، و لم يتهاونوا في إحقاق الحق، وإبطال الــباطل، وإعــلاء كلمة الله، ورفع راية العدل، فاستقامت بهم الحياة، وسعدت بهم الأمة، ومن هؤلاء العلماء «ابن السماك» الذى قام بواجب النصيحة أيام أمير المؤمنين «هارون الرشيد».

•• الحــاكم الذى يريده الإسلام، حاكم يطلب النصيحة، ويسعى في طلبها، حتى لا يكون مــن يقدمها في مركز الضعف، تأتى إليه النصيحة عن طريق القدوة والمثل، حاكم يُحسن اختيار مستشــاريه، يجمع حوله أهل الورع والتقى، وعيون العلماء، حتى يُذكروه بالله والحق إذا نسى، ويُقوموا من مساره إذا ضل، حاكم يجعل الشورى أساس الحكم.

ومــن العــلماء الذين أدركوا ووعوا دور الحاكم والناصح «الفضيل بن عياض» الذى تأثر بســيرة الخلــيفة العــادل «عمر بن عبد العزيز» فحاول أن يجعل خلفاء المسلمين يهتدون يهديه ويسيروا على خطاه.

•• تاريخــنا الإســلامى ملئ بعلماء الدين ومشايخه الذين كانوا علامات وضاءة في مسيرة الحضارة، وكانوا مثالاً للنزاهة والعلم والتقى والورع والدفاع عن حقوق الناس، والسعى لتطبيق العدالة والزود عن الشرع وإعلاء راية الحق.

مــن هؤلاء «أبو بكر الطرطشى» العالم الزاهد الجرئ، الذى لا يخشى في الحق لومة لائم، والذى لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه. فقد كان أبى النفس قوالاً للحق.

•• العالم التقى الورع، الذى تربى علي مبادئ الدين الإسلامى الحنيف، لا يرضى عن نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق بديلاً، لا تخيفه قوة السلطان، ولا تستميله الهدايا أو العطايا أو الصلات، الناس عنده أمام الشريعة سواء حكام أم محكومين. مصلحة الأمة وفق أحكام الدين هى ما يسعى إليه ويعمل من أجله. رضا الله وتطبيق الشرع مبتغاه، لا ينافق حاكم أو صاحب سلطان.

بأمــثال هؤلاء العلماء صلُح أمر الناس وشاع العدل بينهم، واحترمت الدول والشعوب أمة الإسلام، ومن هؤلاء سلطان العلماء «العز بن عبد السلام» بائع الأمراء، نصير الحق.

•• الحــاكم كما يراه الإسلام ليس شخصاً مقدساً حاكماً بأمره، وليس وارثاً للمُلك، ولا مُهيمــناً على عقائد الناس وقلوبهم، إنه طرف في عقد ليقوم بأعمال الوكالة باسم المجموع، فهو عقــد موثــق بالإيمان، يجعل على كلا الطرفين التزاماً دقيقاً يجب عليه تنفيذه والقيام بحقه، ويلزم الحاكم بإقامة كتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) ويلزم الأمة بالسمع والطاعة في المنشط والمكره، ما لم يكن عصياناً لأمر الله ونهيه، فإن كان عصياناً فلا سمع وطاعة.

وبــناء عــلى ذلك فإن من حق المحكومين نقد الحكام إذا أخطأوا، ومنا صحتهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعلماء أجدر بذلك فهم على مدار التاريخ قاموا بدور الرقابة على الحكام. وهكذا فعل الشيخ «شمس الدين الديروطى» مع السلطان «قنصوة الغورى».

•• مــــن علماء الأزهر الدين وقفوا إلى جانب الناس ضد طغيان واستبداد الحكام، «الشيخ أحمد الدرديرى» الذى كان يضرب به المثل في عفته، كما كان مهذب النفس كريم الأخلاق، لم يقف إلا جانب الحق، وعُرف بأنه صوت الحق ونصير المظلومين.

من العلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر، وكان لهم دورهم المؤثر في الحركة الوطنية وإعلاء كلمة الحــــق، والوقوف إلى جانب أبناء الشعب ضد جور وظلم الحكام «الشيخ عبد الله الشرقاوى» الذى واجـــه طغيان «محمد بك الألفى»، وطوال فترة السنوات التسع التي قضاها شيخاً للأزهر، شهدت مصر أحداثاً هامة، كان للشيخ دوراً مؤثراً فيها.

•• فى الوقــــت الـــــذى خيم فيه الظلام والجهل والضعف والتأخر على بلاد المسلمين قرب نهايــــات الخلافة العثمانية، لم يخل الأمر من نقطة ضوء، تمثلت في بعض العلماء المسلمين من أبناء الأزهر الشريف، الذين كانوا في طليعة العاملين على التجديد والتحديث وبعث النهضة الفكرية، والأخذ بأسباب الحضارة والمدنية الحديثة. ومن هؤلاء الشيخ «حسن العطار»، الذى يُعد بحق من أعمــــدة المدرسة الثورية التي ثارت علي أسس الحياة السائدة في المجتمع المصرى في بدايات القرن التاسع عشر.

•• تُقاس عظمة الرجال بقدر ما يحدثونه من تحولات في ظروف وتاريخ مجتمعاتهم، وهذا ما فعلـــه رائد عصر التنوير، الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» الذى حرك مياه الفكر المصرى والعربى الراكدة، وأخرجها من أسر التقليد والتسجيل، إلى رحابة الحركة والتحديث والتفكير فى الغد.

•• تاريخنا العربى والإسلامى غنى بالشخصيات الفذة التي طبعت عصرها، وكان لها تأثيرها في معاصريها وفى الأجيال اللاحقة، بما قامت به من أعمال وما سجلته من مواقف،وما أسهمت به من منجزات، مما جعلها قبسات مضيئة في ذاكرة الشعوب العربية والإسلامية، وحافزاً متجدداً لـــــذوى النفوس الأبية الرافضة للاستعباد، وأصبحت مع تعاقب السنين نموذجاً يقتدى به كل من يعمل لصالح وطنه وشعبه، ومن هذه الشخصيات رجل ارتبط اسمه بالجزائر، وهو يُعرف بالجزائر، والجزائــــر المعاصــــرة تـــبدأ به، وتستمر من خلاله، هو الأمير الفقيه المجاهد البطل «عبد القادر الجزائــــرى»، فبالأمير يبدأ العصر الحديث فى الجزائر، وبه يرتفع التاريخ ارتفاع الساق والأغصان والأوراق من الجذر.

•• في وســـط هـــذا النفق المظلم الذى تسير فيه الأمة العربية والإسلامية، وتلك الأوضاع المأســـاوية الـــتي جعلت الأعداء ينقضون عليها من كل صوب، ويتداعون عليها يقتلون الأبرياء المدافعين عن حقوقهم في فلسطين، ويدمورن كل شيء في العراق، ويرفعون عصا التهديد في وجه كـــل من يحاول الذود عن الكرامة العربية الجريحة. في هذه الأوقات العصيبة، يطلُ علينا وجه من أبطال التاريخ الإسلامي، يصرخ فينا شعوباً وحكاماً ما يطالبنا بنبذ الخلاف والتوحد في مواجهة العدو، هو «جمال الدين الأفغانى».

•• وفى ظـــلام القرن التاسع عشر، أنار الإمام «الشيخ محمد عبده» كرائد عظيم للإصلاح الديـــنى والاجتماعى، الطريق أمام دعاة الإصلاح للسير قدماً نحو استعادة المجد الضائع للحضارة الإسلامية. وكشف الإمام للناس عن كثير من وسائل النهضة وسبل التقدم، أدرك «محمد عبده» ببصيرته النافذة أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. فالدين هو أساس الإصلاح في كل زمان ومكان.

•• فى ثـــورة عرابى، كان للمشايخ صولاتهم وجولاتهم، جاهدوا بالكلمة والقلم والفتوى وحملـــوا الســـلاح. إضافة إلى «النديم» خطيب الثورة، و«عرابى» قائدها. والإثنان نهلا من علوم الديـــن - تتلمذا على مشايخ الأزهر، يأتى «الشيخ حسن العدوى»، الذى لم يكتف بمهمة إعداد النفوس والقلوب لرفض الظلم والاستبداد، وإنما تصدى للخديوى عندما تحالف مع الإنجليز ضد عرابى ورفاقه فأفتى هو والشيخان «محمد عليش ومحمد الخلفاوى» بعزل «توفيق» عن حكم البلاد.

•• ومـــن هؤلاء العلماء الداعية الرحالة المجاهد الصابر الدءوب «عبدالرشيد إبراهيم» الذى تعـــود بـــنا مظاهر جهاده ودفاعه عن الإسلام والعمل على نشره في ربوع العالم، بسير رجال الإسلام الأوائل الذين نشروا الإسلام شرقاً وغرباً، أضاءوا بنوره ظلمات القلوب والعقول.

•• عـــالم الدين الحق هو الذي يكون في الطليعة دائماً، إذا ما دعا الجهاد، كان في مقدمة الســـاعين إلى الشـــهادة أو النصر، وهكذا كان عالم الشام «الشيخ بدر الدين الحسنى»، الذى لم يكـــتف بواجـــبه التعلـــيمي في العلوم الشرعية والكونية، بل إنه قام بدور رئيس في الجهاد ضد المستعمر الفرنسى.

•• فى فترة الظلام الفكرى التي خيمت على الوطن العربى عندما ضعُفت الخلافة العثمانية، هـــب بعـــض الرجال يطالبون القافلة النائمة أن تستيقظ وتعاود السير، وصرخوا بأعلى الصوت نـــاعين على الناس استسلامهم وركونهم، مطالبين بمحاربة الاستبداد ونفض تراب الجهل، داعين إلى نهضـــة جديـــدة، ومن علماء الشام الذين نذروا أنفسهم لهذه المهمة وكرسوا كل حياتهم من أجلها «الشيخ طاهر الجزائرى» الذى ترك في كل مظهر من مظاهر الحياة في الشام أثراً، وفي كل ناحية من نواحى الإصلاح عملاً، فكان باعث نهضة، وكان معلم جيل.

•• هـــذا الرجل من عظماء الجهاد الفكرى، مؤمن صادق في إيمانه، مجاهد أخذ على عاتقه مهمـــة الحفـــاظ على حرية الكلمة، ومقاومة حركات المسخ والتغريب التي تعرض لها الإسلام، وكان من أخطرها ما جاء على يد أبنائه من أمثال «على عبد الرازق» و «طه حسين» كما قاتل فى صـــفوف الوطنين ضد الاحتلال والاستبداد الفرنسي، حتى حُكم عليه بالإعدام ففر بدينه إلى عـــدد من الأقطار الإسلامية، حتى استقر بمصر وأصبح شيخاً للأزهر الشريف، هو الإمام «محمد الخضر حسين».

•• وهذا شيخ آخر قالت عنه «التايمز البريطانية»: «هذا الرجل أخطر على بلادنا وحياتنا من ويلات الحرب» فقد رفض هذا الرجل بشدة أن تشارك مصر انجلترا في حربها ضد الألمان ودول

المحور، قائلا قولته المشهورة : «إنها حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل»، وهو الذى رفض أن يطوع فتواه لصالح الملك عندما أراد أن يُحرم الزواج على الملكة فريدة من بعده، وقال قولته المشهورة أيضا: «فأما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم فلا أملكه». هو فضيلة «الشيخ محمد مصطفى المراغى» شيخ الأزهر.

•• «إن رأيي لن، ومنصبى لهم، ولن أضحى لهم بما يدوم في سبيل ما يزول» .. هذه العبارة الدالة على تمسك صاحبها برأيه وتقديسه لكلمة الحق، وعدم تنازله عن قولها، حتى ولو ضحى من أجل ذلك بأرفع المناصب، حتى ولو كان المنصب هو شيخ الأزهر، قالها العالم الإمام «سليم البشرى» الإمام رقم ٢٥ في مشيخة الأزهر. [illegible] قدم استقالته من هذا المنصب الهام والحساس عندما وجد أن ثمن بقائه في المنصب هو التنازل عن [illegible] والانصياع لرغبة الحاكم.

•• يحفل تاريخ مصر بكوكبة من علماء الدين الذين عُرفوا بمواقفهم الصريحة القاطعة، ودفاعهم المخلص والمستميت عن الدين والتصدى بكل حزم لأى مساس بالشريعة الإسلامية، ومن هؤلاء العلماء الأجلاء، فضيلة الإمام الأكبر «الشيخ عبد المجيد سليم» شيخ الأزهر، الذى حباه الله بفيض من علمه وفضله، حتى أصبح فقيها لايبارى ومشرعاً ذائع الصيت ومصلحاً لا يخشى في الله لومة لائم، فقد عُرف عنه تمسكه بالحق والجرأة فى الفتوى متحديا الملك فؤاد ومن بعده الملك فاروق.

•• ودائما كان علماء الدين في طليعة المجاهدين ضد الاستعمار، وفي سجلات البطولة والجهاد ضد المستعمر والأوطان، يحظى المجاهد الليبي «عمر المختار» بحظ وافر من صفحات النضال والكفاح، وبذل الروح والنفس محارباً غطرسة الإيطاليين، الذين أرادوا طمس الهوية الليبية وتحويل ليبيا إلى مستعمرة تابعة لهم، يتحول فيها أهل البلاد إلى عبيد يخدمون السادة الطليان.

•• وهذا واحد من الشيوخ اسمه يثير الرعب والفزع، كتائبه هى أخشى ما يخشاه قادة اليهود، رغم أنه قد استشهد منذ عام ١٩٣٥م، فهو قائد أول ثورة مسلحة ضد البريطانيين واليهود في فلسطين، وصاحب تنظيم جهادى يخوض الحرب دفاعاً عن فلسطين، هو الشهيد المناضل «عز الدين القسام» الذى تلقى تعليمه في الأزهر الشريف.

•• الإسلام أقوى وأبقى من أن تشيع جنازته في اى مكان يصل إليه نوره، مادامت هناك صدور وقلوب شملها هذا الضياء. وقد أكدت حرب تحرير الجزائر هذا المعنى، فقد كان للإسلام الدور الأكبر في إلهاب الحمية الباسلة لجنود معارك التحرير وإعدادهم لهذا الجهاد الذى استأصل شأفة الفرنسيين بالجزائر.

أذكى روح الجهاد في نفوس الجزائريين علماء الدين الإسلامى، لقد أقلق هؤلاء العلماء الاحتلال بما آثاروا من همم تصميم وأحيوا من حمية، وبنوا من مدارس، وأنشئوا من صحف، مستمدين من كتاب الله غذاءهم وضياءهم الهادى لاسترداد حقوقهم المغتصبة وتحرير أرضهم، من هؤلاء العلماء «محمد البشير الإبراهيمي» كبير علماء الجزائر وشيخ المجاهدين بها.

•• ومـــن عـــلماء الدين الجزائريين، الذين يمكن بحق اعتباره الأب الروحى لثوار الجزائر، والــذى أوقــد شعلة الحرية وظل حارساً لها حتى اليوم الأخير من عمره، والتي حملها من بعده تلاميذه الذين غرس فيهم روح الجهاد والدفاع عن الدين والوطن «الشيخ عبدالحميد بن باديس».

•• في الوقـــت الذى خفتت فيه أصوات قائلى الحق في عهد «عبدالناصر» ظل الإمام الفقية «الشـــيخ محمـــد أبو زهرة» يقول الحق بصوت جهير، لا يخشى في الله لومة لائم، فقد كان لهذا الإمـــام قـــوة لا تُغلب، يقتحم المعارك القلمية في الصحف، والمصاولات اللسانية في الندوات، فيســـيطر عـــلى الموقف بدامغ الحجة وواضح البرهان، لأن الرجل ممتلئ بأصول الشريعة، بصير بتيارات العصر ودوافعه، عالم بما يحيكه المغرضون من مكايد، ثم هو صريح لا يمارى ولا يدارى. لذلـــك كان موضع الهيبة والخشية يحذره معارضوه، ويؤيده أنصار رأيه في حب خالص. ولذلك كان يمثل قلق في عقل النظام.

•• ومن علماء الأزهر الذين طالبوا في زمننا هذا بتطبيق الشريعة الإسلامية وتعميمها في كل مواد القوانين الجنائية والمدنية والدستورية والدولية، الإمام الأكبر «عبدالحليم محمود»، الذى ألف لجنة علمية لصياغة قوانين الشريعة، ولكنه توفى قبل أن توافق الحكومة المصرية على ذلك. وعُرف عنه أيضا اهتمامه بنشر التعليم الديني في كل قرية ومدينة ونجع، متحدياً كل الصعاب.

•• وفي مواجهـــة الهجمـــة الشرســـة التي يتعرض لها الإسلام من الخارج والداخل متهمة المسلمين بالإرهاب، يأتى «الشيخ محمد الغزالى» الذى قاد العديد من المعارك الفكرية، أوضح من خلالهـــا رؤيـــة الإسلام ووسطيته في مواجهة الفلفسات المعاصرة، كما أظهر سماحة الإسلام في مواجهـــة التشدد والغلو والتطرف باسم الدين، من خلال مؤلفاته المتعددة وكتاباته ولقاءاته مع وسائل الإعلام.

•• في مختلف العصور كان هذا هو دور علماء الدين: قاموا بالنصيحة، وحاربوا ووقفوا إلى جانـــب الحـــق، لا يخشـــون إلا الله، ولا يرجون سوى وجه ربهم القدير، بأمثال هؤلاء العلماء والمشـــايخ صـــلُح حال المسلمين، وسادوا العالم، وكانت دولتهم قوية عزيزة مُهابة، ولن يعود للعرب والمسلمين مجدهم، إلا إذا وُجد من جديد في أمتنا أمثال هؤلاء الرجال، الذين نحن أحوج مـــا نكـــون إلـــيهم في ظـــل عصر العولمة والهيمنة الأمريكية ومحاولاتها المستمرة لطمس هويتنا الإسلامية، وضرب قواعد وأسس ديننا، وللأسف يقف بعض علماء الدين صامتين ساكتين، بل هم أحيانا يفتون فتاوى تسهل للعدو تحقيق أغراضه.

لا نـــريد من شيوخ اليوم وعلماء الدين، إلا أن يكونوا كما كان شيوخ الأمس، فهم ملح الأمة، وشتان بينهم وبين شيوخ اليوم الذين قال فيهم الشاعر:

يا علماء الأمة يا ملح البلد ... ماذا يُصلح الملح إذا الملح فسد.

د. إســـماعيل إبراهيم

سعيد ابن المسيب

(١٣ - ٩٤ هـ)

صلابة الحق وقوة الحجة



العـــالم المسلم العامل بمبادئ دينه، والعارف لرسالة العلماء لا يبالي في الحق أميرا ولا ملكـــا ولا صـــاحب ســـلطان مادام علي الحق. وإذا دعا إلي الخير بدأ بنفسه. هكذا كان «سعيد بن المسيب».

عـــالم أخلص للعلم حتي جعل طلبه أكبر غاياته، وغاية حياته، كان من أوسع التابعين علما وأعرفهم بالحلال والحرام، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا. بقي أربعين سنة لا يسمع الآذان إلا وهو في المسجد، ولم يبدل مكانه من الصف الأول.

كـــان سعيد في هيبته وجرأته وصراحته مع الملوك أمة وحده. رفض عطاء السلطان، فتراكمت رواتبه حتي بلغت ثلاثين ألفا، فلم يأخذ منها درهما، وكان له ٤٠٠ درهم يتجر بها بالزيت ويعيش منها. فلم يكن يريد يوما أن يتكل علي راتب يأخذه من الحاكم، فماذل العلماء إلا يوم اتكلوا علي الرواتب.

ظل «ابن المسيب» صلبا في الحق طوال حياته، ضُرب وحُبس وأُوذي في جسده وماله، ولم يـــتحول أبـــدا عن الحق. كانت حياته التي امتدت من عام ١٣ إلي عام ٩٤هـ بالمدينة تجســـيدا للعزة والإباء والكرامة، وهي من أبرز الخصال التي يتحلي بها العلماء الصادقون، لأنهم يستمدون عزتهم من مصدرها الحقيقي، وهو الله تبارك وتعالي: ﴿**من كان يريد العزة فلله العزة جميعا**﴾ [فاطر، الآية: ١٠].

الامتثال للشرع:

في يـــوم مـــن الأيام وسعيد يجلس في المسجد النبوي بالمدينة ومن حوله طلاب العلم، وقف علي رأسه أحد رجالات الحكم من بني أمية –وهمس في أذنيه– إنني أريد محادثتك في أمر هام، وأنا رسول الخليفة «عبد الملك بن مروان» إليك، ولقد جئتك بعز الدنيا والآخرة.

فقال له سعيد: انتظر حتي أنتهي من الدرس.

ومـــا كـــاد سعيد ينتهي من الدرس حتي جاءه الرسول قائلا: يا سعيد.. ألم أقل أني جئتك بعز الدنيا والآخرة..؟؟.

قال سعيد: أما الدنيا فأنا في طاعة الله، وذلك هو العز الذي لا عز بعده. وأما الآخرة، فهي في علم الغيب، ولا يدري العبد أهو إلي الجنة أم النار.؟

قـــال الرسول: إن الخليفة رغب في مصاهرتك، فأرسلني لأخطب ابنتك لأبن الخليفة والـــذي جده خليفة، وسيكون هو الخليفة بعد أبيه. فإن وافقت كيلنا لك الذهب والفضة وآتتك الدنيا راغمة، وفُرشَت لك الأرض من دمشق إلي المدينة بما تحب وترضي.

وإن كانت الثانية، فأنت أعلم الناس بسياط بني أمية..؟؟

طلب سعيد أن يستشير إبنته امتثالا للشرع الحنيف.. بعدها جلس سعيد مع نفسه، إن إبنـــته قطعـــة منه، ومحال أن تكون لإبن الخليفة،الذي بغي وطغي وآثر الدنيا علي الآخرة. ومن يفعل ذلك لا شك أن يكون طعمه للنار يوم القيامة.

وهو أرأف بإبنته أن تكون حطبا لجهنم، مهما تحمل في سبيل ذلك من عذاب. إن بني أمـــيه يهددونـــه بالســـياط وبما هو أنكي من السياط، ولكن سياطهم لم يعد لها تأثير علي جسده الفاني لأنه باع دنياهم.

انتظر أمير المؤمنين أن يهش سعيد ويبش، ويطير فرحا بهذه النعمة، لكن موازين الناس غير ميزان سعيد، ميزانه ميزان الشرع، الناس يفتشون عن المال والجاه، ولكن سعيدا يفتش لابنـــته عـــن السعادة الزوجية. عن الخلق والدين، عن الطهر ،والفضيلة. وماذا تفيده دنيا الوليد، إن مهرت ابنته بهذه الدنيا دينها؟

رجـــل صـــالح:

إن الرجل المتدين الحسن الخلق الفقير، خير للمرأة من ابن أمير المؤمنين، لأن هذا يكون لها وحدها، وذاك تشركها فيه الزوجات والجواري.

لقـــد قرر سعيد ألا تكون ابنته زوجة لابن أمير المؤمنين. وليبحث لها عن رجل صالح، صـــاحب خلق ودين. ومرت أيام، وكان له تلميذ اسمه «كثير بن أبي وداعة متين الدين»، رضي الخلق، انقطع عن الدرس، ثم جاء فسأله فقال: مرضت زوجتي فمرضتها وعنيت بها، ثم توفيت فدفنتها.

فقال سعيد: هل تزوجت غيرها؟

قـــال: ومـــن يزوجني ولا أملك إلا أربعة دراهم، من يزوجني يا شيخي وأنا لا أملك حمراء ولا صفراء من هذه الدنيا.

قال سعيد: سؤال محدد ألك رغبة في الزواج؟.

قـــال الطالب: وهل يمكن أن يعيش الرجل بغير زوجة، إلا إذا اضطرته ظروف الحياة وحال بينه وبين ما أمر الله تعالي به بقوله: ﴿**خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ [الروم، آية: ٢١].

ذهب سعيد إلي بيته، والتقي بإبنته التي حباها الله أخلاق المؤمنات العابدات، وقال لها: ياابـــنتي لقد اخترت لك زوجا صالحا تقيا عارفا بحدود الله، متأدبا في عشرة النساء بما قاله عـــلي بن أبي طالب رضي الله عنه «النساء ناقصات عقل ودين، يغلبن كريما ولا يغلبهن إلا

لئـــيم››، فأحببـــت أن أكون كريما مغلوبا، علي أن أكون لئيما غالبا. فهل تقبلينه زوجا؟. قالـــت الفـــتاة: ماتـــراه خيرا يا والدي فهو خير.ذهب سعيد ومعه ابنته إلي بيت ‹‹ابن أبي وداعـــة››، وقال له: هذه يابني زوجك، أخرج علي سطح منـــزلك وألقي ببعض الحصيات علي بيوت الجيران،حتي يعلموا أنك ستعرس في هذه الليلة.

وهكـــذا زوج ‹‹ابـــن المسيب›› ابنته العالمة المحدثة زوج لا يملك سوي أربعة دراهم، رافضـــا أن يزوجها من ابن الخليفة الذي لا يخاف الله تعالي. و لم يرهب سعيد الخليفة و لم يفكر في الانتقام والغضب الذي يمكن أن ينـــزله به.

فتوى المبايعة:

كان سعيد يفتي بأن الرسول صلي الله عليه وسلم نهي عن بيعتين، فلما أراد عبدالملك بن مروان، أن يبايع لولديه: الوليد وسليمان من بعده، فدعا الناس إلي البيعة، فبايع الناس.

ودعـــا ‹‹ســـعيد بن المسيب›› أن يبايع فأبي، لم ينس سعيد فتواه و لم يتناسها، و لم يجد لنفسه مخلصا بفتوي جديدة. و لم يقل إني واحد من الناس، وقد بايعوا فلأبايعن مثلهم، و لم يخدع نفسه بهذه الخدعة الشيطانية فيقول: إن القوم إذا لم أبايع نالوا من كرامتي وحقروني، وأنا رمز العلم والدين فيكون التحقير للدين. ولكنه وقف موقف الحق فأبي البيعة.

وبـــذل له أمير المدينة ‹‹هشام بن إسماعيل›› كل أنواع الترغيب والترهيب فأبي، فهدده بـــالجلد علنا، وتوسط العلماء حتي يلين موقف سعيد، عرضوا عليه أن يسكت فلا يقول لا ولا نعم. قال: ‹‹أنا أسكت علي الحق؟. لا››. وكانوا يعلمون أنه إذا قال لا فليس في الارض قوة تجعله يقول نعم.

قـــالوا: فاعـــتزل في بيتك أياما حتي تمر العاصفة. قال: ‹‹أبقي في بيتي فلا أخرج إلي الصلاة، وأنا أسمع: حي علي الصلاة، حيي علي الفلاح، وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا في المسجد؟. لا››.

قـــالوا: فبدل مكانك من المسجد، حتي إذا جاء رسول الأمير لم يجدك فيه فقال له لم أجده، قال: ‹‹أخوفا من مخلوق؟ لا.لا أتقدم عن مكاني شبرا ولا أتأخر شبرا››.

ودعاه الأمير فهدده بالقتل، فلم يرجع عن فتواه وقالها أمامه مؤكدا: ‹‹نهي رسول الله (ﷺ) عـــن بيعتين››، يقرر الحكم كأنه في حلقة الدرس، وكأن السيف ليس علي عنقه. لا يسكت خوفا من السيف، ولا يكتم العلم، ولا يبدل الحكم.

فأمـــر الأمير بأن يُساق سعيد إلي ساحة العقوبات، وجرده من ثيابه إلا تبانا قصيرا – غطاء يواري سوءاته–، وضُرب خمسين سياطا، ثم أُخذ إلي الحبس.

هــذا العالم الجليل لم ترهبه السياط و لم تجعله يبدل موقفه، بل لم تنهاه عن إفادة الناس بعــلمه. فقــد أقــبل عليه قتادة العالم المشهور، وهو يُضرب، فقال: إني أخاف أن يموت، ويذهب علمه، وإني أحب أن أسأله عن مسائل، فتركوه يسأله، وراح سعيد يجيبه ويناقشه والدم يسيل من ظهره.

وهــو في ســجنه، صنعت له ابنته طعاما كثيرا، وجاءت به. فقال لها: ((هذا ما يريده هشام ((الأمير))، أن أفتقر ويذهب مالي، فأحتاج إلي أموالهم فيستعبدوني بها، ولا أدري إلي متي يمتد سجني، فانظري ما كنت آكله كل يوم في بيتي فأتيني به، فإن العلماء لا يذلون إلا إذا احتاجوا إلي أموال الملوك)).

ولما بلغ الخليفة ما حدث مع سعيد عزل أمير المدينة. فقال سعيد لأولاده وأهله: إياكم والتعرض لهشام بعد عزله، أو الشماتة به لما ناله. إني أدعه حتي يحكم الله بيننا*.

التمسك بالحق:

موقــف أخر يبين قيمة العالم ومكانته عندما يكون واثقا من علمه، متمسكا بالحق. لا يشــتريه أحــد غــير ربه، حج ((عبدالملك بن مروان))، فلما قدم المدينة، وقف علي باب المسجد، وأرسل إلي ((سعيد بن المسيب)) رجلا يدعوه، قال له: أمير المؤمنين واقف بالباب يريد أن يكلمك.

قــال ســعيد: مــا لأمير المؤمنين إليّ حاجة، ومالي إليه حاجة، وإن حاجته إليّ لغير مقضية..!

عــاد الــرجل إلي عبدالملك وأخبره، فقال له: ارجع إليه فقل: إنما أريد أن أكلمك. فــرجع الرسول إلي سعيد وقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال له سعيد ما قال له أولا. فقال الــرجل: يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول مثل هذه المقالة؟ فرد عليه قائلا: ((إن كان أمــير المؤمنين يريد لي خيرا فهو لك، وإن كان يريد لي غير ذلك، فلا أقوم من مقامي هذا حتي يقضي الله ما هو قاض)).

فقيه أهل المدينة:

بعد وفاة ((عبدالملك بن مروان)) تولي الأمر ابنه الوليد - الذي رفض سعيد أن يزوجه ابنته من قبل. جاء الوليد إلي المدينة فدخل المسجد، فرأي شيخا قد اجتمع الناس عليه.

فقال: من هذا؟

فقالوا: ((سعيد بن المسيب)).

---

* د. عبد الرحمن عميرة، ((مواقف العلماء أمام الحكام والولاة))، دار العلم والثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٤٢.

فلما جلس الوليد في المسجد، أرسل إليه، فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين.

فقال سعيد: لعلك أخطأت بإسمي، أو لعله أرسلك إلي غيري.

قال الرجل: إنما يعنيك أنت!

فغضب سعيد وهم به. وقال له اذهب وقل له: ليس لي حاجة عنده وماله حاجة عندي.

هـــذا القـــول أغضب الخليفة، ولكن جلساؤه قالوا له: يا أمير المؤمنين إنه فقيه أهل المدينة، وشيخ قريش، وصديق ابيك، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه. ومازالوا به حتي ابتعد عنه.

ورغـــم ما ناله من أذي من وراء هؤلاء القوم، فإنه كان إذا سئل عنهم يقول: **﴿ربنا اغفـــر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾**. [الحشر، آية:١٠].

هـــذا الرجل القوي مع الحكام كان لينا حانيا مع طلاب العلم، وكان من أكثر الناس تأدبا مع حديث الرسول (ﷺ).

جـــاءه رجـــل، وكان سعيد مريضا، فسأله عن حديث فجلس وحدثه. فقال الرجل: وددت أنك لم تتعن.. أي لم تتعب نفسك وأنت مريض لا تقوي علي الحركة.

فقال: كرهت أن أحدثك عن رسول الله وأنا مضطجع.

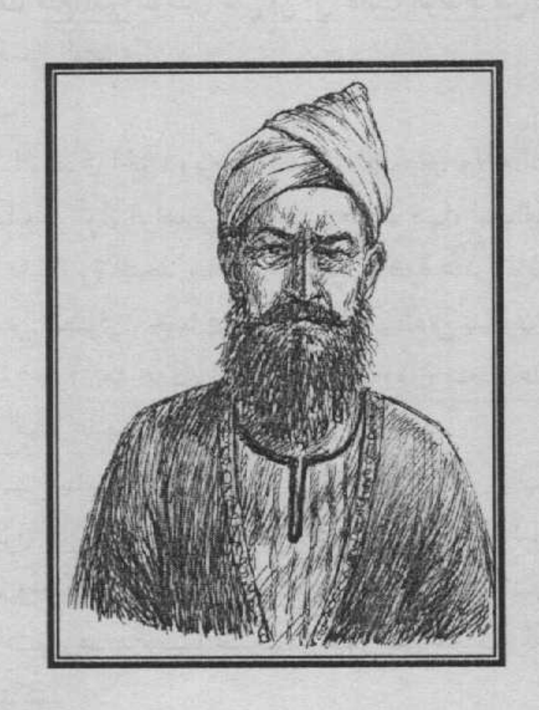
وكان سعيد يقول عن الدنيا: «هي قبيحة، وتكون إلي كل قبيح أميل، وأقبح منها من أخذها من غير حقها، ووضعها في غير موضعها من شرع الله».

رحم الله هذا العالم الذي تربي في مدرسة القرآن، والذي ما تحول يوما عن قول كلمة الحق. وليت علماء اليوم يتعلمون منه فما أحوجنا إلي أمثاله هذه الأيام.

الحسن البصري

(٢١ - ١١٠ هـ)

الباحث عن العدل وناصح الملوك



وصفه خالد بن صفوان فقال: هو أشبه الناس سريرة بعلانية، وقولا بفعل، إن أمر بأمر كـــان أعمـــل الناس به، وإن نهي عن شيىء كان أترك الناس له، رأيته مستغنيا عن الناس، ورأيت الناس كلهم محتاجين إليه.

هو «الحسن البصري الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد»، من أبرز العلماء المسلمين والمفكرين المصلحين، والساسة الزهاد في تراث أمتنا العربية الإسلامية وتاريخها، وهو أبرز علماء عصره علي الإطلاق. وُلِدَ في المدينة عام ٢١هـ، وأقام في البصرة، وفيها توفى عام ١١٠هـ.

كـــان في الـــورع والتقوى آية ظاهرة، وكان في العلم بحرا زاخرا، وكان في الفصاحة والبيان علما مفردا، وكان أعظم الوعاظ في تاريخه كله.

بعـــض الوعاظ يتخذ الدين حرفه، والتقوى صناعة يأكلون بها الدنيا ويجمعون بها المال، يصلون إلى العامة باللفظ الجميل والمظهر الخداع والخشوع الكاذب يتكلمون من ألسنتهم لا من قلوبهم، لذلك منع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الوعاظ من دخول المسجد في البصرة، ولم يستثن إلا الحسن البصري.

يتكلم من القلب:

لأنـــه كـــان يقول الحق، ويروي الحديث الصحيح، ولأنه كان يتكلم من قلبه، يزهد الـــناس في الدنيا وهو أول الزاهدين فيها، لا يزهدهم فيها، ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها، ولا يأخذ منهم هدية، ولا يتخذ جاهه وسيلة إلي الحظوة عند الملوك والقرب من السلاطين.

كان «الحسن البصري» حربا علي علماء السوء الذين يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا، قـــال فيهم قولة حق: «ما هؤلاء إلا قوم ملوا العبادة، وصعب عليهم العمل، وقل ورعهم، فوجدوا الكلام أهون عليهم، فتكلموا».

مـــر الحســـن بباب الأمير ابن هبيرة، فإذا بالقراء علي الباب فقال: ما يجلسكم هنا؟ تـــريدون الدخول علي هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الأبرار، تفرقوا فرق الله بـــين أرواحكم وأجسادكم، قد شمرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم، فضحتم القراء فضحكم الله، أمـــا والله لـــو زهـــدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، لكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم.

صوت الحق:

وكـــان الحسن صوت الحق الذي لا يلين، لا يسكت عن إنكار منكر، ولا تمنعه منه هيبـــته أمير، ولا بطش ملك، وكان حينا يعرض تعريضا، وحينا يصرح تصريحا في تعريضه بالأمراء وترفهم وسرفهم.

راح يصف رسول الله (ﷺ) معطيا الأمراء والمسئولين درسا حيا من حياة خاتم الأنبياء يقول: ما كان يُغدي عليه بالجفاف «الموائد» ولا يُراح، ولا تُغلق دونه الأبواب، ولا تقوم دونه الحجاب، وكان يجلس علي الأرض ويوضع طعامه علي الأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ثم قال: ما أكثر الراغبين عن سنة نبي الله، وما أكثر التاركين لها.

ثم راح يعرض بعلماء السوء الذين يفتون كل حاكم بما يرضيه فقال: «ثم إن علوجا فسقة، قد أضلهم ربي ومقتهم، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا، وشادوا وزخرفوا، يقولون من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ويذهبون بها إلي غير ما ذهب الله بها إليه».

حدث أن عمر بن هبيرة لما ولي العراق، أرسل إلي الحسن والشعبي وابن سيرين، والثلاثة من أعلام التابعين، وأئمة المسلمين، فقال لهم: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي في أشياء، إن أطعته فيها أغضبت الله، وإن عصيته لم آمن بطشه وتغضبه، فهل ترون لي في متابعتي إياه فرجا، فتكلم الشعبى وابن سيرين كلاما فيه تقية ومدارة، والحسن ساكت؛ قال له: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟

قال: «أقول يا عمر بن هبيرة؛ يوشك أن يترل بك ملك من ملائكة الله تعالي فظ غليظ، فيخرجك من سعة قهرك؛ إلي ضيق قبرك؛ يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبدالملك، وإن تطع يزيد لا يعصمك من الله. يا بن هبيرة لا تأمن أن ينظر إليك الله علي أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، نظر مقت، فيغلق باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة: لقد أدركت ناسا من صدر هذه الأمة كانوا والله علي الدنيا وهي مقبلة، أشد أدبارا من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر بن هبيرة إن تكن مع الله في طاعته يرد عنك كيد يزيد بن عبد الملك، وإن تكن مع يزيد بن عبد الملك في معاصيه وكلك الله إليه»، فبكي عمر حتي ابتلت لحيته، وزاد في إكرامه علي الشعبي وابن سيرين.

في وجه الحجاج:

كان «الحجاج بن يوسف» الثقفي حاكم غليظ القلب، جبار متكبر، ولم يكن في العراق والمشرق لسان يستطيع أن يقول الحق عاليا في وجه الحجاج سوى «الحسن البصري»، الذى كان ينتقده بشده، وسلمه الله من الحجاج بإخلاصه وابتغائه وجه الله وحده.

بـــني الحجــــاج دارا بواسط، وأحضر الحسن ليراها، فلما دخلها قال: ((الحمد لله، إن الملـــوك ليرون لأنفسهم عزا، وإنا لنري فيهم كل يوم عبرا، يعمد أحدهم إلي قصر فيشيده، وفي فــــرش فيـــنجده، وإلي ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصـــحاب ســــوء، فيقول: انظروا ما صنعت، فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاســـقين، أما أهل السماوات فقد مقتوك، وأما أهل الأرض فقد لعنوك، بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء، وغررت في دار الغرور، لتذل في دار الحبور)).

ثم خـــرج وهـــو يقول: ((**إن الله سبحانه أخذ عهده علي العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه**)).

وبلـــغ الحجاج ما قال. فاشتد غضبه، وجمع أهل الشام، وقال: أيشتمني عبد من عبيد أهـــل البصـــرة وأنتم حضور فلا تنكرون، ثم أمر بإحضاره، فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يســـمع حتي دخل علي الحجاج، فقال له الحجاج: هاهنا اجلس، فأجلسه قريبا منه، وقال: ما تقول في علي وعثمان؟

قال: أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك، قال: قال موسي لفرعون حين سأله: ﴿**فما بال القرون الأولي، قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسي**﴾ [طه، الآيتان: ٥١-٥٢]، علم علي وعثمان عند الله، قال الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد، ودعا بطيب وبلل به لحيته.

فلما خرج ((الحسن البصري)) تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت علـــيه؟ قـــال: قلت: يا عدتي عند كربتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا ولي نعمتي، ويا إلهي وإلـــه آبـــائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارزقني مودته، واصرف عني آذاه ففعل ربي عز وجل.

نعم المؤدب:

وانتقد البصري الحجاج يوما وبلغه الانتقاد، وطلبه فلم يذهب إليه واختفي منه، فلما رآه قـــال: أنت القائل ما بلغني عنك؟ قال: وما بلغك عني؟ قال: قولك: اتخذوا كتاب الله دغـــلا، وعباد الله خولا -والمقصود: أدخلتم في كتاب الله ما يفسده ويخالفه، واستعبد تم الـــناس- ومال الله دولا، يأخذون من غضب الله، وينفقون في سخط الله، والحساب عند البـــيدر-يوم الحساب- قال: نعم، قال: وتكني بذلك عنا، قال: نعم قال: و لم قلته ويلك؟ قال: لما أخذ الله ميثاق الفقهاء في الأزمنة كلها ليبيننه ولا يكتمونه.

ثم قـــال له: كم بينك أيها الأمير وبين ادم من أب؟ قال: كثير قال: أين هم؟ فأطرق الحجـــاج ساعة مفكرا، ثم قال: يا جارية.. الغالية «الطيب»، فخرجت بها، فقال ضمخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب، ثم قال: انصرف إلي أصحابك فنعم المؤدب أنت.

الحاكم العادل الذي يرعي الله في رعيته، هو الذي يطلب النصيحة والاستشارة من العلماء المخلصـــين، ويـــبعد عنه كل منافق ومدع، ولقد كان «الحسن البصري» رضي الله عنه صاحب عاطفـــة قويـــة وروح ملتهبة، وكان من كبار المخلصين، بليغ اللسان، قوي الإيمان ، وكان من أقـــرب العلماء إلي قلب وعقل الخليفة الراشد «عمر بن عبدالعزيز». لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلي «الحسن البصري» أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب البصري يقول:

الإمـــام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني علي ولده، يسعي لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم في مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها ووضعته كـــرها، وربته طفلا، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخري، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمـــام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامي، وخازن المساكين، يربي صغيرهم ويمون كبيرهم، وهو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلي الله ويريهم، ويـــنقاد إلي الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك إلي الله، كعبد ائتمنه سيده، فاستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين: أن الله أنزل الحدود ليزدجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها، وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟

واذكـــر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم أن لك مترلا غير مترلك الذي أنت فيه يطول فيه ثواؤك ويفـــارقك أحباؤك، وتركوك في قعره وحيدا فريدا فتزود له، واذكر إذا بُعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين علي المستضعفين فتبوأ بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالا وأثقالا مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلي قدرتك اليوم، ولكن انظر إلي قدرتك غدا وأنت مأسور في حـــبائل المـــوت، وموقوف بين يدي الله في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

الأدوية الكريهة:

إني يا أمير المؤمنين لم ألك شفقة ولا نصحا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة، لما يرجوه له من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وكتب «عمر بن عبد العزيز» رضي الله عنه إلى «الحسن البصري»: عظني فكتب إليه الحسن:

يــا أمير المؤمنين، كن للمثل من المسلمين أخا، وللكبير إبنا، وللصغير أبا، وعاقب كل واحد منهم بذنبه علي قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا، فتدخل النار*.

وذات مــرة كتــب أمير المؤمنين عمربن عبدالعزيز رضي الله عنه إلي فقهاء العراق أن يــأتوه، فاعــتل الحســن – أصيب بفتق في بطنه فكتب إليه معتذرا ناصحا يقول: يا أمير المؤمــنين، إن اســتقمت استقاموا، وإن ملت مالوا، يا أمير المؤمنين، لو أن لك عمر نوح، وســلطان ســليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان؟ ولو نلت ذلك لم يكن لي بد من أن أشرب بكأس الأولين.

وســط زخارف الدنيا ومظاهر الحكم، يحتاج الحاكم إلي التذكير حتي لا يغتر بالدنيا، وهــنا تأتي أهمية وجود الناصح والمستشار الذي يجرؤ علي توجيه النصح لوجه الله، وقول الحق لا يخشي في الله لومة لائم، وهكذا كان «الحسن البصري».

أمان كاذبه:

كتب الحسن إلي عمر بن عبدالعزيز يعظه ويحذره من الدنيا:

«يــا أمير المؤمنين، الدنيا دار ظعن-بمعني انتقال- وليست بدار إقامة علي حال، وإنما أُنــزل إليها آدم عقوبة، فأحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغني فيها فقير، والسعيد من أهــلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذل من أعزها وتفرق من جمعها، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه».

فكــن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحة يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلا، الصبر عــلي لاوائهــا أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة خــتالة خداعــة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطا بها، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة، وهى والذى بعث محمداً بالحق لأزواجها قاتلة.

---

*أحمد رضوان أبو الخير، «من مواقف العلماء»، دار المنار، ١٩٩٦، ص ص ١٠٨-١١٠.

فـــاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤدى إلى الهلكة والفناء.

واعــــلم يـــا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد وتاركهـــا موفق والمتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذر، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين.

الدنـــيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف سوء العاقبة.

والدنيا وأيم الله يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام، وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة   وإلا فـــإني لا أخـــالك ناجـــيا

ولمـــا وصل كتابه إلى عمر، بكى وانتحب حتى أشفق عليه من كان عنده وقال: رحم الله الحســـن، فإنـــه لا يـــزال يوقذنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، ولله هو من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

مـــا أروع الناصـــح:

ما أروع الناصح وما أروع الحاكم وما أعدله، بهما تنعدل كفتي الميزان ويسود العدل. بمثل هؤلاء العلماء أقام «عمر ابن عبد العزيز» دولته التي لم تعرف الظلم، وعاش فيها الناس في أمن وسلام، واختفى فيها الفقر والحرمان وعلت راية الحق. وما أحوجنا إلى حاكم من أمـــثال عمــــر، وعالم من نوع وتقوى وورع «الحسن البصرى»، حتى ينصلح حالنا الذى وصل إلى الدرك الأسفل من الهوان.

كان البصرى شجاعا في الجهر بالحق، تنبعث شجاعته من نفس امتلأت بجلال الله وعظمته، فهانت في نظرها وجوه الخلق ومظاهر الدنيا، وانطلقت منها الكلمة قوية مدوية مجلجلة.

دخل الحسن البصرى علي «النضر بن عمرو»- وكان واليا علي البصرة، فقال:

أيهـــا الأمـــير أيدك الله، إن أخاك من نصحك في دينك وبصرك بعيوبك وهداك إلى مراشدك، وإن عدوك من غرك ومناك.

أيهـــا الأمـــير، اتـــق الله، فـــإنك أصبحت مخالفا للقوم في الهدي والسيرة، والعلانية والســـريرة، وأنـــت مع ذلك تتمني الأماني، وترجح في طلب العذر، والناس أصلحك الله طالـــبان، فطالـــب دنيا وطالب آخره، وايم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح، وتعب الآخر واخترم – أى تقطع وفني-

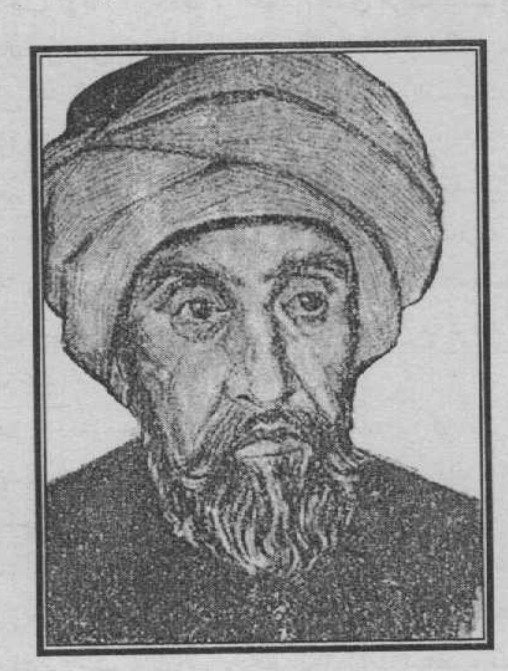
فـــاحذر أيها الأمير أن تشقي بطلب الفاني وترك الباقي فتكون من النادمين، واعلم أن حكيما قال أين الملوك التي عن حظها غفلت حتي سقاها بكأس الموت ساقيها

نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن النقص بعد الزيادة – ومن الضلالة بعد الهدي، لقد جاء أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول: كفي بالمرء خيانة أن يكون للخونة أمينا، وعلي أعمالهم معينا.

الإمام جعفر الصادق

(٨٠-١٤٨هـ) (٦٩٩-٧٦٧م)

رفض أن يكون خليفة



في أحلك لحظات التاريخ واشدها ظلمة، كان علماء الدين هم شعاع النور والهداية وصوت الحـــق والعـــدل، الذي يبشر المظلومين والصابرين، أن الفجر آت، وأن دولة الظلم ساعة ودولة العدل والحق الي قيام الساعة.

كـــلما قســـي الحكام وتجبروا وصرفوا الناس عن جادة الطريق، كلما ازداد علماء الدين الحقيقيين تمسكا بالشريعة، وتفانوا في هداية الناس والعودة بهم إلي رحاب الله والزود عن دينه.

من هؤلاء العلماء عالم ترك ثروة من الفقه والعلم والتأملات، وانشأ في الحياة الفكرية تياراً جديـــداً خصباً أعلي فيه العقل والنظر والتأمل والعلم وجمع المعارف كلها وعلوم الدنيا والدين، ودافع عن حرية الإرادة وحرية الرأي التي هي أساس قدرة الإنسان علي تنفيذ أمر الله تعالي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان جسوراً في الدفاع عن الحق وقوياً علي الباطل.

هو الإمام ((جعفر الصادق)) الذي رفض الخلافة وتفرغ للعلم ودعوة الناس إلي الحق.

حب بالإجماع:

لم يجتمع الناس علي حب أحد في ذلك العصر نهاية الدولة الأموية وصدر الخلافة العباسية – كما أجمعوا علي حب الإمام ((جعفر بن محمد)) الذي عُرف باسم ((جعفر الصادق)). ذلك لأنه كـــان صـــادق النفس، واسع الأفق مرهف الحس، متوقد الذهن كبير القلب، يلتمس في غضبه الأعـــذار للآخرين، حاد البصيرة، ضاحك السن، مضيء القسمات، عذب الحديث حلو المعشر، سباقا إلى الخير باراً طاهراً، وكان صادق الوعد وكان تقياً.

هـــو من العترة الطاهرة، عترة رسول الله (ﷺ) جده لأمه هو أبو بكر الصديق، وجده لأبيه هو الإمام علي بن أبي طالب. ولد في المدينة سنة ٨٠هـ، ومات فيها سنة ١٤٨هـ.

كان مع جلال هذا الحسب متواضعا لله، وعي منذ طفولته نصيحة أبيه ((الإمام محمد الباقر)): ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله.

إظهار المسكوت عنه:

تعهـــده وهـــو صغير جده لأمه ((القاسم بن محمد بن أبي بكر))، بقدر ما تعهده جده لأبيه ((عـــلي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب))، فإذا به وهو صبي يحفظ القرآن ويتقن تفسيره، ويحفظ الحديث ويفهمه. مما أتاح له أن يكشف ما وضعه المزيفون تزلفا للحاكمين، أو خدمة هذا الطرف أو ذاك من أطراف الصراع السياسي، وعمل علي نشر الأحاديث التي حاول الحكام المستبدون إخفاءها، فقد حاول ذلك الزمان إخفاء ما رواه علي ابن أبي طالب من السنة.

كان عصره متوترا مشوبا بالمآسي، تخضب الرايات المنتصرة فيه دماء الشهداء من آل البيت، ويطغي الأنين الفاجع علي عربدة الحكام، فمنذ استشهاد الإمام الحسين بن علي في كربلاء والدولة الأموية تضطهد آل البيت وتضطهد أنصارهم، وتخشي أن ينهض واحداً منهم لينتزع الخلافة.

وبعـــد استشهاد عمه ((زيد)) كان الإمام جعفر هو الذي تتطلع إليه الأنظار، لذلك كانت تحوم حوله عيون الأمويين وأرصادهم.

وكان الإمام جعفر منذ أن رأي بطش الأمويين بآل البيت وأنصارهم وبالباحثين عن الحقيقة وبمقاومي الاستبداد، كان قد أخذ بمبدأ التقية، فلم يجهر بالعداء لبني أمية اتقاء لشرهم، وحذر الفتنة، وهم إذ ذاك غلاظ شداد علي من لا يوالونهم.

حقن دماء المسلمين:

فآثر أن يهب نفسه للعلم، وألا يفكر في النهوض والانقضاض علي السلطان الجائر حقناً لدماء المسلمين، وان خير ما يقاوم به البغي هو الكلمة المضيئة التي تنير للناس طريق الهداية وتزكيهم وتحركهم إلي الدفاع عن حقوق الإنسان التي شرعها الإسلام، والي حماية مصالح الأمة التي هي هدف الشريعة، وكان قد تعلم عن جده «الإمام علي زين العابدين بن الحسين» عن جده الرسول (ﷺ) أن طلب العلم ونشره جهاد في سبيل الله، وأن الله تعالي جعل للعلماء مكانة بين الأنبياء والشهداء.

كان يسير علي هدي نصائح أبيه «محمد الباقر» الذي مات وابنه جعفر في الخامسة والثلاثين، فقد كان يقول له: إياك والكسل والضجر فانهما مفتاح كل شر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً، وإن ضجرت لم تصبر علي حق، طلب العلم مع أداء الفرائض خير من الزهد، إذا صاحب العالم الأغنياء فهو صاحب دنيا، وإذا لزم السلطان من غير ضرورة فهو لص. كما أوصاه ألا يصحب خمسة ولا يحادثهم ولا يرافقهم في طريق: الفاسق والبخيل والكاذب والأحمق وقاطع الرحم. لأن الفاسق يبيعه بأدني متعة، والبخيل يقطع المال حين الحاجة، والكذاب كالسراب يبعد القريب ويقرب البعيد، والأحمق يريد أن ينفع فيضر، وقاطع الرحم ملعون في كتاب الله.

هداه عكوفه علي دراسة القرآن والحديث إلي أن واجب المسلم أن يؤمن عن اقتناع وتدبر وتفكر في ظواهر الحياة والكون، فهي دليله إلي الإيمان بوحدانية الله. وهداه هذا التفكير إلي الاهتمام بعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والأدوية لأنها علوم تحقق مصالح الناس، وتحرر الفكر وتهديه إلي الإيمان العميق الحق الراسخ، وتتلمذ عليه جابر بن حيان، وتعهده وحثه علي دراسة علوم الحياة، وذوده بمعمل وأمره أن ييسر كتاباته لينتفع بها الناس، وكان يتدارس معه علوم الطبيعة والكيمياء والطب، وكشف له من تبصره بالفقه كثيرا من المعارف العلمية، وهداه بالمعارف العلمية إلي التمكن من الفقه.

الحكمة والموعظة الحسنة:

وعلم وهو في المدينة أن في العراق مذاهب تدعو إلي الإلحاد والزندقة فخرج يناقش زعماء هذا المذهب، لم يقصد مكتفياً بالحكم عليهم بالكفر، أو يصب اللعنات عليهم، بل ناقشهم بمنطقهم، ليثبت لهم وجود الله، وقادهم مما يعلمون إلي مالا يعلمون.

عاش الإمام جعفر يدعو إلي سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فاقنع كثيراً من الزنادقة والملحدين والمفكرين والوثنيين بالإسلام فأسلموا وحسُن إسلامهم، أضافوا بفكرهم ثراء إلي الفقه وإلي العلوم في ذلك العصر.

ولكم أساء إليه بعض صنائع الحكام الذين خشوا التفاف الناس حوله، فما قابل الإساءة إلا بالإحسان وهو يردد قول الله تعالي: **﴿ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾**، كان يزدري الانتقام ويعلم الناس فضيلة العفو، مرددا قول رسول الله (ﷺ): **((ما زاد عبد بالعفو إلا عزا))**.

وكان بعض المنتسبين إلي الفقه والثقافة وعلوم الدين قد صانعوا حكام بني أمية وزينوا لهم الاستبداد وافتوا لهم بأنهم ظل الله في الأرض، وانهم لا يسألون عما يفعلون.

وكان الأمويون يحسنون مكافأة هؤلاء المتملقين، فيجذلون لهم العطاء ويولون بعضهم، وكان بعض هؤلاء الولاة يحب أن يبدو فقيهاً عالماً علي الرغم من جهله المركب، وقد تعود أحد هؤلاء المرتزقة المنافقين أن يتقرب إلي الخليفة الأموي بلعن الإمام ((علي بن أبي طالب)) كرم الله وجهه وسب ((فاطمة الزهراء)) رضي الله عنها.

ضال ومضلل:

ذهب الإمام جعفر واستمع له، ثم انقض مقاطعاً له وكشف للناس جهله ونفاقه، وأوضح للناس وهو يعظهم أن مثل هذا المنافق الذي يبيع شرفه وضميره بالمنصب أو بالجاه أو المال، ويبيع آخرته بدنياه، إنما هو ضال مضلل، وهو أبين الناس خسرانا يوم القيامة، وأن محض افتراءاته وكشف جهله واجب.

وعندما سقطت دولة بني أمية طالب الثوار ((جعفر الصادق)) أن يقبل البيعة ليصبح هو الخليفة، فرفض، فهو يحلق في سماء المعرفة ويضرب في أغوار العلم، ويشعر أنه أقوي من الملك.. وأنه باستمراره في دوره العلمي أنفع للناس. وكان يقول ((من طلب الرياسة هلك)).

وتولي ((أبو العباس)) الخلافة وجاء عصر جديد يتطلع الناس فيه إلي الحرية والطهارة والعدل، فإذا بالمنافقين الذين زينوا الاستبداد لبعض الأمويين وشرعوا لهم العدوان والطغيان يحيطون بأبي العباس، وعندما ورثة المنصور، إذ بهؤلاء المنافقين يحيطون بالخليفة الثاني، وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها، وإذ بهم يوهمونه أنه فوق الحساب، حتي لقد جعلوا المنصور يحمل الناس علي تقبيل الأرض بين يديه.

بل راح هؤلاء المرتزقة يدعون الناس إلي التقشف باسم الإسلام، ويحببون الفقر إلي الناس باسم الدين، لينصرف المستبدون إلي جمع المال، وينصرفوا هم إلي الارتزاق.

لقد أرادوا من الأمة أن تواجه إسراف الطبقة الحاكمة لا باستخلاص الحق المعلوم الذي شرعه الله،بل بالزهد في كل شيء والانصراف عن الحق، ووضعوا الأحاديث النبوية التي لم تسلم من تزييفهم لخدمة الطبقة المالكة.

التفاف الأمة حوله:

ولأنه كان يتمتع بالصدق والصفاء في التعامل مع الحياة والناس والأشياء، لكل هذه السماحة والعذوبة والرقة والتسامح، ولإشراقه الروحي الرائع، وذكائه المتوقد الخارق، وبجسارته في الدفاع عن الحق، وقوته علي الباطل، وبكل ما تمتع به من طهارة وسمو وخلق عظيم، التف

الـناس علي اختلاف آرائهم حول الإمام «جعفر بن محمد»، وكما كان حكام بني أمية يراقبون التفاف الناس حوله بفزع، أخذ الخليفة العباسي... المنصور.. يراقب الإمام جعفر متوجساً من جيشان العواطف نحوه، وإعجاب الناس به.

أخذ المنصور يتربص بالإمام جعفر، وعرف أن الإمام يحارب الزهد. وكانت جماعات الزهاد تحبب إلي الناس الفقر، وتدعوهم إلى العزوف عن الدنيا، وإلي عدم التفكير في شئونهم. وقد شجع حكام بني أمية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن التفكير في المظالم، ويصرفوهم عن المقارنة بين غـنى الحكام وفقر المحكومين. وجاء بنو العباس ليشجعوا هذا الاتجاه إلى الزهد، حتى لقد قويت الدعوة إلي الانصراف عن هموم الحياة.

محاربة الزهد:

ورأي الإمـام جعفر أن هذه الدعوة تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً، وإنها ليست من الله في شـيء فهـي تزين للفرد ألا يهتم بمصلحة الأمة، وألا يحاسب الحاكم، وتتيح للحكام أن يعطلوا الشوري، وهي أساس الحكم في الإسلام.

ومضـي الإمـام الصادق يناقش الزاهدين، فالزهد كما يفهمه الإمام الصادق هو الاكتفاء بالحلال، لا التجرد من الحلال.

ورأي المنصـور في دعوة جعفر ضد الزهد والفقر تحريضاً لعامة المسلمين علي أن يستمتعوا بحقوقهم في المال، ودعوة إلى إثارة التمرد، وكان استبداد المنصور قد استشري، وكما فعل الحكام الأمويـون مـن قـبل، بطش المنصور بكل من يخالف رأيه ووجه بطشه إلي آل البيت، في هذه الظروف ظل الإمام جعفر يناضل بالكلمة دفاعا عن كل آرائه وعن حرية العقل والإرادة وشرف المـثقفين، ثم أنـه أخذ ينشر من فتاوي الإمام علي واقضيته مما حرص الحكام والمستغلون علي إخفائه. فأفتي بأنه لا يحق للمسلم أن يدخر أكثر من قوت عام إذا كان في الأمة صاحب حاجة، إلي طعام أو مسكن أو كساء أو علاج أو دواء أو ما يركبه.

وأفـتي بأن السارق إذا اضطر إلى السرقة لأنه لا يعمل، فولي الأمر هو المسئول وهو الآثم.. فـإذا سرق السارق لأنه لا يحصل علي الأجر الذي يكفيه هو وعياله، فالذى يستغله أولي بقطع اليد.

وجد المنصور في هذه الفتاوي تحريضاً عليه، واتهم «الإمام جعفر الصادق» بأنه يطمع في الخلافة، فقال له الصادق: «.. والله ما أنا طامع في ذلك ولقد كنت في ولاية بني أمية، وأنت تعـلم أنهـم أعدي الخلق لنا ولكم، وانهم لاحق لهم في هذا الأمر، فو الله ما بغيت عليهم ولا بلغهـم عني شيء مع جفائهم الذي كان لي، فكيف أصنع هذا الآن وأنت ابن عمي، وأرحم الخلق بي رحماً...»

أعلم الناس:

ومع ذلك حاول المنصور إحراج الإمام الصادق، فاستدعي أبا حنيفة النعمان وقال له: فُتن الـناس «بجعفر بن محمد» فهيئ له من المسائل الشداد، ظناً منه أن أبو حنيفة أعلم منه. وبالفعل

جـــاء الإمام الصادق وأبو حنيفة وجلس الناس، وأخذ أبو حنيفة يسأل الإمام في أربعين مسألة، والإمـــام يجيبه عن كل مسألة، فيقول فيها رأي فقهاء الحجاز، ورأي فقهاء العراق، ورأي فقهاء آل البيـــت، ورأيه هو. وما ملك أبو حنيفة إلا أن يقول: الإمام جعفر أعلم الناس، فهو أعلمهم باختلاف الفقهاء بل أنه صحب الإمام جعفر بعد ذلك سنتين يتلقى منه العلم.

كان الإمام جعفر مستمراً في دروسه يعلم الناس ويفتيهم ولا يأبه بالمنصور، في الوقت الذي حاول الأخير استمالته إليه. أرسل إليه الخليفة يوما يسأله: لم لا تخشانا كما يخشانا الناس؟ فكتب إليه الإمام جعفر ((ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنئك، ولا نراها نقمة فنعزيك)).

فكتـــب إليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا. فأجابه الإمام الصادق: من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك*.

صدق الإمام:

و لم يـــرق هـــذا للمنصـــور، فاستدعاه واتهمه بأنه يجمع الزكاة، وجمع الزكاة حق للخليفة وحده، فهو إذن يدعو لنفسه، وشهد ضد الإمام شاهد زور فكذب الإمام أقوال الشاهد، فطلب المنصـــور من الإمام أن يحلف بالطلاق، ولكنه رفض فقد كان يفتي بأن الحلف بالطلاق لا يجوز وقال أنه لن يحلف بغير الله فقال له الخليفة محتداً: لا تتفقه علي فقال الإمام هادئا مبتسماً: ((وأين يذهب الفقه مني؟ ثم طلب الإمام من الشاهد أن يحلف علي دعواه فحلف شاهد الزور)).

وكـــان الخليفة قد إقتنع بأن الإمام صادق في قوله، فقد عرفه الجميع بالصدق ووقع شاهد الزور ميتاً، ومع ذلك فقد دعا للرجل بالرحمة.

وحطت ذبابة علي وجه الخليفة لم يفلح في أبعادها، إذ كانت تعود فتستقر علي وجهه..

فسأل: لماذا خلق الله الذباب؟ فقال الإمام جعفر الصادق.. ليذل به الجبابرة.

فقـــال له الخليفة متلطفا وجلا: سر من غدك إلي حرم جدك ان اخترت ذلك. وإن اخترت المقام عندنا لم نأل في إكرامك وبرك، فو الله لا قبلت قول أحد فيك بعدها أبدا.

وفضل الإمام العودة إلى المدينة المنورة وكان قد جاوز الخامسة والستين وظل بها يعلم الناس ويفقههـــم ويشرح للفقهاء كيف يستنبطون الأحكام عندما لا يجدون الحكم في الكتاب والسنة. وفي الثامنة والستين مات الإمام الصادق الذي رفض أن يكون خليفة.

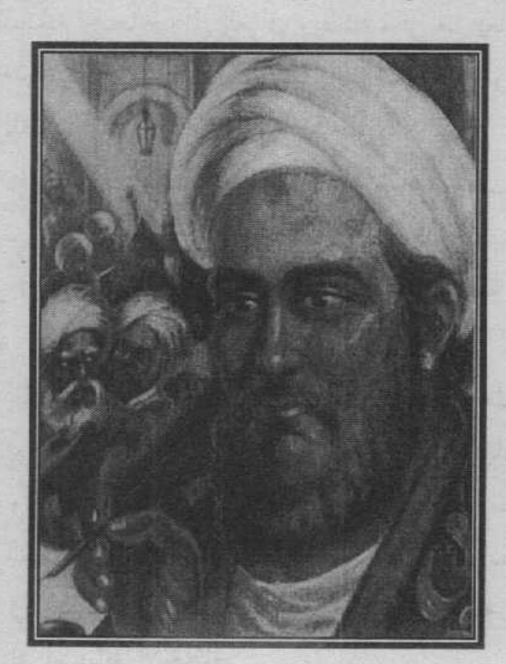
---

*سعد القاضي، ((جعفر الصادق))، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١، ص٤١.

الإمـــام أبـــو حنـــيفة

(٨٠-١٥٠هـ) (٦٩٩-٧٦٧م)

دفـــاع عـــن الحـــرية حـــتى المـــوت



الدين قوة وشجاعة، غلبة وانتصار، إذا ما ملأ الإيمان قلبا ما عرف صاحبه الخوف يومـــا، لأنه يوقن أن الله هو الذي يخشاه ولا يخشي أحدا سواه، وأن الأمة لو اجتمعت علي أن يضروه ما ضروه إلا بشيء قد كتبه الله له. الإيمان القوي يجعل صاحبه لا يسير إلا في اتجاه الحق، يكسبه حجه ناصعة، ورأيا سديدا. تهون عليه الحياة ولا يهون الدين.

المؤمـــن الحق هو من أطاع الله والرسول. وأولي الأمر إلا في معصية، نصرة الدين شـــاغله الأول. وقول الحق لدي السلطان ديدنه. وهكذا كان «أبو حنيفة النعمان». صـــاحب الاقتحامات الفكرية الجسور، الذي كان عارفا بأحوال الحياة، مستوعبا كل ثقافـــة مـــن سبقوه ومن عاصروه، خبيرا بالرجال، شديدا علي الباطل مرير السخرية بالمزيفين، لاذعا مع المنافقين من متعاطي الفقه والعلم والثقافة في عصره.

ولـــد «أبو حنيفة النعمان» بالكوفة سنة ٨٠ هـ. من أسرة فارسية، وقد شهد في طفولـــته فظـــائع الحجاج والي العراق وبطشه بكل من يعارض الأمويين حتي العلماء الأجـــلاء، فدخـــل في نفســـه منذ صباه عزوف عن الأمويين واستنكار لاستبدادهم، ورفض عام للطغيان. وورث عن أبيه وأمه حبا لآل البيت.

وكـــان أبوه تاجرا فعمل معه وهو صبي، وأخذ يختلف إلي السوق ويحاور الكبار ليتعـــلم منهم أصول التجارة وأسرارها، ولاحظ أحد الفقهاء اهتمامه بالعلم، فقال له: عليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء. فإني أرى فيك يقظة وفطنة.

طلب العلم:

مـــنذ ذلك اليوم وهب الفتي نفسه للعلم، واتصل بالعلماء، و لم تنقطع تلك الصلة حـــتي آخر يوم في حياته، حيث انطلق يرتاد حلقات العلماء في مسجد الكوفة، يدرس علوم الكلام والأحاديث النبوية والفقه والقرآن الكريم. ثم مضي ينشد العلم في حلقات البصـــرة. وانتهت به رحلاته بين البصرة والكوفة إلي العودة إلي موطنه بالكوفة، وإلي الاســـتقرار في حلقـــات الفقـــه، لمواجهة الأقضية الحديثة التي استحدثت في عصره، ولدراسة طرائق استنباط الأحكام.

وكان أبوه قد مات، وترك له بالكوفة متجرا كبيرا للحرير يدر عليه ربحا ضخما، فـــرأي أبـــو حنيفة أن يشرك معه تاجرا آخر، ليكون لديه من الوقت ما يكفى لطلب العلم وللتفقه في الدين ولإعمال الفكر في استنباط الأحكام.

ودرس علي عدة شيوخ في مسجد الكوفة، ثم استقر عند شيخ واحد فلزمه، حتي إذا مـــا ألم بالشيخ ما جعله يغيب عن الكوفة، نُصب أبا حنيفة شيخا علي الحلقة حتي

يعود. وعندما جلس مكان شيخه سُئل في مسائل لم تعرض له من قبل، فأجاب عليها وكانت ستين مسألة.

وعندما عاد أستاذه عرض عليه الإجابات فوافقه علي أربعين، وخالفه في عشرين، ومـــات الشيخ وأبو حنيفة في الأربعين، فأصبح شيخا للحلقة، وكان قد دارس علماء آخـــرين في رحـــلات إلي البصـــرة وإلي مكة والمدينة خلال الحج والزيارة، وأفاد من علمهم وبادلهم الرأي، ونشأت بينه وبين بعضهم حوادث، كما انفجرت خصومات.

ووزع وقـــته بين التجارة والعلم، وأفادته التجارة في الفقه، ووضع أصول التعامل التجاري علي أساس وطيد من الدين، وكان «أبوبكر الصديق» رضي الله عنه هو مثله الأعـــلي في التجارة من حيث حُسن التعامل والتقوي والربح المعقول الذي يدفع شبهة الربا.

التاجر الحق:

في تجارته يعطي «أبو حنيفة النعمان» المثل والنموذج لكل تاجر في الصدق والأمانة، جاءته امرأة تبيع له ثوبا من الحرير وطلبت ثمنا له مائة درهم، وعندما فحص الثوب قال لها: هو خير من ذلك، فزادت مائة، ثم زادت حتي طلبت أربعمائة فقال لها نفس القول، فقالـــت أتهزأ بي؟ قال لها: هاتِ رجلا يقومه، فجاءت برجل فقومه بخمسمائة. فهل يوجد مثل أبوحنيفة بين بعض تجار اليوم الذين لا يهمهم إلا الربح وبأي وسيلة حتي ولو كانت غير مشروعة.

وأرادت امـــرأة أخري أن تشتري منه ثوبا فقال: خذية بأربعة دراهم، فقالت له: لا تســـخر مني وأنا عجوز، فقال لها: إني أشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم، فبقي هذا الثوب علي أربعة دراهم.

وذهـــب إلي حلقة العلم يوما، وترك شريكه في المتجر، وأعلمه أن ثوبا معينا من الحريـــر به عيب خفي، وأن عليه أن يوضح العيب لمن يشتريه، وباع الشريك الثوب دون أن يوضح العيب.

وظل «أبو حنيفة» يبحث عن المشتري ليدله علي العيب، ويرد إليه بعض الثمن، ولكنه لم يجده، فتصدق بثمن الثوب كله، وانفصل عن شريكه.

وعلي الرغم من أنه كان يكسب أموالا طائلة، فقد كان لا يكتز المال، يحتفظ بما يكفـــيه لنفقة عام ويوزع الباقي علي الفقراء والمعسرين، فإذا عرف أن أحدا في ضيق، أسرع إليه، وألقي بصره علي بابه، ونبهه إلي أنه وضع علي بابه شيئا، ويُسرع قبل أن يفتح صاحب الحاجة الصرة.

وكـــان «أبو حنيفة» يدعو أصحابه إلي الاهتمام بمظهرهم، وكان إذا قام للصلاة لـــبس أفخر ثيابه وتعطر، لأنه سيقف بين يدي الله، فقد كان يعمل بالحديث النبوي القائل: إن الله يحب أن يري أثر نعمته علي عبده.

تواضع وحياء:

وكـــان شديد التواضع، كثير الصمت، يقتصد في الكلام، ولا يقول إلا إذا سُئل، وإذا أغلـــظ إلـــيه أحد أثناء الجدال صبر عليه، وإذا دخلت إليه امرأة تستفتيه قام من الحلقـــة وأسدل دونها ستارا ليحفظها من عيون الرجال، وأجابها عما تسأل، وقد نبع هـــذا التقدير الكبير للمرأة من حبه العميق لأمه، ثم من فهمه الواعي للإسلام واتباعه اليقظ للسنة واجتهاداته الذكية، وقد قاده اجتهاده إلي الإفتاء بأن الإسلام يبيح للمرأة حق تولي كل الوظائف العامة بلا استثناء حتي القضاء.

قـــال أبوحنيفة بذلك حوالي سنة ١٢٠هـ ومازال علماء الدين في عصرنا يختلفون حول هذا الأمر ويرفض بعضهم في شدة تولي المرأة القضاء!!

كـــان مخالفوه في الرأي يغرون به السفهاء والمتعصبين والمتهوسين، ويدفعونهم إلي اتهامه بالكفر، وإلي التهجم عليه، فيقابلهم بالابتسام، ولكنه علي الرغم من سماحته لم يكـــن يسكت عن خطأ الفقهاء من الذين جعلوا كل همهم نفاق الحكام وإرضاءهم، كان بعضهم يفتي في المسجد إلي جوار حلقة أبي حنيفة، فإذا أخطأ انبري له أبو حنيفة يكشف ذلك الخطأ، ويعلن الصواب علي الناس.

هـــذه الصراحة في النقد ألبت عليه الخصوم، الذين كانوا صنفين: بعض الفقهاء ممن وجدوا انصراف الناس عن حلقاتهم إلي حلقة أبي حنيفة وحكام ذلك الزمان.

كـــان أعـــداؤه وفي مقدمتهم «ابن أبي ليلي» وتابعه «شبرمة» - فقهاء للدولة في العصـــر الأموي، حتي إذا جاء العصر العباسي تحولوا إلي الحكام الجدد واحتالوا عليهم بالـــنفاق حتي أصبحوا هم أهل الشوري، يزينون للحكام الجدد كل ما زينوه للحكام السابقين من طغيان وعدوان وبغي واستغلال وبطش بالمعارضين، واصطنعوا من الآراء الفقهـــيه، وقـــبلوا مـــن الأحاديـــث الضعيفة أو الموضوعة ما يسند الطبقة الحاكمة والمســـتغلين، ومـــا يصرف الناس عنهم وعن أمور الدنيا وعن سياسة حياتهم، لينقطع الناس إلي التقشف، ويتركوا مستغليهم يستبدون.

استقلال واحترام:

في الوقـــت الذي كان أبو حنيفة يحتفظ فيه باستقلاله أمام الحكام، كان يكسب احترامهم حتي ولو اختلفوا معه. فعندما وقع خلاف بين الخليفة المنصور وزوجته لأنه

أراد أن يـــتزوج عليها، أراد أن يحتكما إلي فقيه، فرفضت الزوجة الاحتكام إلي قاضي القضـــاة «ابـــن أبي ليلي» أو إلي تابعه شبرمة، أو إلي أحد الفقهاء من بطانة المنصور، وطلبت أبا حنيفة.

وعـــندما حضر «أبو حنيفة» أبدي الخليفة رأيه أن من حقه الزواج، لأن الله أحل للمسلم الزواج بأربع، والتمتع بمن يشاء من الإماء مما ملكت يمينه.

فـــرد أبـــو حنيفة: إنما أحل الله هذا لأهل العدل، فمن لم يعدل فواحده. قال الله تعـــالي: ﴿**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**﴾. فينبغي علينا أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه. وضاق الخليفة بفتواه، ولكنه أخذ بها.

وقـــد جد فى عصر أبي حنيفة كثير من الحوادث والأقضية والأحوال، بعد اتساع الدولة وتشابك الأمور، وظهور ألوان كثيرة من النشاط التجاري والاجتماعي، وواجه الإمام هذا كله بالاجتهاد لاستنباط الأحكام التي تضبط العلاقات.

ومـــا كـــان يبتدع في قياسة- كما رماه خصومه - وما كان يهدر السنة- كما حـــاول ابن أبي ليلي وتابعه شبرمة أن يصوراه كيدا له، بل كان منهجه قياس المسألة علي أخري ليردها إلي أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فيجتهد[*] .

المساواة بين الرجل والمرأة:

وقـــاده هـــذا الاجتهاد إلي عدد من الآراء الحرة، ومنها الدعوة إلي المساواة بين الـــرجل والمرأة في عصر بدأت المرأة فيه تتحول إلي حريم للمتاع، فأفتي بأن للبالغة أن تـــزوج نفسها، وهي حرة في اختيار زوجها، كما أفتي بعدم جواز الحجر علي أموال الديـــن، حتي لو استغرقت الديون كل ثروته، لأن في هذا مصادرة لحريته. وأفتي بعدم جواز الحجر علي أحد، لأن في الحجر إهدار للآدمية وسحقا للإرادة.

وفي كـــل أمر من أمور الحياة تتعرض فيه حرية الإنسان لأي قيد، أفتي الإمام أبو حنـــيفة باحترام الحرية وكفالتها، لأن في ضياع حرية الإنسان آذى لا يعدله اذى وقد قـــام فقـــه الإمـــام ابى حنيفة على احترام حرية الإرادة، ذلك أن افدح ضرر يصيب الإنســـان هو تقييد حريته أو مصادرتها. وكل أحكامه قائمة علي أن هذه الحرية يجب صيانتها شرعا، وأن سوء استخدام الحرية أخف ضررا من تقييدها.

---

[*] صبرى الأشوح، «التفكير عند أئمة الفكر الإسلامى»، مكتبة وهبه، القاهرة ١٩٩٧، ص١٨٣.

لا لقتال المسلمين:

ومن فتاواه الهامة، أنه أفتي بتحريم الخروج لقتال المسلمين والفتك بهم، مما صرف بعض قواد الجيش في عصره عن حرب العلويين وخصوم الحكام ومعارضة آرائهم. ومن ذلك أن «الحسن بن قحطية» أحد قواد المنصور دخل علي أبي حنيفة يسأله: أيتوب الله عليّ؟.

وكان الحسن هذا قد قاد جيوشا للمنصور فقتل العلويين وخصوم العباسيين، فقال له أبو حنيفة: إذا علم الله تعالي أنك نادم علي ما فعلت، فلو خيرت بين قتل مسلم وقتل نفسك لأخترت ذلك علي قتله، وتجعل علي الله عهدا علي ألا تعود لقتال المسلمين، فإن وفيت فهي توبتك. فقال القائد: إني فعلت ذلك وعاهدت الله علي ألا أعود إلي قتل مسلم. ثم ثار العلويون فأمر المنصور القائد أن يفتك بهم، فجاء القائد إلي أبي حنيفة يسأله الرأي، فقال له أبو حنيفة: فقد جاء أوان توبتك. إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب، وإلا أخذت بالأول والآخر.

فامتنع القائد عن تنفيذ أمر المنصور، وسلم نفسه إلي العقاب وهو القتل، إذ دخل علي المنصور فقال أنه لن يقتل المسلمين بعد!، فغضب الخليفة عليه وأمر بقتله، حتي استشفع له أخوه قائلا: إننا ننكر عقله منذ سنة، وأنه قد جن. ولما عرف المنصور أن القائد كان يتردد علي أبي حنيفة أسرها في نفسه.

زهد في المناصب:

رفض أبو حنيفه أن يقبل المناصب، عرض عليه الأمويون منصب القاضي، فرفضه فسجنوه وعذبوه في السجن، وظلوا يضربونه بالسياط حتي ورم رأسه ومع ذلك لم يقبل المنصب، لأنه كان يري أن تحمل المسئولية في عهد يعتبر هو حاكميه ظالمين مغتصبين، إنما هو مشاركة في الظلم وإقرار للاغتصاب. وساءت صحته في السجن، وبدأت الثورة تتجمع ضد الخليفة الأموي احتجاجا علي ما يحدث لأبي حنيفة، فأطلقوا سراحه. وبعد خروجه قرر أن يهجر الكوفة وأقام بالحجاز حتي سقطت الدولة الأموية، فعاد إلي موطنه، ظنا أن العباسيين سيكونون خيرا من الأمويين لكن العباسيين لم يتركوه، فمنذ شعر بخيبة الأمل فيهم لاضطهادهم للعلويين من آل البيت واصطناعهم المرتزقة من الفقهاء، بدأ يجهر برأيه في استبدادهم وطغيانهم. ورفض كل هداياهم كما رفض هدايا الأمويين من قبل. وعرضوا عليه منصب قاضي القضاة فأبي، وتمسك بالتفرغ للعلم.

بـــدأ خلافه مع الحكام الجدد بإحراج وزير الخليفة الأول، وكشف أكاذيبه أمام الخلـــيفة في محـــاورة حاول فيها الوزير الأول أن يوقع بالإمام، ففضحه الإمام وأفسد حيلـــته، وقد أفتى أبو حنيفة بأن الوزير لا تصلح شهادته لأنه يقول للخليفة أنا عبدك، فإن صدق فهو عبد ولا شهادة له، وإن كذب فلا شهادة لكاذب.

وقد أخذ أحد تلاميذ أبي حنيفة بهذا النظر فيما بعد حين ولي القضاء، فرد شهادة الوزير الأول لخليفة آخر، لأنه قبل الأرض بين يدي الخليفة قائلا له: أنا عبدك.

الكيد لأبي حنيفة:

انضـــم الوزير الأول إلي خصوم «أبو حنيفة» وفي مقدمتهم «ابن أبي ليلي»، أخذ الوزيـــر الأول يكـــيد عند الخليفة لأبي حنيفة، انتهز فرصة خروج أهل الموصل علي الخلـــيفة، وكانوا قد شرطوا علي أنفسهم إن هم خرجوا علي الخليفة أن تباح دماؤهم وأموالهـــم، وأرســـل الخليفة إلي أبي شبرمة وابن أبي ليي ليسألهما رأي الدين في أهل الموصـــل، وكان قد أعد جيشا للفتك بهم، واقترح الوزير الأول علي الخليفة أن يدعو أبـــا حنـــيفه، وكان يعرف أن تقواه وشجاعته وكل فضائله ستقوده إلي مخالفة رأي الخليفة، وحضر الفقهاء الثلاثة فسألهم عن حكم الشرع فى أهل الموصل، وسكت أبو حنـــيفة وافتى الاخران بان أهل الموصل يستحقون الفتك بهم. وافتى «ابو حنيفة» بان الخلـــيفة لا يحق له الفتك بأهل الموصل لأنهم بإباحتهم أرواحهم وأموالهم إنما أباحوا ما لا يملكون، وسأل لو إن امرأة أباحت نفسها بغير عقد زواج أتحل لمن وهبته نفسها ؟ فقال الخليفة . لا.. فطلب الإمام أبو حنيفة منه أن يكف عن أهل الموصل فدمهم حرام عليه، وأن يوجه الجيش إلي حماية الثغور، أو إلي فتح جديد لنشر الإسلام، بدلا من أن يضرب به المسلمين. ومضي أبو حنيفة إلي داره.

ومـــرة أخـــري حاول ابن أبي ليلي وشبرمة والعصبة المعادية لأبي حنيفة في قصر الخليفة أن يجعلوا الخليفة يقهر أبا حنيفة علي قبول ما يعرضه عليه من مناصب، فإذا أبي فقـــد امتنع عن أداء واجب شرعي فحق عليه العقاب، ووجب أن يشهر به في الأمة، لأنه يتخلي عن خدمتها.

واقـــترحوا علي الخليفة أن يبدأ فيمتحن ولاءه، فيرسل إليه هدية، وكانوا يعرفون ســـلفا أن الإمـــام أبا حنيفة لن يقبل الهدية، وأرسل له الخليفة مالا كثيرا وجارية، فرد الهديـــة شاكرا، ثم أرسل الخليفة إليه يلح عليه فى ولاية القضاء أو فى أن يكون قاضيا للدولة. يرجع إليه القضاة فيما يصعب عليهم القضاء فيه، بما أنه يكثر من لوم القضاة علي أحكامهم ويكشف للعامة جهل شيخهم «ابن أبي ليلي» و«شبرمة».

ورفض أبو حنيفة، فاستدعاه الخليفة يسأله عن سبب رفضه فقال له: ((والله ما أنا بمــأمون الرضـــا فكيف أكون مأمون الغضب؟. ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو الحكم عليك لاخترت أن أغرق. ثم أن تلك حاشية يحتاجون إلي من يكرمهم لك، فلا أصلح لذلك)).

وكانت الحاشية كلها تحيط بالخليفة، وعلي رأسها وزيرة الأول والفقيهان ابن أبي ليلي وابن شبرمة، فأبدوا التذمر، وبان عليهم استنكار ما يقوله الإمام أبو حنيفة، فقال الخليفة محنقا: كذبت. فقال أبو حنيفة في هدوء حكمت علي نفسك. كيف يحل لك أن تولي قاضيا علي أمتك وهو كاذب؟!.

حبس وتعذيب:

وســأله الخلــيفة عــن سبب رفض هداياه، فقال له أبو حنيفة أنها من بيت مال المسلمين ولاحق في بيت المال إلا للمقاتلين أو الفقراء أو العاملين في الدولة بأجر، وهو لــيس واحدا من هؤلاء. فأمر الخليفة بحبسه وضربه بالسياط حتى يقبل منصب قاضي قضـــاة بغــداد. ورغم الضرب وكثرة التعذيب ظل الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان يرفض في إباء. وتدهورت صحته وأشرف علي الهلاك.

وخشي معذبوه أن يخرج فيروي للناس ما قاسي في السجن فيثور الناس، وقرروا أن يتخلصــوا منه فدسوا له السم، وأخرجوه وهو يعاني سكرات الموت. وحين شعر بأنها النهاية أوصي بأن يدفن في أرض طيبة لم يغتصبها الخليفة أو أحد رجاله.

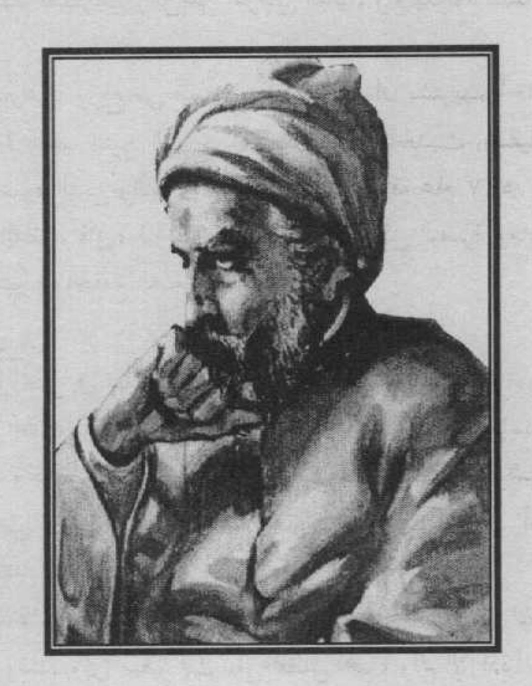
وهكــذا مات أبو حنيفة فارس الرأي الذي عُرف في السنوات الأخيرة من حياته باسم الإمام الأعظم. وشيعه خمسون ألفا من أهل العراق في سنة ١٥٠هـ*.

*عــبد الــرحمن الشرقاوي، ((أئمة الفقه التسعة))، دار إقرأ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. ص٧١.

سفيان الثورى

(٩٧ـ ١٦١هـ)

أمة وحده



العــلماء ورثة الأنبياء، عليهم أن يبينوا للناس أمور دينهم، وصلاح دنياهم وأخراهم حتى لا يكونـــوا ممـــن عـــناهم الله بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين**﴾ [آل عمران، آية ١٠٠].

فـــإن لم يـــؤدوا رسالتهم انتفت عنهم الخيرية التي أمتن الله بها علي أمة محمد (ﷺ): ﴿**إن الذيـــن يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾ [البقرة، آية ١٥٩].

فالعـــلماء ورثة الأنبياء لأنهم يكملون الرسالة ويدعون إلى الحق، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، مثلما يفعل بعض علماء هذه الأيام، الذين نسوا قول الله تعـــالى: ﴿**إن الذيـــن يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك لا يأكلون في بطونهم إلا النار**﴾.

أيـــن علماء اليوم الذين سكتوا عن الحق من علماء الأمس الذين اعتزوا بالعلم فأعزهم الله، ولم يـــبيعوا إخلاصـــهم بعـــرض زائل من أعراض الدنيا، ولم يقولوا كلمات النفاق حرصاً علي منصب أو مال.

فلقد أغلى الله سعرهم، ورفع من قيمتهم، فلم يستطع أن يشتريهم أحد غير ربهم.

مـــن هؤلاء العالم الفقيه التقى الورع، أمير المؤمنين في الحديث «**سفيان بن سعيد الثوري**» ســـيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. والذى ولد بالكوفة عام ٩٧هـ. ونشأ بها، أراد الخليفة المنصور منه أن يتولى القضاء فأبى، فارتحل إلى المدينة، ثم سكن البصرة ومات بها عام ١٦١هـ. له من الكتب: الجامع الكبير، والجامع الصغير في الحديث.

لم يسكت على باطل:

هـــذا العـــالم لم يخش في الله لومة لائم، ولم يسكت علي باطل رآه، ولم يكف عن توجيه النصح إلى الحكام قبل المحكومين. عندما تولي «الرشيد» الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا «**سفيان الثوري**»، فإنه لم يأت وكان بينهما صُحبة، فشق ذلك عليه، فكتب «**الرشيد**» إليه كتاباً قال فيه:

«بســـم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله «هارون» أمير المؤمنين إلى أخيه في الله «سفيان بن سعيد الثوري».. أما بعد:

يـــا أخـــى فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين، وقد آخيتك في الله مؤاخاة لم أحرم فيها حبك، ولم أقطع منها ودك. وإني منطو لك علي أفضل المحبة، وأتم الإرادة.

ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله تعالى –يقصد الخلافة– لأتيتك ولو حبواً، لما أجد لك في قلـــبى مـــن المحبة، وإنه لم يبق أحد من إخواني وإخوانك إلا زارني، وهنأني بما صرت إليه، وقد فتحـــت بـــيوت المال، وأعطيتهم من المواهب السنية ما فرحت به نفسى وقرت به عيني. وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت إليك كتاباً مني إليك أعلمك بالشوق الشديد إليك.

وقـــد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومواصلته. فإذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل..»

حرَّمت حبك:

فلما وصل الكتاب إلى سفيان وفرغ من قراءته قال: أقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يُجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يُصلى به، ولا يبقى شئ مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا.

فقيل له ما نكتب إليه..؟

قال اكتبوا له: بسم الله الرحمن الرحيم.. من العبد الميت «**سفيان**» إلى العبد المغرور بالآمال «**هارون**» الذي سُلبَ حلاوة الإيمان ولذة قراءة القرآن.

أما بعد:

فإني كتبت إليك أعلمك أني قد حرَّمت حبك، وقطعت ودك.

وإنـــك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت علي بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه. وأنفذته بغير حكمه. ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني، حتى كتبت إليَّ تشهدني علي نفسك..؟؟

فأمـــا أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل..؟؟

يا هارون.. هجمت علي بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟. أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام؟ أم رضي بذلك خلف من رعيتك؟.

فشـــد يا هارون مئزرك، وأعد للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً. واعلم أنك ستقف بين يدي الحكـــم العدل. فاتق الله في نفسك إذ سُلبت حلاوة العلم والزهد، ولذة قراءة القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين أماماً.

كيف بك غدا؟

يا هارون قعدت علي السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك، وتشبهت بالحجبة بـــرب العـــالمين.. ثم أقعـــدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشـــربون الخمـــر ويحدون الشارب، ويزنون ويجلدون الزاني، ويسرقون ويقطعون يد السارق. ويقتلون ويقتلون القاتل. أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها علي الناس؟

فكـــيف بـــك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى: ﴿**احشروا الذين ظلمو وأزواجهـــم**﴾ [الصافات، آية٢٢]. أين الظلمة وأعوانهم؟ فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك. والظالمون حولك، وأنت لهم سابق وإمام إلى النار.

---

* د. عبد الرحمن عميرة، مواقف العلماء أمام الحكام والولاة، دار العلم والثقافة، القاهرة،٢٠٠٢، ص٣١.

﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى﴾ [طه، الآيات ١٢٤ – ١٢٦].

وكـأني بـك يـا هارون، وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسـناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك.. بلاء علي بلاء، وظلمة، فوق ظلمة فـاتق الله يـا هارون في رعيتك، واحفظ محمد (ﷺ) في أمته. واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك.

وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزوده زاداً نفعه. ومنهم من خسر دنياه وآخرته.

فاحـتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم أني قد نصحتك، وما أبقيت في النصح غاية. والسلام».

فـلما وصل الكتاب إلى «هارون الرشيد» أقبل يقرأه والدموع تنحدر من عينه وهو يشهق. فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، لقد اجترأ عليك «سفيان»، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد ووضعته في السجن، وجعلته عبرة لغيره.

فقال هارون: أتركوا سفيان وشأنه، يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه. والشقى والله حقاً من جالستموه. إنه سفيان أمة وحده.

..هـذا ما فعله «سفيان الثوري» مع الخليفة «هارون الرشيد».. فهل يمكن أن يحدث ذلك في أيامنا هذه؟ هل نجد العالم الفقيه الذى يقول للحاكم اتق الله؟

النهي عن الإسراف في أموال الأمة:

لم يكـن هـذا هو حال «سفيان» مع «هارون» وحده، ولكنه كان كذلك مع كل حاكم وسـلطان لا يـرعى الله في أمة محمد صلى الله عليه وسلم. فقد تعلم «الثورى» أن الإسراف في أموال الأمة من أكبر الكبائر عند الله سبحانه وتعالى، لأنه سبحانه لا يرضى للمرء أن يسرف في ماله الخاص، فكيف بأموال المسلمين.

قـال سفيان الثوري: لما حج الخليفة المهدى أرسل إليّ من يأخذني إليه ليلاً، فلما مثلت بين يديه أدناني، ثم قال: لأى شئ لا تأتينا؟. فنستشيرك فى أمرنا، فما أمرتنا فى شيء صرنا إليه، وما نهيتـنا عـن شـيء انتهينا عنه، فقلت له: كم أنفقت في سفرك هذا؟. قال: لا أدرى، لى أمناء ووكـلاء، قلـت: فمـا عذرك غداً إذا وقفت بين يدى الله تعالى، فسألك عن ذلك، لكن أمير المؤمـنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما حج قال لغلامه: كم أنفقنا في سفرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً، قال: ويحك، أجحفنا بيت مال المسلمين.

كـان «سـفيان الـثوري» من الرجال الذين اختصهم الله من بين العباد بقوة الإيمان وصدق العزيمة في مواجهة الباطل والوقوف بجانب الحق والدفاع عن مصالح الأمة.

دخل «الثورى» علي «أبي جعفر المنصور»، فقال له «أبو جعفر»: ها هنا يا أبا عبد إليّ إليّ، أدن منى، فقال: إنى لا أطأ مالا أملك ولا تملك، فقال «أبو جعفر»: يا غلام: ادرج البساط، وارفع الوطاء، فتقدم «سفيان»، فصار بين يديه فقعد، ليس بينه وبين الأرض شئ، وهو يقول: «منها خلقناكم وإليها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى»، فدمعت عينا أبى جعفر، ثم تكلم سفيان، فوعظ وأمر ونهى وذكر، وأغلظ القول، فقال له الحاجب: أيها الرجل، أنت مقتول، فقال «سفيان»: وإن كنت مقتولاً فالساعة، فسأله «أبو جعفر» عن مسألة فأجابه، ثم قال «سفيان»: فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد (ﷺ)بغير إذنهم؟

فعن ابن مسعود: أن رسول الله (ﷺ) قال: «رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه، له النار غداً» رواه البيهقى.

فقال أبو عبيدة الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟، فقال له «سفيان»: أسكت، فإنما أهلك فرعون هامان، وهامان فرعون، ثم خرج «سفيان»، فقال أبو عبيدة الكاتب للمنصور: ألا تأمر بقتل هذا الرجل، فو الله ما أعلم أحداً أحق بالقتل منه، فقال أبو جعفر أسكت، فو الله ما بقى علي الأرض أحداً اليوم يستحيا منه غير هذا – يقصد سفيان، ومالك بن أنس.

الثورى يواجه المهدى:

أراد المهدى، الخليفة العباسى، أن يتولى «سفيان الثوري» قضاء الكوفة، ولكن سفيان كان يأبى ذلك، ليس هربا من مسئولية القضاء، ولكن لعدم رغبته في أن يكون أحد عمال المهدى الظالم. الذى كان منكراً لخلافته.

قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدى، وأتى بسفيان الثورى كبير علماء المسلمين في عصره، فلما دخل عليه سلم و لم يسلم بالخلافة، والربيع قائم علي رأسه متكئاً علي سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدى بوجه طلق، وقال له يا سفيان، تفر منا ها هنا وها هنا، تظن أن لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟

قال «سفيان»: إن تحكم فيّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل، فقال الربيع له: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ إإذن لي أن أضرب عنقه؟.

فقال له المهدى: أسكت، ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم. اكتبو عهده علي قضاء الكوفة، بحيث لا يعترض عليه في حكم، فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج، ورمى به في دجلة، وغاب عن أنظار الناس، فطلب في كل بلد، فلم يوجد.

من واجب العالم تبصير الناس بتحرى الحق في أعمالهم وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى لا يكونوا عونا للظالمين فى ظلمهم.

مر شيخ من الكوفيين كان كاتباً، بسفيان الثورى، فقال له سفيان: يا شيخ، ولىّ فلان فكتبت له ثم عُزل، وولى فلان فكتبت له ثم عُزل، وولى فلان فكتبت له. وأنت يوم القيامة أسو أهم حالاً، يدعى بالأول فيسأل، ويدعى بك فتسأل معه عما جرى علي يدك له، ثم يذهب

وتوقـــف أنت حتى يدعى بالأخر فيسأل وتسأل أنت عما جرى على يدك له، ثم يذهب وتوقف أنت حتى يدعى بالآخر، فأنت يوم القيامة أسوأ هم حالاً*.

فقال الشيخ: فكيف أصنع يا أبا عبد الله بعيالى؟ فقال سفيان: اسمعوا هذا، يقول: إذا عصى الله، رزق عـــياله، وإذا أطاع الله ضيع عياله، ثم قال سفيان: لا تقتدوا بصاحب عيال، فما كان عذر من عوتب إلا أن قال عيالى.

لا يبيع إخلاصه:

لم يقـــل «سفيان الثوري» كلمات النفاق حرصاً علي منصب أو مال، فهو لا يبيع إخلاصه بعـــرض زائـــل من أعراض الدنيا، لقى أبو جعفر المنصور في الطواف و لم يكن سفيان لا يعرفه، فضرب بيده علي عاتقه وقال: أتعرفني؟ قال سفيان: لا، ولكنك قبضت عليّ قبضة جبار. قال أبو جعفـــر: عظنى أبا عبد الله، قال سفيان: وماذا عملت بما علمت؟. فأعظك فيما جهلت، قال أبو جعفر: فما يمنعك أن تأتينا؟. قال سفيان: فإن الله نهى عنكم، فقال تعالى: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾ [هود، الآية ١١٣].

فمسح أبو جعفر بيده به، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحب إلى العلماء، فلقطوا إلا ما كان من سفيان، فلقد أعيانا فراراً.

كـــان «ســـفيان الـــثورى» في نصـــحه يعمل تبعاً للتوجيه الإلهى ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة**﴾ حتى تؤتى دعوته ثمارها. يقول سفيان: دخلت علي أبى جعفر المنصور بمنى، فقلت له: اتق الله، فإنما أنزلت هذه المترلة، وصرت إلى هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً.

حـــج أمـــير المؤمـــنين عمر بن الخطاب، فما أنفق إلا ثمانية عشر ديناراً، وكان يترل تحت الشـــجر، فقال لي: إنما تريد أن أكون مثلك، فقلت: لا تكن مثلى، ولكن كن دون ما أنت فيه وفوق ما أنا فيه، فقال لى: أخرج.

فقلـــت له: إنى لأعلم مكان رجل واحد، لو صلح صلحت الأمة كلها قال: من هو؟ قلت: أنت يا أمير المؤمنين.

---

* أحمد رضوان أبو الخير، من مواقف العلماء، دار المنار، ١٩٩٧، ص٢٩٠.

ابن السماك

(توفى سنة ١٨٣ هـ)

يطالب هارون الرشيد بتقوى الله



يقـــول الـــنبي (ﷺ) ((مـــن لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لا يصبح ويمسي ناصحا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم)).

فالإســـلام يـــريد من كل فرد في هذه الأمة أن يمد أشعة ما معه من الهدي والنور إلي المجتمع من حوله، وأن يقوم بالصلاح والإصلاح في المجتمع.

فلا يكفي أن يكون المسلم صالحا في نفسه سليم العقيدة، صحيح العبادة حسن المعاشرة، ثم يدع الحق مغلوبا، والباطل غالبا، والمعروف ضائعا والمنكر ظاهراً قاهراً، وهو لا يحرك ساكنا، ولا يبذل جهدا، فالمؤمن الحق يعمل من أجل الحق والخير والفضائل.

وإن كـــان هـــذا واجب كل مسلم، فإن واجب العلماء نحو الأمة كبير، وقد عرف عـــلماء السلف الصالح أهمية هذا الدور، فقاموا بواجب النصيحة والدعوة إلي الله في مختلف العصور، و لم يتهاونوا في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإعلاء كلمة الله، ورفع راية العدل، فاســـتقامت بهـــم الحياة وسعدت بهم الأمة، ومن هؤلاء العلماء ((ابن السماك))، الذي قام بواجب النصيحة أيام أمير المؤمنين ((هارون الرشيد)).

وابـــن الســـماك هو: محمد بن صبيح بن السماك، من وعاظ أهل الكوفة، ذهب إلي بغداد ومكث بهامدة، ثم عاد إلي الكوفة، وتوفي فيها سنة ١٨٣هـ*.

إتـــق الله:

تعلم ابن السماك ووعي ما قاله رسول الله (ﷺ):((والله ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))، تعلمها وعمل بها، واشفق علي هارون الرشيد فعلمها له.

كـــان عند الرشيد يوما، فطلب منه النصيحة والموعظة فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله وحـــده لا شـــريك له. واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلي إحدي مترلتين لا ثالث لهما: جنة أو نار، فبكي هارون حتي ابتلت لحيته بالدموع ثم طلب هارون ماء ليشرب، فلما وضع الماء علي فيه ليشرب قال ابن السماك: علي رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله (ﷺ) لو منعت عنك هذه الشربة فبكم كنت تشتريها؟

قال: بنصف ملكي، فقال له ابن السماك: أشرب هنأك الله، فلما شرب قال له: أسألك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله (ﷺ)، لو منعت خروجها من بدنك، بماذا كنت تشتريها؟

قـــال: بجمـــيع ملكي، قال ابن السماك: إن ملكا قيمته شربة ماء، لجدير أن لا ينافس فيه، فبكي هارون الرشيد حتي أشفق الحاضرون عليه.

كان ((ابن السماك)) من العلماء الذين يعيشون لله، ويعملون لله، ويتوكلون علي الله في مواطـــن الفزع، ويقولون كلمة الحق وقلوبهم أثبت من الجبال؛ بعث هارون إلي السماك،

*أحمد رضوان أبو الخير، ((من مواقف العلماء))، دار المنار، ١٩٩٧، ص١٤٦.

فـــلما أخذه الحرس بغير رفق ورآه الرشيد قال: أرفقوا بالشيخ، فلما وقف بين يديه قال له: يـــا أمير المؤمنين، ما مربي يوم منذ ولدتني أمي أتعب فيه من يومي هذا، فاتق الله في خلقه واحفظ محمدا (ﷺ) في أمته، وانصح لنفسك في رعيتك، فإن لك مقاما بين يدي الله تعالي، أنت فيه أذل من مقامي هذا بين يديك.

فـــاتق الله واعـــلم أن من أخذ الله وسطوته علي أهل المعصية..وراح «ابن السماك» يصف عقاب الله لأهل المعصية، فاضطرب الرشيد علي فراشه متأثرا بوصف ابن السماك لما يلاقيه هؤلاء من عذاب الله، فقال ابن السماك له: يا أمير المؤمنين هذا ذل الصفة، فكيف لو رأيت ذل المعاينة، يقصد ما بالك لو كنت أنت منهم، فكادت نفس الرشيد تخرج من خشية الله.

السماك وابن الرشيد:

﴿يـــوم لا يـــنفع مـــال ولا بنون، إلا من أتي الله بقلب سليم﴾ [الشعراء، الآيتان ٨٨،٨٩].

من هذا المنطلق القرآني فهم «ابن السماك» الدنيا علي حقيقتها، فحذر من الاغترار بها حـــتي لا تبعد الناس عن ربهم، وعما أعده لهم من خير في جنات النعيم، لم ينصح بها العامة فقـــط، بـــل نصـــح بذلك أيضا ولي أمر المسلمين، وحاكمهم هارون الرشيد. الذي قال للسماك عظني.

فقـــال لـــه: يـــا أمير المؤمنين، إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك، فلا ترضي من نفسك إلا بما رضي الله به عنك، فإنك ابن عم رسول الله صلي الله عليه وسلم، وأنت أولي الـــناس بذلك يا أمير المؤمنين، من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليقاً أن يعتق نفســـه، قـــبل أن يحين يوم لقاء ربه، يا أمير المؤمنين، من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها.

يـــا أمـــير المؤمنين، ناشدتك الله أن تقدم إلي جنة عرضها السماوات والأرض، وقد دُعيت إليها وليس لك فيها نصيب.

يـــا أمير المؤمنين تموت وحدك وتُحاسب وحدك، وأنك لا تقدم إلا على نادم مشغول، ولا تخلف إلا مفتونا مغرورا، وإنك وإيانا في دار سفر وجيران مرتحلين.

كان «ابن السماك» يقدم النصيحة وهو يعرف ان من يستمع إليه هو خليفة المسلمين، ومـــع ذلك كان يسترسل في نصحه وإرشاد، لم يهتز له جفن، ولم تأخذه رهبة أو خوف، فالنصيحة واجبة، حتي ولو كانت للحاكم الذي يرهبه الجميع، حذر «ابن السماك» الرشيد مـــن الانشغال بالدنيا عن الآخرة، وطلب منه أن يتقي الله سبحانه وتعالي، وأن يعد العدة لـــيوم الحســـاب، يوم يلقي الله وحده، ويحاسب وحده، ولن ينفعه أحد من هؤلاء البطانة الذين لا يدلون إلي خير، ويدفعون الحاكم إلي الانشغال بدار الغرور.

كلما كانت النصيحة أكبر كان الشكر عليها أعظم، لذا يجب أن يكون الحاكم أكثر الـناس شـكرا لله تعالي، ومن أكثرهم طاعة لله سبحانه، وهذا ما ذكر به «ابن السماك» «هارون الرشيد».

طـاعة الله:

هذا الخليفة الذي ظلمه الناس، كان يحرص علي تحري طاعة الله، وأن تكون خطواته، وقـراراته قدوه للمحكومين، فهو يعلم علم اليقين أن الناس علي دين ملوكهم، فإذا تحري الحاكم الحلال والحرام، واتقي الله في كل أمر، صلحت الرعية، ولهذا كان حريصا علي أن يكـون عـلماء الدين الذين عرف عنهم قول الحق ومخافة الله وعدم نفاق الحاكم في صدر مجالسه، وكان من بين هؤلاء «ابن السماك».

في أحـد هـذه المجـالس طلب هارون من ابن السماك» أن يعظه، فقال له: يا أمير المؤمـنين، إن أولي الناس أن يرغب في نعيم الآخرة، من ذاق نعيم الدنيا، فبكي هارون فقد حقق ونال هذا النعيم الكثير، وقال: زدني يا «ابن السماك».

فقـال: يا أمير المؤمنين، إن الله تبارك وتعالي لم يرض لك أن يجعل فوقك في الأرض أحـدا، فلا ترضي أن يكون في الأرض أحد أطوع لله منك. فعاود «هارون البكاء»، فقال وزيـره الفضل: يا «ابن السماك» ارفق بأمير المؤمنين، ولكن هارون قال له: أتركه يفعل يا فضـل فما أحوجنا إلي مثل ما يقول حتي لا تشغلنا الدنيا عن الآخرة، ثم قال تكلم يا «ابن السماك» وادع الله أن يرحمنا.

فقال «ابن السماك» وهو رافعا يده إلي السماء: اللهم إنك قلت: وأقسموا بالله جهدا إيمـانهم لا يبعـث الله من يموت، أفتراك يا رب تجمع بين أهل القسمين في مكان؟ فمازاد «هارون» إلا بكاء.

رجـل الدين الحـق:

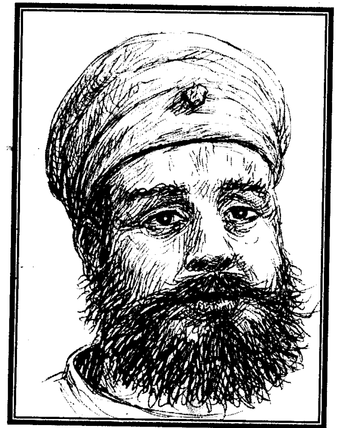
هكـذا كان علماء الدين، ولأنهم صلحوا صلح الحاكم، فما أحوجنا إلي هذا الصنف مـن العلماء الذين لا يحركهم إلا تقوي الله ولا هدف لهم إلا تطبيق الشرع وإعلاء كلمة الحـق، في وقت كثر فيه النفاق وتغلبت المصلحة الفردية، وتحول العلماء إلي تابعين للحكام يبررون كل ما يصدر عنهم حتي ولو كان مخالفا لشرع الله، إلا من رحم ربي.

وما أحوجنا إلي حاكم عادل يتقي الله في الرعية ولا يهدف إلا إلي صالح شعبه ونصرة دين الله، ولا تشغله الدنيا وجمع الأموال وتأليف قلوب المنافقين من حوله المنتفعين بوجوده واستمرار نفوذه، ما أحوجنا إلي حاكم لا تغضبه كلمة الحق ولا يأمر بسجن وتعذيب من يقول له اتق الله، وكأنه أصبح الحاكم بأمره وأنه غير محاسب علي ما يفعله.

الفضيل بن عياض

(١٠٥ - ١٨٧ هـ)

المستشار الحق



الحاكم في منطق الإسلام رجل من عامة المسلمين، رجل يؤمن بالله ويغرس الإيمان في نفوس الناس، رجل يصلي لنفسه ويؤم الأمة في الصلاة، رجل يُخرج الزكاة ويشرف علي جمعها من الآخرين، رجل يصوم رمضان ويرقب حرمة الشهر في أرجاء المجتمع.

هذا هو الحاكم الذي يريده الإسلام، حاكم يطلب النصيحة، ويسعي في طلبها، حتي لايكـــون من يقدمها في مركز الضعف،تأتي إليه النصيحة عن طريق القدوة والمثل، حاكم يحسن اختيار مستشارية، يجمع حوله أهل الورع والتقي، وعيون العلماء، حتي يذكروه بالله والحق إذا نسي، ويقوموا من مساره إذا ضل، حاكم يجعل الشوري أساس الحكم، كما فعل رســـول الله (ﷺ)، فقد كان يقول: ((أشيروا علينا أيها الناس)) امتثالا لقول الله عز وجل في كـــتابه الكـــريم: ﴿**وشـــاورهم الأمر**﴾ [آل عمران، أية: ١٥٩]، ﴿وأمرهم شوري﴾ [الشوري، آية: ٣٨].

هذا النوع من الحكام، هم الذين ساد بهم الإسلام وانتشر العدل بين الناس.

هكذا كان الخلفاء الراشدون الأربعة، ثم كان من بعدهم ((عمر بن عبدالعزيز))، الذي تخلـــص مـــن بطانة السوء وحاشية المستفيدين، التي أحاطت بمن سبقوه من الحاكم، والتي جاءت بهم متطلبات الحكم والسياسة و لم يكونوا يرشدون ولي أمر المسلمين إلي طريق الحق والنجاة.

جـــاء ((ابـــن عبد العزيز)) وقرب منه العلماء الصالحين أل التقي والورع فأعاد العدل والأمـــن ورفـــع رايـــة الحـــق، فلم يبقى في بلاد المسلمين جائع أو محتاج، و لم تعد تُسمع صرخات المظلومين وإنما علت أصوات التكبير والحمد والشكر لله رب العالمين.

عـــالم صـــالح:

ومـــن العلماء الصالحين، الناصحين الذين تأثروا بسيرة هذا الخليفة العادل، وحاول أن يجعـــل خلفاء المسلمين يهتدون بهديه ويسيروا علي خطاه، ((الفضيل بن عياض))، المولود في سمرقند عام ١٠٥هـ، ثم جاء إلي الكوفة التي أصله منها، فعاش بها فترة ثم سكن مكة، وتوفر عـــلي العلم، فكان من أكابر العباد الصالحين، وكان ثقة في الحديث، أخذ عنه العديد من عـــلماء المســـلمين، منهم الإمام الشافعي، وقد تولي مشيخة الحرم المكي، وتوفي بمكة عام ١٨٧هـ.

دخـــل ((الفضيل بن عياض)) علي أمير المؤمنين.. ((هارون الرشيد))، فقال: أيكم هو؟ فأشاروا إلي أمير المؤمنين، فقال الفضيل: أنت هو يا حسن الوجه، لقد كلفت أمرا عظيما، إني مـــا رأيت أحدا هو أحسن وجها منك، فإن قدرت أن لا تسود هذا الوجه بلفحة من

الـــنار فافعل يرحمك الله، فقال له هارون الرشيد: عظني، قال: بماذا أعظك؟ هذا كتاب الله تعالي بين الدفتين، أنظر ماذا عمل بمن أطاعة؟ وماذا عمل بمن عصاه؟

إني رأيـــت الناس يعرضون علي النار عرضا شديدا، ويطلبونها طلبا شديدا حثيثا، أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها.

فقال هارون له عد إلّي – أى عاود – الزيارة.

قال: لو لم تبعث إليّ لم آتك، وإن انتفعت بما سمعت مني عدت إليك.

كان ((الفضيل بن عياض)) يتباعد عن رجال الحكم، ذات مرة بعد أن فرغ الرشيد من مناســك الحج، –وقد كان الرشيد يحج مرة كل عامين– رغب أن يري الفضيل الذي كان يقيم بمكة.

اســتطاع ((عــبدالله ابــن المبارك)) الذي كان بصحبة الرشيد أن يجمع بينهما، حيث يســتمع الرشيد من الفضيل العديد من المواعظ والنصائح، وكان الفضيل من المؤمنين بمبدأ أهمية العلم للدين والدنيا، وقد آلمه أن ينصرف عنه الناس، فلما هم هارون بالانصراف، قال لــه الفضيل: يا أمير المؤمنين، إني أخشي أن يكون العلم قد ضاع عندك؟ كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل، إنه ما قلت.

فــلما عــاد الرشيد إلي العراق، كان أول أمر كتب به إلي الأمصار كلها، وإلي أمراء الأجناد:

((أنظـــروا من التزم الآذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن – أي حفظه وأقبل علي طلب العلم، وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه في أربعة آلاف ديـــنار مـــن العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم)).

السابق للخيرات:

يقـــول ((عبد الله بن المبارك)): فما رأيت عالما وقارئا للقرآن، ولا سابقا للخيرات، ولا حافظـــا لـــلحرمات في أيام بعد أيام رسول الله صلي الله وأيام الخلفاء والصحابة، أكثر من زمـــن الرشـــيد وأيامه، لقد كان الغلام يحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم ويروي الحديث، ويحفظ الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدي عشرة سنة.

كـــان ((الفضـــيل)) في عظاته ونصائحه للرشيد حكيما بليغا ذكيا، ينبهه إلي ما يريد بحكمه، ففي إحدي مجالسهما، قال الرشيد للفضيل: ما أزهدك؟

فرد علي إعجابه بزهده قائلا: أنت أزهد مني يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذلك؟
قال: لأني زهدت في الفاني، وزهدت أنت في الباقي.
يريد أن يقول: أني زهدت في الدنيا، وزهدت أنت في الاخرة.

كـــان «الفضيل» بالنسبة «لهارون» مصباح الهدي الذي يضيئ له الطريق، فلم يبخل علـــيه بنصـــح، وكـــان يعمل دائما علي أن يكون له الناصح الأمين الناجي به عن طريق الضلال.

يقول «الفضل بن الربيع» وزير «هارون»: حج أمير المؤمنين هارون الرشيد – فأتاني، فخرجت إليه مسرعا. فقلت: أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك.

فقال: ويحك قدحاك في نفسى شيئ فانظر لي رجلا أسأله.

قلت: هاهنا «سفيان» بن عينيه، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعنا الباب، فقال: من ذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعا فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ لأتيتك.

فقال: خذ لما جئنا إليه رحمك الله، فحدثه ساعة، ثم قال: عليك دين؟

فقال: نعم، فقال: أبا العباس أقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغني عني صاحبك شيئا.. انظر لي رجلا أسأله.

قلت: ها هنا الفضيل بن عياض.

قال: امض بنا إليه.. فأتيناه فإذا هو قائم يتلو آية من القرآن يرددها.

فقال: اقرع الباب.. فقرعت الباب، فرد الفضيل: من هذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين.

قال: وماذا يريد أمير المؤمنين؟

فقال: الرشيد سبحان الله، ما عليك طاعة.

فقال: أليس قد روي عن النبي صلي الله عليه أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه.

ثم نـــزل ففتح الباب، ثم ارتقي إلي الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلي زاوية من زوايا البيت، فدخلنا نجول بأيدينا، فسبقت كف هارون قبلي إليه.

فقال: يا لها من كف.. ما الينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل.

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام من قلب تقي.

فقال الرشيد: خذ لما جئناك له: رحمك الله.

قال «الفضيل»: إن «عمر بن عبد العزيز (ﷺ) لما ولي الخلافة دعا «سالم بن عبد الله» و«محمد بن كعب» و«رجاء بن حيوة».

فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ.

فقد عد «عمر بن عبدالعزيز» الخلافة بلاء، وعددتها أنت يا هارون وأصحابك نعمة.

فقال له «سالم بن عبد الله»: إن أردت النجاة من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك منها الموت.

وقـــال لـــه «محمد بن كعب»: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المؤمنين عـــندك أبـــا، وأوسطهم أخا، وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك، واكرم أخاك، وتحنن علي ولدك.

وقال له «رجاء بن حيوة»: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت.

الإمارة حسرة وندامة:

ثم أردف الفضـــيل قائلا: وإني أقول لك: إني أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله- مثل هذا، أومن يشير عليك بمثل هذا؟

فبكي هارون الرشيد بكاء شديدا حتي غشي عليه.

فقلت له أرفق يا أمير المؤمنين بنفسك، فقال للفضيل: زدني رحمك الله.

فقـــال: يـــا أمير المؤمنين: إن العباس عم المصطفي صلى الله عليه وسلم جاء إلي النبي عليه الصلاة والسلام. فقال: يا رسول الله أمرني علي إمارة.

فقال النبي (ﷺ): «إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أمير فافعل».

فبكي «هارون الرشيد» بكاء شديد ثم قال: زدني رحمك الله.

فقال «الفضيل»: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن نقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمس وفى قلبك غـــش لأحـــد من رعيتك، فإن النبي (ﷺ) قال: «من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة» رواه البخاري ومسلم.

فبكي «هارون الرشيد»، وقال له: أعليك دين؟

قـــال: نعـــم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي.

قـــال «الرشـــيد»: إنما أعني من دين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصـــدق وعده، وأطيع أمره،ثم قرأ قول الله تعالي: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون،**

مـــا أريـــد مـــنهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ [الذرايات، الآيات، ٥٦:٥٨].

فقال «هارون»: هذه ألف دينار خذها فأنفقها علي عيالك وتقوها علي عبادتك.

سيد المسلمين:

فقـــال: سبحان الله، أنا أدلك علي طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا سلمك الله ووفقـــك، ثم صـــمت فـــلم يتكـــلم فخرجنا من عنده فلما صرنا إلي الباب قال «هارون الرشيد»: إذا دللتني علي رجل، فدلني علي مثل هذا، سيد المسلمين.

فلما انصرفنا دخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا شيخ قد تري ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به، فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر فروه فأكلوا لحمه.

فـــلما سمع «هارون» هذا الكلام قال: ندخل فعس أن يقبل المال. فلما علم الفضيل، خرج فجلس علي باب الغرفة في السطح، فجاء هارون فجلس إلي جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد أذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله. فانصرفنا.

فنعم العالم التقي الورع كان «الفضيل بن عياض»، ونعم الحاكم كان هارون الرشيد، الـــذي ظلمه البعض افتراء، وشتان بين هذا العالم وهذا الحاكم وبين مستشاري اليوم الذين يزيـــنون لـــلحاكم الـــباطل، وتناسوا رسالتهم وتحولوا إلي مضحكين للحكام يلقون إليهم بالنكات بدلا من ان يتوجهوا إليهم بالنصائح والعظات.

الطرطوشى

(٤٥١-٥٢٠هـ) (١٠٥٩-١١٢٧م)

صلاح الراعى والراعية



تاريخنا الإسلامي والعربي مليء بعلماء الدين ومشايخه الذين كانوا علامات وضاءة في مسـيرة الحضـارة، وكانوا مثالا للنزاهة والعلم والتقي والورع والدفاع عن حقوق الناس والسعي لتطبيق العدالة والزود عن الشرع وإعلاء راية الحق.

من هؤلاء «أبو بكر الطرطوشي»، العالم الزاهد الجريء، الذي لا يخشي في الحق لومة لائم، والذي لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه. فقد كان أبي النفس قوالا للحق.

هـو «أبـو بكـر بن محمد الوليد» بن محمد بن خلف بن سليمان ابن أيوب القرشي الفهرى «الطرطوشى»، المشهور بابن ابي رندقة، وُلِدَ في ٢٦ جمادى الآولى سنة ٤٥٠هـ في مدينة طرطوشة بالأندلس.

وفي مسجد طرطوشة الكبير تلقي «أبو بكر محمد بن الوليد» علومه الأولي، ولما شب عـن الطـوق رحل إلي مدن الأندلس الكبيرة الاخري يستزيد من العلم، فذهب إلي مدينة سرقسـطة واتصـل بكبير علمائها في ذلك الوقت.. القاضي أبي وليد الباجي، وسمع منه وأجاز له.

وكانـت أسرة والدته من سرقسطة، وكان بعض أفراد هذه الأسرة من رجال الحرب الشجعان المبرزين.وكان والده الذي ينتهي نسبة إلي قريش من المشتغلين بالعلم، ولهذا وجه ابـنه إلي تحصيل العلم. وكانت أسرته علي شيء من الثراء، ومع ذلك كان يعمل حارسا للبساتين.

وعـندما وصـل إلي الخامسـة والعشرين من عمره قرر أن يتجه إلي المشرق مواصلا تحصيل العلم في مكة والعراق والشام ومصر.

في سـنة ٤٧٦هـ غادر «الطرطوشى» وطنه، فوصل الي مكة، واستقر بها قليلا بعد أداء فريضـة الحج، يلقي بعض الدروس، ولكنه لم يمكث بمكة طويلا، بل استأنف رحلته واتجه إلي بغداد.

زاهد بغداد:

كانت بغداد في ذلك الوقت مركزا من أكبر مراكز العلم في العالم الإسلامي، وكانت محـط رحال العلماء، يفدون إليها من أقصي المشرق ومن أقصي المغرب، فكان لابد «لأبي بكـر الطرطوشـى» أن يرحل إليها ليستكمل دراسته، ويتصل بعلمائها الأعلام، ويتتلمذ عليهم ويأخذ منهم.

اندمج «الطرطوشى» في الحياة العلمية النشطة ببغداد، واستمع إلى نخبة العلماء الممتازة بها، أمثال «أبي العباس الجرجاني» و«أبي محمد التميمي» و«أبو بكر الشاشي» و«أبو نصر بن

الصـــباغ»، وغيرهـــم من العلماء الأجلاء، وشارك في حلقاهم. وهناك تأثر بفلسفة الزهد والعزوف عن اللذات والشهوات، والجرأة علي كل كبير في سبيل الحق واتخذها طريقة له، فهو ينظر إلى كل كبير بهذه النظرة التي لا تري فيه قوته وسلطانه وجبروته ولكنها تري فيه قيمته ومصيره وان أي سلطان لابد أن يكون هدفه تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالي.

وهكـــذا مـــا أن غادر «الطرطوشى» العراق سنة ٤٨٠هـ، بعد ثلاثة أعوام قضاها في الـــدرس والتحصيل حتي اتخذ لنفسه أسلوب حياة الزهد والبعد عن مباهج الدنيا، فقد التزم الزهد فلسفة حياة.

نفـــس أبيـــه:

دخـــل «أبو بكر الطرطوشي» الشام بعد أن أتم دراسته، وبعد أن حصل من العلوم ما حصل، وبعد أن بلغ من النضج الفكري درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه، وبعد أن كـــون لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد والسعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأقبل عليه الناس وأحبوه، وأفادوا من علمه، فعلا اسمه وبعد صيته.

ومـــع ذلك عاش هناك متقشفا عابدا زاهدا منقبضا عن الناس، إذا أكل أكل في شقف مـــن الفخار، وكان أصحاب الحكم والسلطان يسعون إليه وإلي بره، ولكنه كان ينصرف عنهم، ويشتد عليهم في القول وإسداء النصيحة.

كـــان هكذا دوما سواء بالشام أو في بيت المقدس،قيل أنه كان ببيت المقدس يطبخ في شقف، وكان مجانبا للسلطان معرضا عنه وعن أصحابه، شديدا عليهم مع مبالغتهم في بره.

ويبدو أن نفسه الأبية وصراحته والتزامه القول الحق أثارت ضده بعض الحاسدين من أهـــالي بيت المقدس، فسعوا به لدي حاكمها ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه، واستدعاه الحاكم إليه، فلم يأبه لدعوته ورفض أن يذهب إليه.

وطـــوف «الطرطوشـــي» في معظـــم مدن الشام، بيت المقدس وجبل لبنان، ودمشق وحلـــب وانطاكـــية، التي كان بها في أواخر سنة ٤٩٠هـ. وعندما استولي الصليبيون علي انطاكية وسواحل الشام كلها وبيت المقدس في سنة ٤٩١هـ. اتجه إلي مصر وهو في الأربعين مـــن عمـــره، وقد جاء إلى الشام وهو في الثلاثين، ولم يغادره إلا بعد أن أصبح له تلاميذ كثيرون ومعجبون به وبعلمه، ويتسابقون إلي حلقات دروسه*.

* جمال الدين الشيال، أبو بكر الطرطشي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٨٦٨، سلسلة أعلام العرب.

مُعلم الإسكندرية:

وصل «أبو بكر الطرطوشي» إلى مصر برفقة صديقه الشيخ عبد الله السايح حيث نزلا برشيد وأقاما بها. وعندما استولي الوزير الأفضل شاهنشاه علي الإسكندرية انتقم من أهلها الذيـــن أيـــدوا نـــزار ابن الخليفة المستنصر وقام بقتل العديد من العلماء المالكيين فتعطلت الشعائر الدينية و لم تقم الجمعة في مساجدها، وسمع أهل الإسكندرية أن في رشيد فقيه كبير فركـــبوا إلـــيه يطلـــبون منه أن يتصدر حلقات الدرس في مساجدهم ليفقه الناس في أمور دينهم.

استقر بالطرطوشى المقام في الإسكندرية وبدأ يدرس وينشر العلم علي مذهب مالك، وتقاطر الناس علي حلقاته يأخذون عنه ويقرءون عليه ويفيدون من علمه، وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه.

وتـــزوج بعـــد قليل من سيدة موسرة من نساء الإسكندرية، فأطلقت يده في أموالها وتحســـنت أحواله، ووهبته دارا من أملاكها، جعل سكنه معها في الدور الأعلى واتخذ من الـــدور الأسفل مدرسة يلقي فيها دروسه ويستضيف فيها طلاب العلم من الغرباء الوافدين علي الإسكندرية.

وكانت هذه السيدة الفاضلة تقية متدينة، من بيت من أكبر بيوت الإسكندرية وقتذاك فضـــلا وعلما وجاها وثروة، بيت «بني عوف» فهي خالة فقيه الإسكندرية وكبير علمائها «أبي الطاهر بن عوف»، تلميذ «الطرطوشى» وخليفته فيما بعد.

نصيحة العلماء:

وبعـــد أن استقرت الحياة «بالطرطوشى» في الإسكندرية خرج لزيارة القاهرة وهناك حـــرص علي لقاء الوزير صاحب السلطان الأعلى وقتذاك «الأفضل شاهنشاه» بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه لا ليسأله منحة أو عطية، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره بل لينصـــحه نصـــيحة العلماء المخلصين، وليعظه الموعظة الحسنة، وليطلب إليه الرفق بالرعية وإشاعة العدل بينهم وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم.

بعد أن حياه بتحية الإسلام قال له:

– أيهـــا الملك: إن الله سبحانه وتعالي قد أحلك محلا عاليا شامخا، وأنزلك منزلا شريفا باذخـــا، وملكك طائفة من ملكه، واشركك في حكمه، و لم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولي بالشكر منك.

وأن الله تعالي ألزم الوري طاعتك، فلا يكونن أحد أطوع لله منك، وأن الله تعالي أمر عــباده بالشكر، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعل والإحسان، قال الله تعالي: ﴿**اعملوا آل داود شكرا**﴾.

واعلم أن هذا الملك الذي أصبحت فيه إنما ثار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك.

فاتق الله فيما حولك من هذه الأمة، فإن الله سائلك عن النقير والتطيمر والفتيل، قال الله تعــالي: ﴿**فوربــك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون**﴾ وقال تعالي: ﴿**وإن كان مثقال حبة من خردل اتينا بها، وكفي بنا حاسبين**﴾.

واعـــلم أيها الملك إن الله تعالي قد أتي ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود -عليهما الســلام- فســخر له الإنس والجن والشياطين والوحوش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم دفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له: «**هذا عطاؤنا فامنن أو** امسك بغير حساب».

فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالي ومكرا به، فقال «هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر».

فافــتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله علي ما قلدك، وجعلك كهفا للملهوف، وأمانا للخائف.

هكــذا خاطب «الطرطوشى» العالم الزاهد الملك الأفضل ذا الحول والطول، وهو في أوج ســلطانه وعظمــته، والكل يأتمرون بأمره، فهز كيانه هزا وإن كان استنكره فيما بينه وبين نفسه.

وعـــاد «الطرطوشى» إلي الإسكندرية ليستأنف سيرته الأولي وليتفرغ للعلم والتعليم، وتكاثر طلابه، وأقبلوا علي دروسه وأحبوه، واصطنع هو لهم طريقة جديدة هي أقرب شيء إلى طــرق التربية الحديثة، فلم يقصر اجتماعاته بهم علي طرق الدرس، بل كان يصطحبهم ويخــرج معهم في معظم الأوقات في رحلات خارج المدينة إلي البساتين والأماكن الخلوية، وهناك في الهواء الطلق يلقنهم دروسه فكثر طلابه وزاد عددهم.

مكيدة القاضي:

ولكـــن هذا الإقبال جر علي «الطرطوشى» الوبال، فقد ضاق به قاضي الإسكندرية «ابن حديد» ضيقا شديدا، فقد انتظر «ابن حديد» من «الطرطوشى» عند نزوله بالمدينة أن يسعي إليه، وان يمدحه وأن يكون من حاشيته، ولو أنه فعل هذا لأغدق «ابن حديد» عليه

العطايـــا، وليســـر علـــيه شـــئون الحياة جميعا. ولكن «الطرطوشى» كان صنفاً آخر من الـــرجال،كان رجلا يعتد برجولته، وكان عالما يعتز بعلمه، وكان بعد هذا زاهدا، لا يحبذ هـــذا الـــنوع من الحياة المترفة الباذخة التي كان يحياها «ابن حديد». وقد أخذ علي «ابن حديد» بعض تصرفاته المالية وبعدها عن قواعد الشرع والإسلام، وأطلق لسانه يتحدث إلى الناس بهذه المآخذ المالية، ويعيد الحديث ويكرره في عنف وقسوة مما آلم «ابن حديد» وآذاه.

وكانت «للطرشوشى» الي جانب هذا فتاوي كثيرة يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمـــة التي تأخذ بها الدولة، كما كان ينتقد كثيرا من العادات السائدة في المجتمع، والتي تـــنافي الديـــن الإسلامي، إضافة إلى ذلك فقد جذب «الطرطوشى» إليه عددا ضخما من تلاميذ الإسكندرية وعلمائها، فصار إذا انتقل من مكان إلي مكان، أو إذا خرج إلي رحلاته خـــرج في موكب حافل مهيب، وفي هذا دون شك منافسة خطيرة لقاضي المدينة ورجلها «ابن حديد» وفيه خطورة محققة علي مركز «ابن حديد» ومكانته.

كـــل ذلـــك جعـــل القاضـــي يرفع إلي الوزير «الأفضل» تقريرا يؤكد فيه خطورة «الطرطوشـــى» علي الإسكندرية وأهلها، وان هذا العالم الزاهد الثائر لو ظل علي سياسته هـــذه ينتقد المجتمع وينتقد الحاكم، وينتقد القاضي وأحكامه، وينتقد القواعد والنظم المالية المتبعة، وينادي بتحريم الجبنة الرومي وغيره من المأكولات الواردة من أوروبا، فإنه سيسبب للدولة متاعب كثيرة وسينقص من مهابتها في أعين الشعب، وسيحرض الناس علي مقاطعة الـــتجارة الأجنبية، فتنقص إيرادات الدولة بنقصان الضرائب التي تؤخذ علي هذه التجارة الواردة.

تحـــديد إقامـــة:

كـــل هـــذا دفـــع الأفضل إلى تحديد إقامة «الطرطوشى» في مسجد «الرصد» جنوبي الفســـطاط، ومنع الناس من الاتصال به والآخذ عنه. وقد امتد هذا الاعتقال شهورا فضاق به هذا العالم الورع، ولما اشتد به الضيق أعلن امتناعه عن أكل شيء مما يأتيه به الأفضل، ثم اعـــتكف يصـــلي ويتعـــبد ويبتهل إلى الله، حتي قُتل الأفضل، وتولي الوزارة بعد الأفضل «المـــأمون الـــبطائحي»، وكان يعلم ما بين الرجلين فأفرج عن الشيخ وأكرمه إكراما زائدا وقربه إليه.

وعاد «الطرطوشي» إلي الإسكندرية واستأنف بها حياته ونشاطه العلمي، ولم تنل منه الأيـــام ولم تفـــل من حدته، فقد كانت تشغله دائما الأمور التي كان يراها منافية للشرع والعـــدل، والـــتي ســـبق أن تقـــدم للأفضـــل يطلب تغييرها، فلم يستمع اليه وقد خشي «الطرطوشي» أن تأخذ الوزير الجديد عزة الحكم وأبهة السلطان فيسير علي نهج سلفه.

لهــذا بدأ بعد عودته إلى الإسكندرية مباشرة يؤلف كتابا في السياسة وفن الحكم، وما يجب أن يكون عليه الراعي والرعية، وأتم الكتاب في سنة كاملة وسماه «سراج الملوك» وفي شــوال ســنة ٥١٦هـ حمــل الكتاب، وسافر إلي القاهرة ليقدمه إلي الوزير الجديد، وليعيد الحديث معه في الأوضاع السقيمة القائمة في الدولة، والتي لا يقرها الشرع.

قضية المــيراث:

ومــن الأمور الظالمة التي كانت منافية للشرع أمر ميراث البنت، فقد كان القضاة في مصــر عــلي العصر الفاطمي يتبعون المذهب الشيعي الإسماعيلي، وهذا المذهب يقضي بأن تــرث البنــت كل ما يترك أبوها إذا كانت وحيدة لا أخ لها ولا أخت، ويحرم العصبة من المشاركة في الميراث.

وكانــت الــنظم الوضعية المتبعة تقضي أيضا بأن يأخذ الموظفون القضائيون المشرفون علي شئون الميراث ربع العشر من أموال اليتامي عند توزيع التركة بمثابة أجر لهم.

وكان «الطرطوشى» يري في الأمر الأول..ميراث البنت مخالفة للشرع في نظره، وكان يري في الأمر الثاني ظلما فاحشا واغتصابا لحق الأيتام، ومن واجب الحكومة أن تحافظعلي أموالهم وتصونها لا أن تقتطع جزءا منها لموظفيها.

وبعــد نقاش طويل وافق «المأمون البطائحي» علي حل وسط يرضي المذهب الرسمي للدولــة ويرضــي «الطرطوشــى»، فقد وافق علي إصدار أمر للقضاة بأن يتبع في الميراث مذهب الميت، فإن كان سنيا اتبع المذهب السني، وان كان شيعياً اتبع المذهب الشيعي.

أما الأمر الثاني فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الأولي، وأمر بأن يصرف للموظفين راتب من خزانة الدولة بدلا من المبالغ التي كانوا يقتطعونها من أموال اليتامي.

أديب بارع:

وبعد نحو شهرين من إقامته في القاهرة عاد «الطرطوشي» إلى الإسكندرية يُعلم الناس ويدعــو إلى المعروف وينهي عن المنكر قاضيا أوقاته ما بين العبادة والتأليف، حتى توفاه الله في ٢٦ من جمادى الأولى ٥٢٠هـ، ٢٠ من يونيو ١١٢٧م.

ومــن أشــهر مؤلفاته «مختصر تفسير الثعالبي»، «الكتاب الكبير في مسائل الخلاف»، «شــرح رســالة الشيخ أبي زيد القيرواني»، «كتاب الأسرار»، و«سراج الملوك» و«كتاب الحــوادث والــبدع»، و«بر الوالدين»، «رسالة تحريم الغناء واللهو علي الصوفية في قصهم وسماعهم»، و«رسالة في تحريم جبن الروم»، و«كتاب الفتن»، و«نزهة الأخوان المتحابين»، و«كتاب الدعاء»، «نفائس النفوس»، وغيرها.

وكـــان «الطرطرشى» إلى جانب تضلعه في أمور الشريعة ومسائل الخلاف أديبا بارعاً ويظهر ذلك الأسلوب الرشيق الجميل في كتابه سراج الملوك، وكان شاعراً محسناً، وقد زود كتابه هذا بنماذج رائعة من شعره، ظلت أبياتاً منها تتردد على الألسنة حتى يومنا هذا، مثل قوله:

إن لله عـــــباداً فطـــــنا	طلقـــوا الدنـــيا وخافوا الفتنا
فكـــروا فـــيها، فـــلما علموا	أنهـــا ليســـت لحـــي وطـــنا
جعلوهـــا لَجّـــة واتخـــذوا	صـــالح الأعمـــال فيها سكناً

العز بن عبد السلام

(٥٧٧-٥٦٦٠هـ) (١١٨١-١٢٦٦م)

بائع الأمراء



العـــالم التقي الورع، الذي تربي علي مباديء الدين الإسلامي الحنيف، لا يرضي عن نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق بديلا، لا تخيفه قوة السلطان، ولا تستميله الهدايا أو العطايا والصـــلات، الناس عنده أمام الشريعة سواء حكام أم محكومين. مصلحة الأمة وفق أحكام الديـــن هي ما يسعي إليه ويعمل من أجله. رضا الله وتطبيق الشرع مبتغاه. لا ينافق حاكم أو صاحب سلطان.

بأمثال هؤلاء العلماء صلُح أمر الناس وشاع العدل بينهم، واحترمت الدول والشعوب أمة الإسلام. ومن هؤلاء العلماء شيخ قال عنه «الظاهر بيبرس» حاكم مصر، بعد أن استقر جـــثمان الشيخ تحت سفح المقطم، وعاد السلطان «الظاهر بيبرس» إلي قصر ملكة وتنفس الصـــعداء قال: الآن استقر أمري في الملك، لأن هذا الشيخ لو قال للناس: أخرجوا عليه لا نتزعوا الملك مني. إنه «سلطان العلماء العز بن عبدالسلام».

حـــياة هـــذا الشيخ كلها مواقف مشرفة، ونموذج لما يجب أن يكون عليه عالم الدين المســـلم. سواء وهو يُعلم في حلقة الدرس، أو وهو يتصدي للإفتاء، أو الخطابة، أو عندما يقضـــي بـــين الناس، وُلد في دمشق عام ٥٧٧هـ. وتوفي بالقاهرة عام ٦٦٠هـ. ودُفن بسفح جبل المقطم.

أطلـــق علـــيه أبـــوه اسم «العز عز الدين عبدالعزيز»، ولكنه عندما كبر اشتهر باسم عزالدين وباسم العز.

كـــان أبـــوه عبدالســـلام فقيرا، وحين شب الطفل صحب والده ليساعده في بعض الأعمـــال الشاقة كإصلاح الطرق وحمل الأمتعة وتنظيف ما أمام محلات التجار. وإذا حان وقت الصلاة صحب والده إلي الجامع الأموي.

مـــن الصـــغر:

عـــندما تـــوفي والده التحق بالجامع الأموي يساعد الكبار في أعمال النظافة، وحراسة نعـــال المصلين وأهل الحلقات، وكان يقضي الليل نائما علي الرخام في زاوية بأحد دهاليز الجـــامع، وكـــان يتناهي إلي سمعه وهو علي باب المسجد يحرس النعال، كلام يثير خياله، ويلهـــب أشواقه إلي دنيا أخري لا يجوع فيها ولا يعري. وتسلل إلي إحدي الحلقات ذات يـــوم، ورآه شيخ الحلقة فنهره، وسأله كيف يسمح لنفسه أن يجلس بثوب ممزق في مجلس علم ينبغي علي الطالب فيه أن يأخذ زينته؟!

جـــري الصـــبي إلي بـــاب المسجد، وتكور علي نفسه يبكي، رآه الشيخ «الفخر بن عســـاكر» صاحب حلقة الفقه الشافعي، وسأله عما يبكيه، ووعده أن يتعهده ويعلمه. وفي صباح اليوم التالي الحقه بالكتاب الملحق بالمسجد، وأوصي بأن يتعلم القراءة والكتابة والخط وأن يحفظ القرآن علي نفقة «ابن عساكر».

شغف عظيم بالعلم:

أقبل «العز» علي حفظ القرآن في شغف عظيم، واتقن القراءة والكتابة والخط الحسن، وعــوض مــا فاته من سنوات الدرس. ومرت أعوام، واطمأن الشيخ «فخرالدين» إلي أن الصبي قد أتقن حفظ القرآن وجوده، وأنه يحذق القراءة والكتابة بخط جميل، فقرر أن يضمه إلي الطلاب اللذين يحضرون حلقته.

لــزم «عزالدين» شيخه «بن عساكر»، وتعلم عليه الفقه الشافعي، وكان الشيخ زاهدا ورعا واسع المعرفة كثير الصدقات، خطيبا لاذعا، وهو في الوقت نفسه شديد الحياء، وكان مرحا متألق الظرف، فتأثر به تلميذه «عزالدين» ونقل عنه كثيرا من خصاله وسجاياه.

و لم يكد ينتهي الشاب من الدراسة علي شيخه «الفخر بن عساكر» وغيره من الشيوخ في الجــامع الأمــوي حتي أجازوه للتدريس. وعُين مدرسا بدمشق، يُقريء صغار الطلاب القرآن، ويعلمهم القراءة والكتابة، ثم نُقل إلى مدرسة أعلي يُعلم الطلاب الفقه وأصوله علي المذهــب الشافعي. وكان يتردد علي مكتبة الجامع الأموي، يقرأ فيها كل ما يقع عليه من معارف، واستوعب كل ما تركه السلف في علم الكلام.

دقــة وتفكير:

جــذب «عزالدين» إليه العديد من الطلاب، أحبوا دروسه التي كان يرصعها بما حفظ من طرائف الحكمة وروائع الشعر، مما كان ييسر علي الطلاب صعوبة الفقه. وقصده الناس يستفتونه، و لم يعد يتقيد بالمذهب الشافعي، بل كان يبحث في كل المذاهب عن إجابات لما يــرد إلــيه من أسئلة، فإن لم يجد حاول أن يجتهد برأيه. تميز «العز» بالدقة في فتياه، يفكر طويــلا قبل الإجابة، ويظل يفكر بعدها وينقب حتي يطمئن أنه علي الصواب. أصدر فتيا ذات مــرة، ثم طفــق يفكر بعدها فيما قال، وعاد إلي كتب السلف عسي أن يجد فيها ما يســانده، فاكتشف أنه أخطأ، و لم يكن يعرف صاحب المسألة الذي استفتاه، فأطلق عددا من تلاميذه في الأسواق والطرقات والمساجد ينادون في الناس: من صدرت له فتيا بالأمس من «العز عزالدين بن عبدالسلام» فلا يعمل بها فهي خطأ. فهل يفعل ذلك أحد من فقهاء اليوم؟.

و لم يهــتم «عــزالدين» بالتدريس والفتيا فقط، ولكنه كان يتحرك في الأسواق يأمر بالمعــروف وينهي عن المنكر في رحمة وحكمة وموعظة حسنة. ويشدد النكير علي الظالمين مــن التجار الذين يبخسون الناس أشياءهم، وعلي جباة الضرائب، والمرتشين الجائرين ممن يلون أمرا من أمور المسلمين.

أحــب الــناس «ابــن عبدالسلام»: المظلمون والفقراء خاصة، وطلاب العلم الذين يجــاهدون مــن أجــل مستوي أفضل، وخافه الجائرونمن الحكام، أما العادلون منهم فقد

حـــاولوا أن يقـــربوه، ولكنه كان بطبعه لا يحب الاقتراب من السلطان. وضاق به بعض الفقهاء المقلدين ممن ينافقون الحكام، فقد كان لايتورع عن مهاجمة ونقد الجامدين والمرتشين والمرتزقة الفقهاء بألسنة حداد، ويطالب المسلمين ألا يتبعوهم حتى لا يفسدوا عليهم دينهم.

السكوت عن المنكر منكر:

وفي أحد الدروس وجه أحد الطلاب إلى الشيخ «عزالدين» سؤالا عن حكم الدين في العـــلماء الذيـــن يســـكتون عن الظلم، وهم بعد ذلك يتصدرون بعض الحلقات في الجامع الأموي يعلمون ويفتون؟!

فـــأفتى الشـــيخ «عزالدين» بأن السكوت عن المنكر منكر، وعلماء المسلمين هم أولي الـــناس بالأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن تخلوا فما أطاعوا الله والرسول، وإن كان سكوتهم طمعا في الأموال والهدايا والمناصب أو حرصا فإثمهم مضاعف. وقد قال الله تعالى: **﴿فلـــتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾**. وهؤلاء هم العلماء، فإن لم يفعلوا فهم العصاة والعياذ بالله. وهؤلاء لا طاعة لهم.

هذه الفتوى أغضبت وأهاجت هؤلاء النفر من العلماء ووجدوا فيها تحريضا للطلاب وللعامـــة عليهم وعلى السلطان نفسه، فدسوا له عند السلطان وطالبوا بمنع «عزالدين» عن الفتـــيا والـــتدريس والمشي في الأسواق. ولكن السلطان بتوجيه من أخيه «الملك الكامل» حاكم مصر عينه شيخ حلقة في الجامع الأموي، وهو أكبر منصب علمي في دمشق.

ومضـــى الشيخ في طريقه، يقرأ ويدرس ويفتي، وقد اطمأنت به الحياة فالراتب الذي يأخذه من المسجد الأموي راتب كبير يكفيه لحياة موفورة.

ولكـــنه ظـــل كما هو العالم التقي الورع، طالبته زوجته أن يغير سكنه الضيق بعد أن كثر الأولاد، فوعدها خيرا، ولكنه لم يغيره. فقد كان ينفق عن سعة على أهل بيته، ويحسن إكرام ضيوفه، ويتصدق بما بقي، ولا يدخر شيئا على الإطلاق.

وعـــندما أعطـــته زوجته مصاغها ليبيعه ويشتري لهم بيتا واسعا، باعه وتصدق بثمنه. فلما عاد الى زوجته استقبلته فرحة:

– هل اشتريت لنا بستانا؟

– نعم بستانا في الجنة. إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمن المصاغ.

– جزاك الله خيرا.

مـــنارات العـــدل:

ومـــرة أخرى يحاول أهل النفاق من العلماء أن يوقعوا بين الملك الاشرف وبين الشيخ «العـــز بـــن عبدالسلام..»، وعندما تأزم الموقف بين العز وبين حاكم دمشق تدخل أخوة الكامل مرة أخرى واشار عليه أن يعين عزالدين قاضيا للقضاة ليصلح له أمور الرعية، وأمر

أخـــاه ألا يـــثق بأحد من العلماء الا هؤلاء الذين يأخذون الكتاب بقوة، الأشداء الأتقياء الورعـــين الذيـــن لا يخافون في الله لومة لائم، لأن هؤلاء هم أعمدة الأمة ومنارات العدل، وهـــم أحري بأن يجعلوا السلطان قويا وفاضلا ومحبوبا عند الرعية، وهم علي أية حال خير من الفقهاء والعلماء الضعاف المستخزين المنافقين،طلاب المنافع الذين يذهبون بجلال الملك ويزدرون بهيبة الدين.

وكـــان علي الشيخ أن يضع علي رأسه أكبر عمامة في الدولة، عمامة قاضي القضاة، صـــاحب أكـــبر منصب ونفوذ، الرجل الذي يُلزم بأحكامه كل أولياء الأمر حتي السلطان نفسه. ولكنه وضع علي رأسه طاقية من لباد مصر، وهي غطاء الرأس الذي لا يستعمله إلا فقـــراء الناس في مصر والشام، وكان من قبل عندما عُين خطيبا للجامع الأموي، قد طرح الرداء الأسود الذي كان يرتديه خطباء الجامع الأموي.

وظـــل الشيخ «عزالدين» يعمل علي إماتة البدع، وإحياء السنن في كل ما يُصدر من أحكـــام، وما يُلقي من دروس وخطب، وما يُنشئ من فتاوي وكان يقول: طوبي لمن ولي أمرا من أمور المسلمين، فأعان علي إماتة البدع وإحياء السنن.

خيانة السلطان:

وعـــندما تحالف «الصالح إسماعيل» سلطان دمشق مع الصليبيين، وتنازل لهم عن صيدا وقلعة الشقيف وبعض مدن فلسطين واقتسم معهم مدنا أخري، أعلن الشيخ «عزالدين» في خطبة الجمعة خيانة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام. وأفتي أن بيع السلاح للفرنجة حرام، وكل بيع لهم حرام. فمن ارتكب من ذلك شيئا فقد خان الله والرسول ولا ذمة ولا عهد له، ودمه مهدر وماله مباح. وأصدر السلطان أمرا بسجن الشيخ عزالدين والشيخ بن الحاجب الذي أيد فتواه. لكنه اضطر إلي الإفراج عنهما خشية ثورة الناس.

ورأي الشـــيخ ابـــن عبدالسلام أن يهاجر إلي مصر عملا: بقوله تعالي: «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها».

وكـــان يـــوم وصوله إلي القاهرة كأيام الأعياد، فقد احتشد الناس في أبهي ملابسهم لاســـتقباله، وأمر السلطان أمراءه وقادة الجيش أن يرتدوا حلل العيد، وخرج في أبهته علي رأســـهم يستقبلون الشيخ. وقد أعدوا له الخيل المطهمة ليمتطيها هو وأهله وأبناؤه. وسكن دار فســـيحة وســـط حديقـــة غـــناء، اشتراها أهل مصر عرفانا بمكانة.. «العز الدين بن عبدالسلام».

وأصـــدر الســـلطان الملك «الصالح نجم الدين أيوب» أمره بتعيين الشيخ إماما وخطيبا لجـــامع عمـــرو، الـــذي أصبح منذ عهد صلاح الدين الأيوبي بديلا للأزهر وتنازل الشيخ المنذري مفتي مصر عن الإفتاء للشيخ عزالدين قائلا: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عزالدين

وأمــا بعــد حضوره فالفقه متعين فيه ولا يفتي أحد وهو بيننا. ثم عينه الملك الصالح قاضيا لقضاة مصر.

وبــدأ القاضي العادل بتطبيق أحكام الشريعة علي أمراء المماليك، فقد رأي أهم ليسوا مــن أهل مصر، وليسوا أحرارا علي الإطلاق، بل هم مجلوبون، اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين، وفنون الفروسية والحرب والرياضيات، وعــندما شبوا عينوا في مناصبهم، فهم أمراء مماليك أرقاء إذن. وليس لهم حقوق الأحرار. ولهــذا فليس لهم أن يتزوجوا بحرائر النساء، وليس لهم أن يبيعوا أو يشتروا أو يتصرفوا، إلا كما يتصرف العبيد.

وبهــت الملــك لمعاملة «العز» للأمراء المماليك معاملة العبيد في أحكامه، وذهب إليه يسأله أن يعدل عما أخذ فيه، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل في القضاء، فليس هذا للسلطان. فإن شاء أن يتدخل فالشيخ يقيل نفسه. فاحتار السلطان ماذا يفعل؟.

لقــد أبطل الشيخ كل أمر أبرمه المماليك من عقود بيع وإجارة، وحتي عقود الزواج. فاضــطرب أمر المماليك؛ فالزوجات يهجرن فراش الزوجية، ويعاملن أزواجهن كالغرباء، والتجار يعودون في الصفقات. والصبية يطاردون الأمراء المماليك يعيروهم بأهم عبيد. بعد أن كان الناس يخشون هؤلاء الأمراء الذين اذاقوهم الأهوال. فتعطلت مصالح هؤلاء الأمراء، ومنهم نائب السلطنة.

بيــع الأمــراء:

غضــب الأمــراء وهاجوا، ولكن الشيخ لم يتراجع، فلاحل إلا أن نعقد لكم مجلسا وننادي عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين هكذا قال لهم الشيخ، فرفعوا الأمر إلي السلطان، فبعث إليه فلم يتراجع رغم أهم أخبره -علي لسان رسوله- أنه لن يسمح ببيع الأمراء، وأن أمــر الســلطان واجب، وهو فوق قضاء الشيخ عزالدين وليس للشيخ أن يتدخل في أمور الدولــة فشــئون الأمــراء لا صلة له بها، بل بالسلطان وحده، ورفض الشيخ أن يتدخل السلطان في القضاء. وقام من فوره فجمع أمتعته ووضعها علي حمار، ووضع أهله علي حمير أخــري، وساق الحمير ماشيا، فقد قرر أن يخرج من مصر، مادام السلطان فيها يعتدي علي القضاء.

تجمع الناس حوله وهم يتوسلون باكين ألا يتركهم، فقد عرفوا في قضائه قوة الانتصار للمظلوم، وهيبة العدالة، خلال تلك الأشهر القلائل التي ولي فيها المنصب.

ولكــن الشــيخ صــمم علي قراره وسار في طريقه خارج القاهرة والناس من خلفه، يــرجون ملحين ساخطين، حتي امتلأت بهم الأرض الفضاء، إذ لم يتخلف عن اللحاق به

امـــرأة ولا صبي ولا رجل ولاسيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم. وعلم السلطان بما يجري، وقال له أحد ناصحيه: تدارك ملكك وإلا ذهب بذهاب الشيخ.

فأسرع السلطان خلف الشيخ، وتقدم متلطفا معتذرا إليه، وقال له: لا تفارقنا، عد يا أمام واصنع ما بدا لك. وجمع السلطان كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ، ثم عُرضوا في مزاد ونـــادي الشـــيخ علـــيهم وغالي في ثمنهم. حتي إذا امتنع الحاضرون عن المزايدة في الثمن لارتفاعـــه الفـــاحش، تقدم السلطان فدفع ثمنا أزيد من ماله الخاص لا من بيت المال، حتي اشـــتري جمـــيع الأمـــراء المماليـــك وأعتقهم لوجه الله، فأصبحوا أحرارا. وصحح الشيخ عقودهـــم، بما فيها عقود الزواج. ووزع الشيخ ثمنهم علي الفقراء والمحتاجين، وخاصة أهل العلم وطلابه، وأقام به مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة.

مصلحـــة الأمـــة:

واستمر الشيخ في القضاء حاسما حازما لا يخشي إلا الله، ولا يأبه إلا بالحق، ولا يراعي إلا مصلحة الأمة، تأتيه الدعوي من أحد الأفراد علي أحد خواص السلطان، فيسوي بينهما في المجلس، ويتحري العدل وحده.

ووجـــد بعـــض الأقوياء الظالمين يغتصبون حقوق المستضعفين، فأفتي أن من واجب المستضعفين أن ينتزعوا ما اغتُصبَ منهم، ولا عقاب عليهم، فهذا حقهم الشرعي. فإن هم وجـــدوا الســـلطان عاجزا عن رد أموالهم المغتصبة، فعليهم استردادها بأنفسهم، وإلا أثموا شرعا، آثارت هذه الفتيا عددا من الأمراء الذين ألفوا أن يستضعفوا بعض التجار والصناع والحرف ويغتصبون منهم خفية البضائع والأجور.

وغضـــب السلطانمن الشيخ عندما هدم طبلخانة استادار، الذي يتولي شئون مساكن الســـلطان وسائر حوائجه الخاصة، والتي أقامها فوق سطح أحد المساجد، فتنازل العز عن منصب قاضي القضاة، وتفرغ للتأليف والكتابة.

ما حجتك عند الله:

لكنه لم يغمض عينيه عن أخطاء السلطان، فقد ذهب إلي السلطان في يوم عيد بالقلعة، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة معقود، وقد خرج السلطان علي قومه في زينـــته علي عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلي السلطان وناداه:

«يـــا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك أبويء لك ملك مصر، ثم تبيع الخمور؟»

فقال السلطان: هل جري ذلك؟.

قـــال: نعم الحانة (...) تبيع الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة.

فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عملته. هذا من زمان أبي.

فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: ((إنا وجدنا آباءنا علي أمة))؟!.

فأمر السلطان بإغلاق الحانة. وبعد أن انصرف الشيخ سأله أحد تلاميذه عما فعله،

فقال الشيخ: رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لكيلا تكبر نفسه فتؤذي.

فقال التلميذ: – أما خفته؟. قال الشيخ.. والله يا بني لقد استحضرت هيبة الله تعالي، فصار السلطان أمامي كالقط.

وعـــندما اتجه الصليبيون إلي دمياط بقيادة لويس التاسع، هب الشيخ ليدعوكل أفراد الأمـــة إلي الجهـــاد. وانتصر المصريون علي الصليبين، ثم روعت الدنيا باستيلاء التتار علي بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية.

ومـــن جديـــد يطلق الشيخ عزالدين صيحته إلي الملوك والامراء العرب والمسلمين أن يتفقوا، فما استباح التتار أرضهم وأعراضهم في الطرق إلا لأنهم تفرقوا.

لا للضرائب الجديدة:

وكـــان السلطان ((قطز)) علي عرش مصر، فجمع الأمراء والأعيان والعلماء ليتشاوروا في أمـــر التهديد التتري، ورأي ((قطز)) أن الحرب تقتضي مالا كثيرا وخزانة الدولة خاوية، فلابـــد من فرض ضرائب جديدة علي الرعية لتجهيز جيش قوي يصد زحف التتار. ووافق الأمـــراء المماليك علي فرض ضرائب جديدة، لكن ((العز بن عبدالسلام)) قال: لا للضرائب الجديدة، فإذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم. وجاز أن لا يبقي في بيت المال شيء مـــن الســـلاح والســـروج الذهبية والفضية والمزركشات، وأن تبيعوا مالكم من الحوائص ((أحـــزمة الخـــيل)) الذهبيـــة والآلات الفضـــية ويقتصر كل الجندعلي سلاحه ومركوبه ويتســـاوواهم والعامة.. وأما أخذ الأموال من العامة مع إبقاء الأموال والآلات الفاخرة في أيدي الجند، فلا..

واقتنع السلطان بهذا الكلام، فكان الأمر كما قال الشيخ، ولم يقرر السلطان ضرائب جديـــدة، وبيعـــت الأشياء الثمينة التي يمتلكها الأمراء والجند المماليك وجهز بثمنها جيشا ضخما قاده قطز وهزم التتار في عين جالوت.

عـــاش الشيخ قابضا علي دينه لا يخاف في الله لومة لائم حتي بلغ الثالثة والثمانين من العمـــر فوافته المنية في خلافة الظاهر بيبرس، وشيعته مصر كلها برجالها وأطفالها ونسائها. وحمل الأمراء ومنهم السلطان نعش الشيخ*.

* عبد الرحمن الشرقاوى، أئمة الفقه التسعة، دار إقرأ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م. ص٣٣٧.

الديــــــــروطى

توفـــي (٩٢١هـ) (١٥١٥م)

يعطى الحاكم درساً في الجهاد والكرامة



لا يخفي علي أحد حالة الهوان والضعف التي وصلت إليها الأمة العربية والإسلامية، وماحل بالمســلمين فيهذا العصرمن إنكسارات وهزائم في معاركهم الحربية والسياسية والفكرية: ومهما قــيل عــن أسباب هذا الهوان، فإن هناك سببا أساسيا وجوهريا، وهو فقر المجتمعات الإسلامية وخلوهــا من علماء الدين والرجال الذين لا يخافون إلا الله ولا يهابون قول الحق، أولئك الرجال الذين يعلمون أن الحكم في الإسلام عقد بين متعاقدين، بين الحاكم من جهة وبين الرعية من جهة أخري، وهو من قبيل التعاون علي البر والتقوي.

فالحــاكم-كما يراه الإسلام- ليس شخصا مقدسا حاكما بأمره، وليس وارثا للملك ولا مهيمــنا علي عقائد الناس وقلوبهم، إنه طرف في عقد ليقوم بأعمال الوكالة باسم المجموع.. فهو عقــد موثق بالإيمان يجعل علي الفريقين التزاما دقيقا يجب عليه تنفيذه والقيام بحقه، ويُلزم الحاكم بإقامة كتاب الله وسنة رسوله، ويلزم الأمة بالسمع والطاعة في المنشط والمكره ما لم يكن عصيانا لأمر الله ونهيه، فإن كان عصيانا فلا سمع ولا طاعة.

وقــد نظــم القرآن الكريم هذه العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الآيتين [٥٩,٥٨ من سورة النســاء]، حيــث يقــول سبحانه وتعالي: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلي أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾.**

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلي الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾.

نــقد الحــكام:

يقــول الإمام «ابن تيميه» أن الآية الأولي نزلت في ولاة الأمور -الحكام- عليهم أن يؤدوا الأمانــات إلي أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، فإن خانوا الأمانة سلبت منهم الولاية - أي عزلوا من الحكم.

ونزلت الآية الثانية في الرعية، عليهم أن يؤدوا أمانة الطاعة، إلا أن يؤمروا بمعصية، فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والفيصــل الحكــم والميزان القسط بين الحاكم والرعية، هو كتاب الله تعالي، وسنة رسوله الكريم، فإذا اختلف بين طرفي الأمانة، ردوا الخلاف إلي الكتاب والسنة ليفصلا بينهما.

وبناء علي ذلك فإن من حق المحكومين نقد الحكام إذا أخطأوا، ومناصحتهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتــاريخ دولة الإسلام في مجدها كان خير دليل علي هذا العقد، فلم يغضب الحاكم العادل مــن مسائلة الرعية له فهو يؤمن أن هذا من حقهم بل ومن واجبهم، وتعتبر الأمة آثمة إن قصرت في هذا الحق، و لم يتغافي المحكومون عن شئ يرونه تقصير من قبل الحاكم.

وهــذه الحادثة تؤكد دور العلماء في الرقابة علي الحكام، حدثت في عهد السلطان قنصوة الغوري، طرفاها الشيخ «الديروطي» والسلطان الغوري.

والشيخ هو «شمس الدين الديروطي» من علماء الأزهر، واعظ زاهد، وكان جريئا في الحق، يتعفف عن عطاء السلطان، وكان يعيش من تجارته، توفي بدمياط سنة ٩٢١هـ، له كتاب القاموس في الفقه، وشرح منهاج النووي.

بين الديروطي والسلطان:

أمـــا السلطان فهو «قنصوة بن عبد الله الطاهري الغوري»، سيف الدين الملقب باسم الملك الأشرف، سلطان مصر، بويع بالسلطنة بقلعة الجبل في القاهرة سنة ٩٠٥هـ، وظل يحكم مصر حتي هزمه السلطان العثماني «سليم الأول» في موقعة مرج دابق، ومات سنة ٩٢٢هـ.

دخل «الشيخ الديروطي» في أحد الأيام مجلس السلطان الغوري، وبادر بإلقاء تحية الإسلام عـــلي السلطان، و لم يرد السلطان التحية، هذا الموقف أغضب «الشيخ الديروطي» الذي تربي في مدرســـة الإســـلام، فقـــرر أن يلقن هذا السلطان المتعجرف الذي لم يرد التحية درسا في آداب الإسلام يكون عبرة له ولغيره. قال الديروطي للسلطان: إن لم ترد السلام، فسقت وعزلت.

فقال السلطان: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أضاف: يا شيخ ديروطي، لماذا تهاجمنا علي ترك الجهاد، ومقاتلة الأعداء وليس لنا مراكب نجاهد المعتدين عليها؟

فقال الشيخ: هذه حجة واهية، فأنت لديك من المال الكثير، الذي يمكن أن تجهزها به، فلماذا لم تفعل؟ وطال بينهما النقاش، فقال الشيخ: لقد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان، أما تذكر حين كنـــت نصـــرانيا ثم أسروك، وباعوك من يد إلي يد، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام، ورقاك إلي ان صرت سلطانا علي الناس؟

وعـــن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجح فيه طبيب، ثم تموت، وتكفن، ويحفرون لك قبرا مظـــلما، ثم يدســـون أنفك هذا في التراب، ثم تُبعث عريان عطشان جوعان، ثم توقف بين يدي الحاكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ثم ينادي المنادي:

من كان له حق علي الغوري فليحضر، فيحضر خلائق لا يعلم عددها إلا الله.

فـــتغير وجه السلطان من وقع هذا الكلام عليه وكتم غضبه وغيظه، و لم يجد أمامه من حيلة سوي أن يحاول إسكات الشيخ بالمال والهدايا، اعتقادا منه ان هذا الشيخ يشتري بالمال.

عـــرض عليه مبلغا من المال هو عشرة آلاف دينار يشتري بها سكوته وصمته علي مخازيه، وسلبه حرية الشعب وأمواله، وجبنه عن مواجهة الأعداء.

ولكن هذا الشيخ الذي يجابه السلطان بكلمة حق، محال أن تخدعه عروض الدنيا، أو يغريه بريق الذهب، فردها عليه قائلا: أنا رجل ذو مال، ولا أحتاج إلي مساعدة أحد، ولكن إن كنت أنت محتاجا لأجل الجهاد، ولأجل تجهيز الجيش للدفاع عن الإسلام، أقرضتك وصبرت عليك.

فبهـــت الســـلطان، و لم يدر بما يقول، وهكذا أعز الله الشيخ بالحق، وأذل السلطان المتكبر الذي قهره الديروطي بتقواه وتعففه.

ويغـــزو السلطان العثماني البلاد، ويستولي علي مصر، ويذهب الغوري إلي قاع التاريخ غير مأسوف علية، ويبقي الشيخ بورعه وزهده وتمسكه بالحق يجهر به دائما في وجه كل سلطان، فهو لا يخاف إلا الله سبحانه وتعالي.

يدخـــل السلطان «سليم الأول» مزهوا بانتصاره إلي القاهرة، ذهب إلي القلعة مقر الحاكم، وجلـــس هناك مغرورا، طلب القائد المنتصر من أعيان الأمة وعلمائها وقوادها أن يأتوا إلي القلعة لتقديم فروض الطاعة والولاء.

هرع الكثيرون إليه يتزلفون، ينافقون، يقدمون الولاء والطاعة كما يفعلون مع أي حاكم، ولكن «الديروطي» لم يفعل فعلهم، فقد تربي في مدرسة القرآن، وتشرب روح الإسلام ونهل من ينابيع الإيمان الحـــق، امتنع عن تلبية طلب السلطان، أرسل إليه «سليم الأول» أحد قواده مع مجموعة من الجنود، عَلّ الشـــيخ يخـــاف ويأتي معهم، ولكن الرجل الرباني يرفض ويصر علي الرفض، فالعلماء لا يذهبون إلي الحكام، وهم يؤتي إليهم ولا يأتون.

اندهش السلطان من موقف هذا الشيخ، الذي يتحدي أوامره، فقرر أن يذهب إليه ليري مدي قوته، جاء سليم الأول وسط حاشيته وأركان حربه، وكأنه ذاهب إلي معركة حربية.

وصل إلي دار «الديروطي»، فلم يجد حراس أو أحد في انتظاره، أعلموا الشيخ بوصوله، فلم يخـــرج إلـــيه، ولم ترهـــبه أبهة الملك وجلال السلطان، دخل سليم عليه داره، فسلم ورد الشيخ التحية، وسأله السلطان: لما لم تأت إلينا يا ديروطي؟

بهـــدوء يقـــول الـــرجل المؤمن: لم نتعود الخروج إلي أحد، بعد صمت يقول سليم الأول: ولكنني أنا السلطان، فيقول الشيخ: إنما الملك لله سبحانه وتعالي ونحن العلماء ورثة الأنبياء، يأتي إلينا الحاكم ولا نذهب إليه!

ويطول الصمت ويشعر السلطان سليم الأول بضآلته أمام هذا الشيخ الذي ظل ثابتا ساكنا لم يرهبه شيئ.

فيقول السلطان: يا سيدي.. ألك حاجة نقضيها لك، قبل أن نذهب إلي تركيا؟

ويرد الديروطي بكرامة وعزة وإباء: لسنا في حاجة إلا إلي الله سبحانه وتعالي.

لقد أعزه الإيمان، وأمدته الثقة بالله بالقوة والشجاعة، فلم يفكر فيما يمكن أن يتعرض له من بطش هذا القائد المنتشي بالنصر.

فلا يملك السلطان إلا أن يسلم ويذهب إلي دار الحكم ومن خلفه حاشيته لا يصدقون أن يكون في مصر مثل هذا العالم الذي تحدي السلطان سليم الأول قاهر الجيوش والممالك.

وقـــبل أن يعـــود ســـليم الأول إلي تركـــيا يوصي واليه علي مصر أن يذهب إلي «الشيخ الديروطي» من حين لآخر يتفقد شئونه ويحقق مطالبه.

وفي إحدي هذه الزيارات، وكان الوالي يستعد لزيارة السلطان في تركيا، يذهب الوالي إلي دار العـــالم الجليل ويقول له: إننا أزمعنا الرحيل إلي تركيا، ونحن مقربون إلي السلطان، فهل من حاجه نقضيها لك من سلطان البلاد؟.

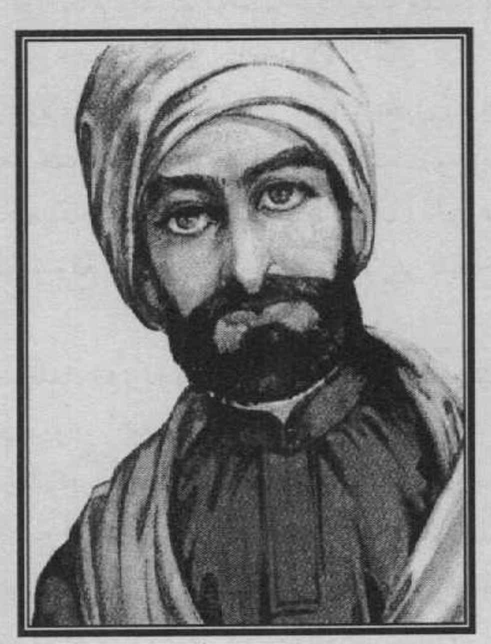
ورغـــم تقدم سنة، فلم يزل الديروطي علي تقاه وورعه وتمسكه بالحق يقول: إننا مقربون إلي الله أكثر فهل لك أنت حاجة!!

ما أجمل القول، وما أعظم الحجة..

الشيخ الدرديرى

(١١٢٧-١٢٠١هـ)

صوت الحق ونصير المظلومين



علي مدار تاريخنا العربي والإسلامي، كان علماء الدين ومشايخ الأزهر هم رموز الأمة المدافعـــين عـــن حريـــتها والـــزائدين عـــن حقوق الناس، كان هؤلاء المشايخ ملاذ أبناء الشعب كلما تجبر الولاة، واشتدت قسوة الحكام وتعنتوا وبطشوا.

يسجل التاريخ بمداد من نور مواقف بطولية رائعة ومشرفة لعلماء الدين والمشايخ الذين قـــاوموا كـــل مستعمر وحاكم مستبد، وأعادوا الحقوق إلي أصحابها. ولا عجب فالعلماء ورثة الأنبياء، وهم ملح الأمة الذي يصلح كل فساد.

هـــؤلاء العـــلماء كـــانوا أطـــوع الناس لله، وأحرصهم علي رضاه سبحانه وتعالي، وأنصـــحهم للـــراعي والرعية، تري فيهم القدوة الطيبة، والخلق الفاضل، والسلوك القويم، والتمسك بهدي القرآن، وتعاليم رسولهم الكريم (ﷺ).

في مخـــتلف العصور قاموا بالنصيحة، وحاربوا ووقفوا إلي جانب الحق، لا يخشون إلا الله، ولا يـــرجون ســـوي وجـــه ربهم القدير. بأمثال هؤلاء العلماء والمشايخ صلُح حال المســـلمين، وســـادوا العالم وكانت دولتهم عزيزة قوية مُهابة، ولن يعود للعرب والمسلمين مجدهم إلا إذا وُجدَ من جديد في أمتنا أمثال هؤلاء الرجال.

تـــربي معظم هؤلاء الرجال الذين يفخر بهم التاريخ في رحاب الأزهر الشريف، الذي كان منذ إنشائه قلعة لحماية الدين، يلجأ إليها عامة الشعب وخاصته، حيث كانوا يعتبرون عـــلماء الأزهر حكامهم الروحيين، وأصحاب السلطان والحق عليهم، حتي لقد اعتاد الناس إذا حل بهم مكروه، أو وقع عليهم ظلم، هرعوا إلي الأزهر يستنجدون بعلمائه.

ضـــد الطغـــيان:

ومـــن هؤلاء العلماء الذين وقفوا إلي جانب الناس ضد طغيان واستبداد الولاة «الشيخ أحمـــد الدرديـــرى». وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد العدوي المالكي الأزهري الخلـــوتي، الشهير بالدردير، المولود ببني عدي مركز منفلوط، محافظة أسيوط، سنة ١١٢٧ هـ.وفـــد عـــلي الجامع الأزهر وهو شاب بعد أن جود القرآن الكريم، فأخذ عن كثير من الشيوخ، وبخاصة عن الشيخين علي الصعيدى والحفني، وتأثر بالحفني روحيا، فتصوف علي يديـــه، وتلقـــي مـــنه الذكر، وطريق الخلوتية، وصار من أكبر خلفائه. وقد أفتي في حياة شيوخه، مع كمال الصيانة والزهد والعفة والديانة.

وكـــان يُضرب به المثل في عفته، كما كان مهذب النفس كريم الأخلاق، ومما يروي عـــنه في ذلك أن «مولاي محمد» سلطان المغرب كان يرسل كل عام بعض الهدايا والأموال إلي عـــلماء القاهرة. وكان ابن هذا السلطان قد وفد إلي هذه المدينة وهو في طريقه إلي مكة

المكرمة للحج، فتخلف بها فترة، ونفد ما معه من المال، وتصادف في ذلك الوقت أن حضر رســـول سلطان المغرب بالعطايا والأموال إلي العلماء، فرفض «الشيخ الدرديرى» أن يتسلم نصـــيبه مـــنها، وقال: والله هذا لا يجوز، وكيف نأخذ مال الرجل، ونحن أجانب، وولده يتلظي من العدم؟! هو أولي مني وأحق فأعطوه نصيبي.

ولمـــا تـــوفي «الشيخ علي الصعيدي»، تم اختيار تلميذه «أحمد الدرديرى» شيخا على المالكـــية، ومفتيا وناظرا علي وقف الصعايدة، وشيخا علي رواقهم بالأزهر، بل شيخا علي أهـــل مصر بأسرها في وقته. فقد كان رحمه الله يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويصدع بالحق، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله في السعي علي الخير يد بيضاء.

وللشيخ الدرديرى عدة مؤلفات ومن بينها:

- أقرب المسالك لمذهب مالك.
- تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان.
- رسالة في المعاني والبيان.
- رسالة في طريقة حفص في القراءات.
- رسالة في متشابهات القرآن.

الشـــيخ الشـــاعر:

ولا يزال خلفاؤه من السادة السباعية الخلوتية يترنمون في أذكارهم حتي اليوم بقصيدته المعروفة باسم الخريدة السنية في التوحيد، ومطلعها: حمدا لمولانا وشكرا لربنا.

وللشيخ الدرديرى شعرا كثير أغلبه في التصوف والعقائد، ومن ذلك أرجوزته المسماة المزيدة البهية

وفي الســـادس مـــن ربيع الأول سنة ١٢٠١هـ توفي الإمام العالم العلامة أوحد وقته.في الفنون العقلية والنقلية، شيخ الإسلام «الشيخ الدرديرى» بعد حياة حافلة بمجالس التدريس بالجـــامع الأزهر، وتقوي الله ومجاهدة النفس والدفاع عن الحق والعمل علي نصرة الشعب ضد كل ظالم.

ومن مواقف هذا الشيخ الجليل دفاعا عن الحق ضد الظلم والاستبداد أنه عندما اقتسم الطاغيتان إبراهيم ومراد بك السلطة في مصر، توالت حوادث الاغتصاب والسلب والنهب وأصبح الناس مهددين في أموالهم وأرواحهم، و لم يجدوا من يدافع عنهم وعن حقوقهم غير مشايخ وعلماء الأزهر.

مـــلاذ الشـــعب:

في هذه الأيام العصيبة، نشب خلاف بين أحد البكوات من المماليك ورجل من عامة الشعب، وقف من الأمير موقف الخصم العنيد، فاستمسك بحقه وأبي أن يفرط في شيء منه. ولجأ إلى القضاء*.

ثار المملوك المدلل، وأرغي وأزبد، وقد أغضبه أن يقف منه موقف الخصم أحد العامة. كـــان المملـــوك يعتقد انه مادام صاحب الجاه والقوة والمركز الخطير، فالحق في جانبه والشريعة في صفه وإن كان علي غير الحق. وقالت الشريعة التي لا تحابي كلمتها في النزاع، وأعطـــت الحـــق للفلاح، وأراد الرجل المظلوم أن ينفذ حكم الشريعة، ولكن هيبة الأمير وقفت حائلا دونه، وحار الرجل في آمره، وأصبح الحكم معلقا، وكأنه لم يصدر.

لجـــأ الرجل إلى الأزهرملاذ الشعب، ومناط آماله، مستنجدا بالعلماء، طالبا الانتصاف لـــه، ولكافة الشعب، الذي إن استنام رجال الدين عن حقه ونصرته، ضاعت هيبة الشريعة أمام أمير من الأمراء وتعطل حكمها.

وطالـــب العلماء الأزهريون، وعلي رأسهم الدردير بأن تأخذ العدالة مجراها، وأن علي الأمير أن يحني رأسه لها صاغرا معتذرا.

وأبي الأمـــير المعتز بمكانته، وظن أن رفضه سيجعل العلماء يتراجعون عن الاستمساك بمطالـــبهم، ولكنهم ازدادوا بها استمساكا وأبو إلا أن يصل الحق إلى صاحبه رجل الشعب، ولو كان في ذلك هزيمة مملوك خطير.

وتطـــور الأمر، واهتز الأزهر، وخرج العلماء إلى ديوان الوالي يطالبون بالمساواة التي فرضتها الشريعة وأقرها القانون.

وعـــلا صوت الشعب مؤيدا علمائه وأغلق الناس حوانيتهم، وتوقف دولاب العمل، وتعطلت حركة البيع والشراء.

وســـارت الأحوال في اتجاه بالغ الخطورة، وفطن القوم من عقلاء المماليك، فأرغموا صـــاحبهم عـــلي الخضـــوع للشريعة، ورضخ المملوك الأمير وسلم بأحقية خصمه. ولكن «الشـــيخ الدرديري» لم يكتف بذلك، بل طلب ومعه إخوانه من علماء الأزهر أن تحرر بما حـــدث وثـــيقة رسمية تكون بمثابة صلح وتراض وإقرار بما تم الاتفاق عليه، يستند إليه كل صـــاحب حـــق، وتكون مستندا دامغاً يلزم الطغاة بعد ذلك بالاعتراف بحقوق الغير، ولو كانوا من عامة الشعب ضد الأمراء الطغاة.

---

* محمد عبد الله ماضى، الأزهر في ١٢ عاما. ص٢١.

مــع الحــق:

ومرة أخري يعلو صوت الشيخ الدرديرى مدويا مؤيدا للحق ضد الطغاة، فقد تجاسر «حســين بشفت» أحد رجال إبراهيم بك، علي فرض ضرائب جديدة علي حي الحسينية، فلما امتنع الأهالي ذهب إليهم علي رأس جنده لإرغامهم علي التسديد.

وهجــم بجنده علي بيت «أحمد سالم الجزار» نقيب الطريقة البيومية وشيخ دراويشها، فنهــبوا الــدار وما فيها من متاع وفرش وحلي، وكل ما وجدوه أمامهم، وثار أهل الحي وتجمعــوا سائرين إلى الأزهر مسلحين بالهراوات والسكاكين، وصعدوا الي المنارات يدقون منها الطبول، وكأنهم يعلنون الحرب ويحفزون الهمم للقتال.

ووجد رجال الأزهر انهم أمام جريمة جديدة من جرائم المماليك ضد الشعب، وارتفع صوت «الشيخ الدرديرى» فأصغي إليه الجميع وهو ينصحهم بالتكتل والتجمع في الغد من شــتي البقاع ليهجموا بأسلحتهم علي بيوت المماليك، فينهبوها بدورهم جزاء وفاقا، فان انتصروا أرهبوا المماليك اللصوص، وان ماتوا كانوا في الشهداء.

وتسامع عقلاء بكوات المماليك بما حدث، وروعهم أمر التكتل الشعبي المرتقب الذي يمكن ان يدمرهم جميعا لو تم، فهرعوا إلي «إبراهيم بك» الذي طلب من حسين بشفت أن يمتــنع عــن ذلــك، فقد وجد أن الحكمة تقتضي العمل علي تهدئة خواطر العامة، قبل أن يستفحل الأمر.

وأرســل إبراهــيم عند المساء كتخداه محمد الحلفي وسليم أغا إلى حي الغورية حيث قابلا «الشيخ الدرديرى» واتفقا معه بوصفه زعيما دينيا لا يعصي الشعب له أمرا أن يعمل علي تهدئة الخواطر الثائرة ويُطفئ نار الفتنة الموشكة علي الهبوب، في مقابل تعهدهما بإرضاء أهــالي حي الحسينية بصفة عامة و«الشيخ سالم الجزار» بصفة خاصة فيرد إليه كل ما سُلب منه، وفوقه الاعتذار الذي يرضيه. ومبالغة من إبراهيم في إظهار حسن نيته أصدر أمرا بعزل حسين بشفت من منصبه.

مكانــة كبــيرة:

وكــان أمراء المماليك يعرفون «للشيخ الدرديرى» مكانته بين أفراد الشعب، ولذلك كــانوا يقصــدونه للاستعانة به كلما خافوا ثورة الشعب ضدهم، ومن ذلك ما حدث في الثالــث من شوال سنة ١٢٠٠هـ، عندما خشي المماليك من قيام الشعب ضدهم ومساعدته لــلحملة البحرية التي أرسلها السلطان العثماني للضرب علي أيدي المماليك الذين عاثوا في الأرض فســادا، إذ ركب إبراهيم بك الكبير وذهب إلي الشيخ البكري وعيد عليه، ثم إلي

الشـــيخ العروســـي، والشيخ الدرديرى وصار يتودد إليهم، وأوصاهم علي المحافظة وكف الرعية عن الشغب أو أي حركة في مثل هذا الوقت، لأنه كان يخاف ذلك جدا.

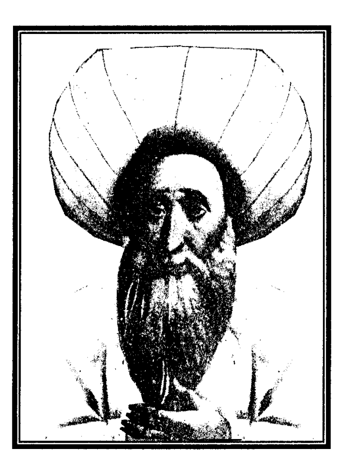
ولأن ((الشيخ الدرديري)) كانت له مكانة كبيرة عند أبناء الشعب المصري لوقوفه إلى جانـــبهم ضد جور وتعسف الحكام، بلغ من حبهم لهذا الشيخ أن أقاموا له بعد وفاتـــه مقاما يُزار في حي الأزهر كأحد الأولياء إلي الآن، ويقيمون له كل عام مولد يحتفلون بذكراه فيه.

وهـــذه هـــي عادة وطريقة المصريين في تحويل من يقود صراعهم ومن يدافع ويتبني قضاياهم، إلي ولي بعد وفاته وتخليده.

الشـــــيخ الشــــــرقاوى

(١١٥٠-١٢٢٧هـ) (١٨١٢م)

يقـاوم طغـيان المماليـك ويعـزل الـوالى



تـــاريخ الأزهـــر الشريف هو صفوة تاريخ مصر، وتاريخ مصر هو صفوة تاريخ الأمة العربـــية والشعوب الإسلامية. مصر هي التي صدت محافل التتار بعد أن اجتاحت جيوشهم عاصمة الخلافة في بغداد، وهي من قبل التي أعادت بيت المقدس إلي المسلمين بقيادة صلاح الدين الذي دمر الصليبيين في حطين.

وفي كـــل هذه المعارك كان لعلماء الأزهر الشريف دور بارز، لم يكتفون بالقيادة الروحية للأمة، بل كانوا يقودون الشعب في كل معاركه.

كانوا يدعمون سلطة الحكام إذا أحسنوا، ويزلزلون عروشهم إذا جنحوا للظلم، وكان المصريون يفزعون إلي علماء الأزهر في أوقات المحن للدفاع عن حقوقهم والوقوف في وجه استبداد الحكام.

ومـــن العلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر، وكان لهم دورهم المؤثر في الحركة الوطنية وإعلاء كلمة الحق، والوقوف إلي جانب أبناء الشعب ضد جور وظلم الحكام الشيخ عبدالله الشـــرقاوي، الإمـــام الـــثاني عشر للأزهر الشريف. وهو «عبدالله بن حجازي بن إبراهيم الشـــافعي»، وُلد بقرية الطويلة من ضواحي بلبيس محافظة الشرقية، سنة ١١٥٠هـ، ومن هنا أطلق عليه لقب الشرقاوي.

حفـــظ القرآن الكريم في قرية القرين، ثم رحل إلي القاهرة للدراسة في الأزهر، حيث درس عـــلي مشاهير علمائه مثل الشهاب الملوي،.. الشهاب الصعيدي، الشيخ الجوهري، والإمام الدمنهوري.

ميل إلي التصوف:

ومال الشرقاوي بفطرته إلي التصوف، واتصل بالصوفي الشهير في ذلك الوقت «الشيخ الكـــردي» فلازمـــه وأخذ عنه. وعاش في القاهرة تتقلب به الأيام بين مرارة الفقر وحلاوة اليسر، وعاش مغمورا فترة طويلة، ثم رفعته الأقدار إلي مصاف العلماء الكبار، لما عُرف عنه من جد واجتهاد.

وقـــد اشتهر بالزهد والتقشف في مأكله وملبسه، حتي بعد أن أقبلت عليه الدنيا وتولي مشـــيخة الأزهر، بعد وفاة الشيخ العروسي سنة ١٢١٨هـ. وعُرف بعمامته الكبيرة. وطوال فـــترة الســـنوات التسع التي قضاها شيخا للأزهر، شهدت مصر أحداثا هامة، كان للشيخ دوره المؤثر فيها.

كـــان الشـــعب كـــلما تعرض لظلم لا يستطيع دفعه، يلجأ إلي علماء الأزهر، فهم أصـــحاب السلطان الروحي، وهم وحدهم القادرون علي مواجهة استبداد الحكام الطغاة.

ومـــن المواقف التي رفعت الإمام الشرقاوي إلي مرتبة الزعامة الشعبية مقاومته لطغيان محمد بك الألفي.

فقـــد حضـــر بعض أهالي بلبيس إلي الشيخ الإمام الشرقاوي، وشكوا إليه من طغيان محمد بك الألفي، الذي أرسل أتباعه إليهم، يطلبون ما يطلبون من أموال.

غضب الشيخ لغضبهم وما يترل بهم من ظلم، ووعدهم بالتصدي لهذا الطاغية، فحضر إلي الأزهـــر الشريف ودعاكبار العلماء لعقد اجتماع في الأزهر لتدبر الأمر، واستقر رأي العـــلماء علي خوض المعركة ضد أمراء المماليك. اجتماع المشايخ وغضبهم أفزع مراد بك وإبراهيم بك والوالي، فحاولوا تدارك الأمر، ودعوا العلماء الغاضبين إلي مترل إبراهيم بك، فحضـــر مـــن العلماء الشيخ الشرقاوى والشيخ السادات، والشيخ البكري، والشيخ الأمير والسيد عمر مكرم.

إضـــراب عـــام:

وقد سبق ذلك الاجتماع إغلاق الأزهر، وأمر الشرقاوي الناس بإغلاق الحوانيت فيما يشبه الإضراب العام – بلغة هذه الأيام.

في الاجـــتماع سأل إبراهيم بك الشيخ الشرقاوي: لماذا أغلقت المسجد وأمرت الناس بإغلاق الحوانيت؟.

فقـــال الشيخ: نريد العدل، ورفع الظلم وإقامة الشرع وإبطال المكوس «الضرائب»، والذي دفعنا إلي ذلك ظلم الألفي وتعديه هو ورجاله علي أهالي بلبيس.

ودافع بقية العلماء عن حقوق الشعب دفاعا حميدا مجيدا، وأصروا علي إجابة مطالبهم.

فقال إبراهيم بك: لا يمكن الاستجابة لهذا كله، فإننا إن فعلنا هذا ضاقت علينا المعايش والنفقات. فقالوا له: ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس، والأمير يكون أميرا بالإعطاء، لا بأخذ الأموال من الناس، ووعدهم إبراهيم ومراد بك بالنظر في الأمر، و لم ينفذا شيئا.

وانفـــض المجلس وركب المشايخ إلي الجامع الأزهر، واجتمعت حولهم جماهير الشعب وباتوا بالأزهر، مزمعين علي الثورة. ففزع الوالي والأميرين، واستدعوا المشايخ مرة أخري، وتمسك العلماء برأيهم وأصروا علي تنفيذ مطالب الشعب. فوافق الأمراء مذعنين.

وهـــنا صمم «الشيخ الشرقاوي» أن تكون الاستجابة كتابة يوقع عليها أمراء المماليك حـــتي لا يعودون إلي فعلتهم مرة أخري. وتم تحرير الوثيقة التي عُرفت بالشرطة وكان من بنودها:

* لا تفرض ضريبة جديدة إلا إذا أقرها الشعب.

* أن يترل الحكام علي مقتضي أحكام المحاكم.. أي ينفذوها.

* ألا تمتد يد ذوي السلطان إلي أفراد الشعب إلا بالحق والشرع.

وقــد وقــع الوالي علي هذه الوثيقة، ثم ختمها مراد بك، وكان هذه الوثيقة أشبه ما يكــون بإعلان حقوق إنسان، وقد هلل الشعب لهذا الظفر، وهتف من الأعماق: لا مظالم ولا حوادث - اعتداءات علي الناس - ولا مكوس - ضرائب - وكأنهم بذلك يقولون أن الأمة مصدر السلطات، والعلماء حراس الأمة*.

عضــو الديــوان:

ولمــا أنشأ نابليون بعد احتلاله مصر، الديوان الوطنى ضم إليه عشرة من العلماء علي رأســهم «الشيخ الشرقاوي»، وأمر نابليون أن تؤدي للعلماء التحية العسكرية إجلالاً لهم، وكــان يســتقبلهم عند المقر الخارجي لقيادته، وخصص لكل منهم جوادا ككبار رجال الدولة، وشارك في الأعياد الدينية، وأمر جنوده بإطلاق المدافع في هذه المناسبات.

لكن «الشيخ الشرقاوي» بحسه الوطني وفطرته السليمة أدرك ان ما يفعله نابليون مجرد مظاهــر لتألــيف العلماء واستمالتهم نحوه، ولم ير فى نابليون إلا غازيا معتديا، لكنه رأي مهادنته حتي تنتظم صفوف الشعب ويصبح قادرا علي الثورة والانقضاض علي المحتل.

واســتغل الشــيخ علاقته الطيبة بالفرنسيين، فكان يشفع للأهالي في رد المظالم، ومنع جــنود الحملة من العبث والخروج علي التقاليد الإسلامية. وكان نابليون يلبي طلباته إلى أن أحس واكتشف عداوة الشرقاوي للحملة، فقبض عليه وسجنه في القلعة مع زعماء الجهاد، لكنه سرعان ما أفرج عنه لمكانته وخوفا من أن يؤدي استمرار اعتقاله إلي زيادة الغليان في صفوف الشعب.

وكــان نابليون ينصح رجاله، ويقول لهم: إذا كسبتم ثقة العلماء، وخاصة هذا الشيخ -يقصــد الشرقاوي- فستكسبون الرأي العام في مصر كلها. لأنه كان يعرف قوة سلطان العلماء الروحي لدي الشعب. ومكانة الأزهر في نفوسهم.

ســعة أفــق:

ولم يكــن «الشيخ الشرقاوي»من العلماء الجامدين أعداء كل جديد، وإنما كان متفتح الذهن واسع الأفق، تنبه إلي المدنية الحديثة والعلوم المتطورة التي جاءت بها الحملة الفرنسية، وكــان يقارنهــا بحالــة التخلف الذي كانت عليه مصر وكل الولايات الخاضعة للحكم العثماني.

---

*سنية قراعة، تاريخ الأزهر، مكتب الصحافة الدولى، ١٩٨٦، ص٢١٢.

ولما علم نابليون أن «الشيخ الشرقاوي» يتلقي رسائل سرية من الخليفة للعثماني، أثر ذلك في نفسه، ولكنه لم يستطع إثبات ذلك ولا إلي وسيلة تسللها إلي البلاد، فلم يفعل للشيخ شيئا. إلي أن غادر نابليون مصر، وهو يتوجس من «الشرقاوي» خيفة فوراء هدوء هذا الشيخ ومهادنته تكمن بوادر ثورة وأشياء لا يمكن التنبأ بكنهها.

وعندما قُتل كليبر علي يد الطالب الأزهري «سليمان الحلبي»، قُبض علي «الشيخ الشرقاوي» و«الشيخ العريشي».. بوصفهما المحرضان علي عملية الاغتيال، وأنهما ساعدا «الحلبي» وحفزاه لهذه العملية. ولكن قادة الحملة سرعان ما أفرجوا عن الشيخين خوفا من هياج الشعب، في مرحلة كانوا ينشدون فيها تهدئة الأهالي.

التغيير من أجل الأفضل:

وبعد أن خرجت الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١م، استمر دور الشيخ «عبدالله الشرقاوي» في تزكية النفوس ودفعها للثورة والتغيير من أجل الأفضل. بعد رحيل الحملة عانت البلاد من ظلم وطغيان الفرق الأجنبية والقوي المتعددة سواء العسكر العثمانيين وفرق الإنكشارية وفرقة الأرناءود، وفريق الدلاة، وهم الأكراد الذين استجلبهم «خورشيد باشا» لضرب الفرق الأخري، وأخذوا جميعا ينهبون ويستبيحون الحرمات، فضج الناس بالشكوي، ولجأوا «للشيخ الشرقاوي»، فقاد مجموعة العلماء وآلاف المواطنين وذهب إلي الوالي، فكتب إلي رؤساء الفرق للكف عن النهب والسلب، لكنهم لم يسمعوا إليه، فأعلن العلماء وعلي رأسهم «الشيخ الشرقاوي» عزل خورشيد وتوليه «محمد علي»، ورفض خورشيد العزل، لكن السلطان العثماني أقر ما فعله العلماء، وأكد أن موافقته جاءت تلبية لمطالب العلماء والرعية. فكانت هذه فاتحة للشعب ليقرر مصيره وليختار زعامته.

وبينما كان محمد علي يطارد المماليك في الصعيد،جاءت حملة «فريزر ١٨٠٧م» واحتلت القوات الإنجليزية الإسكندرية، وزحفت إلي رشيد، فهب العلماء وعلي رأسهم الشيخ الشرقاوي يحمسون الناس علي الجهاد والمقاومة، وانتصر الشعب ورحل الإنجليز بعد ان تكبدوا خسائر فادحة. فتأكدت زعامة الشرقاوي وعمر مكرم للشعب، واضطر الوالي الجديد محمد علي إلي مهادنتهما.

خاتمة عهد:

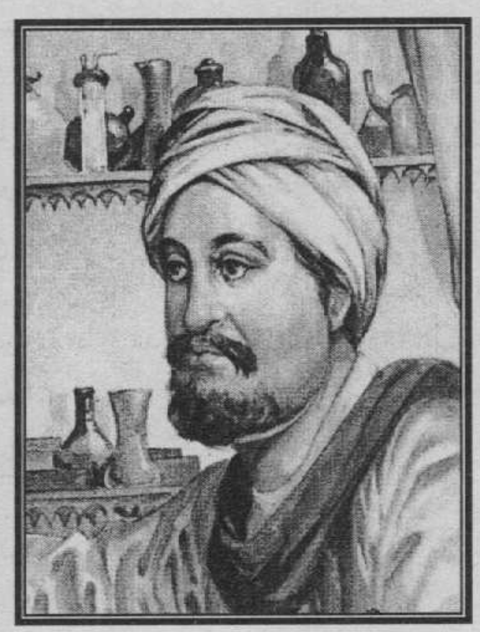
ومات «الشرقاوي» بعد حياة حافلة بالجهاد والثورات سنة ١٢٢٧هـ (١٨١٢م). وكان موته خاتمة عهد، وبداية عهد جديد، عهد تخلصت فيه مصر من أدران المفاسد والمظالم واستطاعت بقوة شعبها وشدة بأسه، وعزة تماسكه في فرض سلطانها، وأن تسدل علي الماضي ستارا داكنا، وأن تفتح يديها مرحبة لتستقبل عهد جديد.

وترك الشيخ الشرقاوي – رحمة الله – كثيرا من الرسائل والكتب القيمة منها:
* التحفة البهية في الطبقات الشافعية.
* العقائد المشرقية في التوحيد.
* الجواهر السنية علي العقائد المشرقية.
* تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين.
* شرح علي حكم ابن عطاء الله السكندري.
* ربيع الفؤاد في آداب الطريق وترتيب الأوراد.

حسن العطار

(١٧٧٦-١٨٣٥م)

الشيخ العالم



فى الوقــت الذى خيم فيه الظلام والجهل والضعف والتأخر على بلاد المسلمين قرب نهايـــات الخلافة العثمانية، لم يخل الأمر من نقطة ضوء، تمثلت فى بعض العلماء المسلمين من أبـــناء الأزهـــر الشـــريف، الذين كانوا فى طليعة العاملين على التجديد والتحديث وبعث النهضة الفكرية، والأخذ بأسباب الحضارة والمدنية الحديثة.

ومن هؤلاء العلماء «الشيخ حسن العطار»، الذى يُعد بحق من أعمدة المدرسة الثورية التى ثارت على أسس الحياة السائدة فى المجتمع المصرى فى بداية القرن التاسع عشر، ودعت إلى تغـــييرها عـــلى الأسس الروحية والدينية الرحبة للإسلام، مع الأخذ بمنجزات الحضارة الغربـــية الوافـــدة، وإبـــراز قيمة الإنسان فى الحياة، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، سعياً للتجديد فى فكرنا الحديث، وبنياننا الحضارى.

معـــربي مصـــري:

والشـــيخ «حســـن العطار» من مواليد القاهرة سنة ١٧٧٦م. وترجع أصوله إلى بلاد المغرب العربى، وكان والده عطاراً وله إلمام بالعديد من العلوم، وشجع ابنه على هذا الاتجاه لما وجد عنده من ميل إلى العلوم، وساعده على الالتحاق بالأزهر، حيث زامل المؤرخ عبد الـــرحمن الجـــبرتى وإسماعـــيل الخشاب فى حلقات الدراسة، فقرأوا معاً على الشيخ محمد الصبان، وعلى الشيخ مرتضى الزبيدى والشيخ محمد الأمير النحو وفقه اللغة. ونشأت بينهم صداقة حميمة على الرغم من تباين اتجاهاتهم وتكويناتهم الفكرية. وكانوا جميعاً فيما بعد من أبـــرز الدعـــاة وأكبر الرواد فى الدعوة إلى النهضة الفكرية الحديثة والمنادين بضرورة الأخذ بالعلوم العقلية والوضعية.

الثـــورة علي القـــديم:

وهـــذا الميل إلى العلم والموضوعية والعقلانية فى التفكير، دفعه إلى الثورة على القديم، وعـــلى ثقافة عصره التقليدية الجامدة، ويرفض مناهج مدارس الشرح على المتون والحواشى والتقارير، والنقل من كتب السابقين.

وفى هـــذا يقـــول: «فـــإن قصارى جهدنا النقل عنهم، بدون أن نخترع شيئاً من عند أنفسنا، وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة، بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة نكررها طوال العمر، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر فى غيرها، حتى كأن العلم انحصر فى هذه الكتب».

وقـــد وصـــل «الشيخ العطار» إلى هذه الرؤية بعد أن درس العلوم العصرية من طبيعة وهندسة ومنطق وفلك وعلوم ورياضة.

ولَما دخل الفرنسيون مصر، فوجئ الأزهرى الشاب بمجيء الحملة فخاف وفر فيمن فر من العلماء إلى الشام، فلما هدأت الأمور عاد إلى مصر، و لم يقصر فى الاتصال بعلمائهم كما قصر أهل الأزهر، و لم يقعد عن البحث فى سر نهضتهم وقوتهم كما قعد أهل الأزهر، فعـــرف من سر نهضتهم ما لم يعرفوه، واطلع على بعض علومهم، وشاهد بعض ابتكاراتهم العلمية والصناعية وأبدى إعجابه به، وتمنى أن تكون لبلاده مثل هذه النهضة.

وكان يداوم على الذهاب إلى المجمع العلمى المصرى، حيث يستمع إلى ما يُلقى فيه من محاضرات، ويطلع فى مكتبته على ألوان مختلفة من العلوم والآداب والفنون العصرية.

إضـــافة إلى كـــثرة أسفاره، فقد أخذ نفسه بالسياحة فى الأقطار الإسلامية من الشام وغيرهـــا، فلقى كثيراً من العلماء فى تلك السياحة، ونقَّب فيها عن كثير من كتب المتقدمين التى أهملها علماء عصره، فاستفاد كثيراً من سياحته، وارتفع بها عن أهل الأزهر بعد أن عاد إليهم. وكان يؤمن بأهمية الإطلاع والنظر فى كتب غير أهل الإسلام.

فى حاشيته على شرح جمع الجوامع فى أصول الفقه، يستطرد فى بعض المواضع إلى لوم أهـــل الأزهر على إعراضهم عن كتب المتقدمين فيقول: «إن من تأمل فى علمائنا السابقين يجـــد أنهـــم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية، لهم إطلاع عظيم على غيرها من العلـــوم، والكتـــب التى أُلِّفَتْ فيها، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع. وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية، ثم هم مع ذلك ما أخلُّوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار، ولطائف المحاضرات، ومن نظر فى ذلك وفيما انتهى إليه الحال فى زمن وقعنا فيه، علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عندنا».

القـــرب مـــن الـــوالى:

وعـــندما تولى «محمد على باشا» عرش مصر، قرب إليه الشيخ «حسن العطار»، الذى تأثـــر بمـــا كان يبذله من تلك الجهود الجبارة فى النهوض بمصر فى العلم والصناعة والزراعة والـــتجارة. وكـــان الشـــيخ أثـــيراً ومقرباً من الوالى الجديد الذى كان يقدر حبه للعلوم والمعـــارف، ويقدر له مكانته بين علماء الأزهر، فقد كان يجمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربـــية، ويجيد عدة لغات منها التركية والفرنسية والألبانية. إضافة إلى كونه شاعراً مجيداً وكاتباً عميقاً، وكان يدعو إلى إدخال العلوم الحديثة وجلاء التراث العربى وتنقيته مما لحق به من عوامل التخلف. لكل هذه الأسباب اختاره «محمد على» ليتولى منصب مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م).

وأثـــناء تولـــيه مشيخة الأزهر كان يُحزن نفسه غفلة أهل الأزهر عن الأخذ بأسباب الـــنهوض، وركودهـــم عن مسايرة ركب الإصلاح، فكان يرى الدنيا تسير بجوارهم وهم ساكنون، ويرى الأحوال تتغير فى مصر وهم لا يتغيرون.

وكـــان شـــعار الشيخ العطار «أن بلادنا يجب أن تتغير أحوالها وتتجدد بها المعارف» وانطلاقـــاً من هذا الشعار وجه تلميذه «رفاعة الطهطاوى» عندما كان مسافراً على البعثة العلمـــية الـــتى أرسلها محمد على إلى فرنسا، لتسجيل كل ما تقع عليه عينه فى فرنسا، وأن يســـتجلب معـــه كل ما تقع عليه يده من دفاتر وكتب، وهو الذى شجعه على الترجمة، وتأسيس مدرسة الألسن».

وقـــد اهتم «الشيخ العطار» اهتماماً كبيراً بعلم الجغرافية واهتم بالخرائط، واستفاد من خـــبرة علماء الحملة الفرنسية، وانكب على عيون الكتب المهجورة وبسطها لطلابه، وبدأ أول خطوة فى فن الفهرسة؛ بحيث يعود الطلاب إلى المراجع القديمة بسهولة.

الاهتـــمام بالعلـــوم:

وكان الشيخ موفور النشاط دائب الحركة، يدرس ويصنف المؤلفات، ويشرح الكتب، ودفـــع طلابه إلى الخروج عن التراكيب اللغوية العقيمة، وتحرير الكتابة من قيود الصنعة التى شاعت فى عصور الانحطاط.

ورغـــم مـــيل «محمد على» إلى الطغيان والاستبداد، إلا أنه كان يجلُ «الشيخ العطار» ويستشـــيره، وأطلـــق يده فى النهضة العلمية، ففتح الأبواب للعلوم الحديثة، وأشرف على إنشاء المدارس المتعددة. وكان توليه منصب مشيخة الأزهر، إيذانا بتصاعد قوة تيار التقدم والـــتطور المســـتمر فى مواجهة قوى الجمود والتخلف فى الحياة العامة المصرية، وإن كان الـــبعض يقـــول أن «الشيخ العطار» كان بإمكانه أن يحدث ثورة فكرية ضخمة، ولكنه لم يكـــن على شجاعة الحاكم «محمد على» الذى شمر عن ساعده عندما أدرك حاجة مصر إلى الإصـــلاح، وأخـــذ يعمل فيه بكل حزم وعزم. فى الوقت الذى وقف فيه «الشيخ حسن العطـــار» من إصلاح الأزهر موقفاً ضعيفاً، واكتفى بذلك الصوت الخافت الذى أرسله فى مواضـــع يصعب العثور عليها من حاشيته على شرح جمع الجوامع، وأنه كان يجب عليه أن يجهر بهذا الصوت بين جنبات الأزهر.

رائـــد نهضـــة:

ولكن هذا الرأى لا يقلل أبداً من جهد هذا الشيخ الذى مهد الطريق إلى نهضة فكرية جديـــدة، فمن عباءة هذا الرائد العظيم خرج الطهطاوى، ليحدث ثورته الفكرية من خلال

كتابى «تخليص الابريز» و«مناهج الألباب» ودوره فى إرساء معالم مدرسة الفكر الحديث من أجل العلم والديمقراطية وسيادة العقل.

كمـــا أنـــه كان مجدداً فى الشعر العربى، وفتح الطريق أمام شعراء النهضة كالبارودى وشوقى وحافظ*.

وقـــد عُرف الشيخ حسن العطار بمؤلفاته الكثيرة، كما عُرف بأسلوبه الأدبى وعباراته الإنشـــائية الأنيقة، وله أشعار رقيقة، أما ميله إلى الطب والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية، فيدل عليه كتبه ورسائله فى كيفية عمل الإسطرلاب، والطب والتشريح، وأشكال التأسيس فى علم الهندسة، بالإضافة إلى إتقانه رسم المزاول الليلية والنهارية بيديه.

وظـــل الشيخ حسن العطار على ما كان عليه من نشاط وجمع بين التدريس بالأزهر ومهام المشيخة إلى أن توفى سنة ١٨٣٥م (١٢٥٠هـ).

ثـــروة علميـــة:

وقد ترك فضيلة الإمام الشيخ حسن العطار ثروة علمية كبيرة تربو عن العشرين مصنفاً مـــنها: حاشـــية العطـــار على الجواهر المنتظمات فى عقود المقولات، حاشية العطار على التهذيب للإمام الخضيبى، حاشية العطار على شرح نموذجى فى المنطق، حاشية العطار على شـــرح العصـــام عـــلى الرسالة، حاشية العطار على كتاب نيل العادات فى علم المقولات، حاشية العطار على جمع الجوامع فى أصول الفقه، رسالة فى علم الكلام، حاشية العطار على كـــتاب «موصـــل الطـــلاب إلى قواعد الإعراب»، حاشية على شرح الأجرودية، منظومة العطـــار فى علم النحو، إنشاء العطار فى المراسلات، رسالة فى كيفية العمل بالإسطرلاب، نبذة فى علم الجراحة، مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، شرح كتاب الكامل للمبرد. كما ترك ديوان شعرى يحتوى على مئات القصائد.

وهكـــذا جمع الشيخ العطار بين علوم الدين والدنيا، وكان بحق رائد من رواد نهضتنا الفكـــرية، ومن الممهدين الطريق لعصر جديد من العلم والفكر. وفتح باب الأمل فى عودة الروح إلى الشعب المصرى الذى حاولوا تغييبه وراء ستائر الظلام والتخلف.

---

* صلاح عبد الصبور، قصة الضمير المصري الحديث، كتاب الإذاعة والتليفزيون، ١٩٧٢، ص٢٠.

رفاعة الطهطاوى

(١٨٠١- ١٨٧٣م)

الأزهرى الثائر

تقاس عظمة الرجال بقدر ما يحدثونه من تحولات في ظروف وتاريخ مجتمعاتهم. وهذا ما فعله رائد عصر التنوير، الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» الذى حرك مياه الفكر المصرى والعربى الراكدة، وأخرجها من أسر التقليد والتسجيل، إلى رحابة الحركة والتحديث والتفكير في الغد.

عاش «الطهطاوى» [٧٢ عاماً]، أنار خلالها ظلام خمسمائة عام سبقته، ومهد بأفكاره لنهضة علمية وفكرية، وأسس مدرسة تنويرية أمدت الأمة بمفكرين وثوار ومصلحين عظام.

ولد «رفاعه» عام ١٨٠١م، وهو العام الذى خرجت فيه فلول الحملة الفرنسية من مصر، وكان مولده في «طهطا» إحدى مدن صعيد مصر الصغيرة في محافظة سوهاج.

من طهطا إلى الأزهر:

تلقى «رفاعة الطهطاوى»، علومه الأولى في بلدته «طهطا»، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وحفظ القرآن الكريم، ثم جاء إلى القاهرة، بعد وفاة والده، للدراسة في الأزهر، وباعت والدته بعض حليها وعقارها لتوفر لابنها نفقات دراسته، التي استمرت خمس سنوات، من عام ١٨١٧ إلى ١٨٢٤م. وفي القاهرة يركز رفاعة كل جهده لتحصيل العلم، علي أيدى مشايخ الأزهر، وفي مقدمتهم الشيخ حسن العطار، الذى أعجب بهذا التلميذ النجيب، فقربه منه، واستقبله في بيته، وشجعه علي محاولة اكتساب المعارف العصرية، التي كان الشيخ العطار مولعاً بها.

وكان رفاعة، بعد أن أتم تعليمه الأزهرى في سن الحادية والعشرين، أصغر وأنبغ من عهد إليهم بالتدريس في تلك الجامعة العريقة.

وعندما فكر «محمد على»، حاكم مصر في ذلك الوقت، في تأصيل الجانب الدينى عند جنود الجيش المصرى، عين في الجيش مجموعة من الوعاظ، كان منهم «رفاعة الطهطاوى».

إمام البعثة:

كان «رفاعة» في الخامسة والعشرين من عمره، سنة ١٨٢٦م، عندما خاض محمد على، غمار فكرة ثورية، تمثل نقلة حضارية كبيرة في تاريخ مصر والشرق العربى، بقراره إرسال بعض الشباب إلى باريس ليتلقوا العلم هناك، ثم يعودوا لتنتفع بهم بلادهم.

وأراد أن يختار للبعثة إماماً وواعظاً، وطلب من الشيخ «حسن العطار» أن يرشح له أحد علماء الأزهر، فاختار العطار تلميذه «رفاعة» وأوصاه أن يسجل ما يراه في هذه الرحلة في كتاب.

كانـــت مهمة «رفاعة» أن يؤدى بأعضاء البعثة شرائع الدين، و لم يكن مطلوباً منه أن يـــدرس أو يتعـــلم، وكان من أفراد هذه البعثة بعض النابهين من الشباب المصريين، بينهم: محمد أفندى بيومى من دهشور، وأحمد دقلة بك، من بسيون غربية، وأحمد طائل أفندى من بلتان قليوبية مركز طوخ، ومحمد علي البقلى بك من زاوية البقلى في المنوفية، وإبراهيم بك النبراوى من نبروة - دقهلية، وحماد عبد العاطى بك من أبو تيج، وعبد الله بك السيد، من الفيوم، وآخرون.

مـــع البعثـــة:

أبحـــر «رفاعـــة»مـــع البعـــثة إلى بـــاريس، وركب السفينة الحربية «لاترويت» من الإسكندرية، ومن ذلك الحين أصابته دهشة متواصلة مدة ست سنوات، هى سنوات رحلته وإقامـــته في فرنســـا، وسجل يوميات دهشته في كتابه العظيم «تخليص الإبريز في تخليص باريز»*.

كـــان عليه أن يثبت الدور الحقيقي للتدين والدين في حياة المسلم، وأن يبذل لذلك، جهـــداً فـــوق العادة، فهو لم يكتف أن يكون واعظاً وإماماً للبعثة، وإنما أظهر إرادة قوية ليشبع شوقه إلى العلم، وليكون جديراً بثقة الشيخ العطار به.

لم يكـــن مجـــرد رجل جاء ليؤم طلاب البعثة في الصلاة، وإنما تحول إلى إمام لتحصيل العلم والمعـــرفة، وكان يقضى وقته متنقلاً بين غرفة الدرس والمحاضرات ينهل من العلوم كلها، ويتقن الفرنسية، ويتبحر في آدابها وفنونها، وكل ما أبدعه الفرنسيون في شتى المجالات.

عاش «رفاعة» في باريس، مفتوح العينين، ومفتوح القلب والعقل والوجدان أيضا، و لم يقنع بـــأن تحمله قدماه إلى مسارحها ومقاهيها وحدائقها وطرقاها، بل حمله طموحه إلى لب ثقافتها وعـــلمها وفكرها. وتنقل بين العلوم التطبيقية والإنسانية، وتأثر بأفكار مونتسكيو وفولتير وجان جاك روسو، الثلاثة الذين شغلوا الناس في القرن الثامن عشر، «عصر العقل الأوروبي».

واســـتوعب الطهطاوى نظرية «سيادة القانون» التى جاء بها مونتسكيو، ودعت إلى أن يكون لكل أمة دستور يعطى لكل ذى حق حقه، ويفصل في ما قد ينشب بين الأمة وحكامها من نزاع، ويقوم علي مبدأ الفصل بين السلطات. وآمن بما نادى به فولتير، بأنه لا حجة ولا حكم إلا للعقل، وألا تخضع إرادتنا وتصرفاتنا إلى الأفكار الجاهزة أو التقاليد المسيطرة.

وأدرك أهمـــية نظـــرية «العقد الاجتماعي» التى أتى بها جان جاك روسو. علي أن يرعى الحكام مصالح المحكومين، لكي ينهض المجتمع ويتقدم ركب الحياة البشرية.

---

*صلاح عبد الصبور، «قصة الضمير المصرى الحديث»، كتاب الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، ١٩٧٢، ص٢٧.

أكـــثر مـــن مهمـــة:

عـــاد «رفاعة» سنة ١٨٣١م إلى وطنه مصر بعد تلك السنوات الست، من الدهشة، والتعليم، وإعمال الفكر، متنقلاً بين الجغرافيا والتاريخ والفلك والهندسة وغيرها من العلوم الحديثة، والأفكار الثورية الإصلاحية، ليعيد صياغة أشياء كثيرة، وليغير مسار تاريخ أمته.

وظـــل في حـــركة دائبة، حتى وفاته عام ١٨٧٣م، و لم يهدأ طوال أربعين عاماً. و لم يكتف بنجاح حققه، بل كانت إرادته تدفعه ليتبع النجاح بالنجاح.

وبلـــغ محمد علي ما أظهره «رفاعة»، من النباهة والرغبة في العلم من تلقاء نفسه، فسر به ســـروراً عظـــيماً، واستبشر بطالعه، وما أن عاد إلى أرض الوطن حتى ولاه مسؤولية الترجمة في المدرســـة الطبية التي كان أنشأها سنة ١٨٢٦م في قرية «أبي زعبل» قرب القاهرة برئاسة كلوت بك الفرنساوى، وبمساعى «الطهطاوى» وبمساعدته تم إنشاء أول جريدة عربية في المشرق، وهي جريدة «الوقائع المصرية»، التي مازالت تصدر منذ سنة ١٨٣٢م، وانتقل سنة ١٨٣٢م من المدرسة الطبـــية في أبي زعـــبل إلى مدرسة الطوبجية «المدفعية» في طره، لترجمة الكتب الهندسية والفنون العســـكرية، وعندما افتتح «محمد علي» مدرسة الألسن الأجنبية سنة ١٨٣٥م، عهد بإدارتها إلى «رفاعـــة الطهطاوى»، وكانت تدعى عند فتحها «مدرسة الترجمة»، وأدار الشيخ رفاعة المدرسة باقتدار، واختار لها تلاميذ من سائر جهات القطر المصرى، ثم عُهد إليه بعد ذلك بإدارة المدرسة التجهـــيزية للطـــب في الأزبكية مع مدرسة الألسن، ومدارس أخرى فرعية، منها مدرسة للفقه والشريعة، وأخرى للمحاسبة، وأخرى للإدارة والأحكام الإفرنجية.

وتألف «قلم الترجمة» سنة ١٨٤٢م، من أول فرقة تخرجت في مدرسة الألسن، برئاسة رفاعة، وبعد سنة ونصف السنة، نال الطهطاوى رتبة قائم مقام، ثم أميرالاى، فصار يدعى «رفاعـــة بـــك»، وكان رفاعة مازال ناظراً لمدرسة الألسن، حتى أغلقت في عهد الخديوى عـــباس الأول، الـــذى أمر بإرساله إلى السودان لنظارة مدرسة الخرطوم، وعاد رفاعة إلى القاهرة بعد موت الخديوى عباس، وتولى وكالة مدرسة الحربية، ثم أصبح ناظرها مع نظارة قـــلم الترجمة، وتولى إدارة جريدة «روضة المدارس»، مع مثابرته علي التأليف. وظل قائما بهذه المهام حتى توفاه الله سنة ١٨٧٣م — ١٢٩٠هـ*.

تعليم المـــرأة:

كـــان «الطهطـــاوى» رائداً في ميدان التعليم عامة، واهتم بصفة خاصة بتعليم وتربية المـــرأة، حيـــث دعا إلى إعادة النظر في كل القيم التقليدية بالنسبة إلى المرأة، وبشر بالحرية والمساواة والإخاء بين الجنسين كوسيلة لتقدم الوطن، ووضع الأساس القوى لتحرير المرأة،

*جرجى زيدان، «بناة النهضة العربية»، دار الهلال، القاهرة، ص١٢٨.

وحقها في العلم والعمل، وسبق لذلك دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة، بخمسين عاماً، **فقد كان صاحب أول دعوة لتعليم وتربية البنات، وفتح أول مدرسة نسائية، وهى «المدرسة السنية»، ودعا إلى وجوب السماح للمرأة بالعمل، وتحصيل العلم، وكان ذلك موضوع كتابه المهم «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين». وفى ميدان حقوق المرأة، كان الطهطاوى، صاحب رؤية متقدمة على زمانه، فهو أول رجل يتعهد في وثيقة زواجه من كريمة الأنصارى، بأنه لن يتزوج عليها بامرأة أخرى.**

الديمقراطي الشورى:

كان رفاعة، إماماً للتجديد، وحاول في كل كتبه أن يحث المسلمين ويدفعهم إلى البحث في العلوم العصرية، وأن يتعلموا الفنون والصنائع المختلفة، التى سبقنا إليها العالم المتقدم، ولا يعنى هذا أنه تخلى عن قيمه ومبادئه، والاهتمام بعلوم الدين.

فقد كان يرى أن هناك نوعين من العلوم: علوم «جوانيه» تعنى بالروح الإنسانية، كعلوم الدين والفقه، وعلوم «برانية»، وهى العلوم التى لم تكن تعرفها مصر في ذلك الوقت، وهى علوم تعنى بتجربة الإنسان، وحياته على الأرض، وتيسر له أموره ومسعاه، وتنظم له مسيرته وخطاه، وهى علوم الهندسة والكيمياء والمساحة والطب والفلك والصيدلة، وهى ما حاول رفاعة، الثائر، أزهرى النشأة، أن يستنبتها في تربة مصر.

كان رفاعة الطهطاوى، ديمقراطي التفكير، مؤمناً بأن وظيفة الحاكم هى العمل لمصلحة الشعب، وكان جريئاً في طرح أفكاره، التى تدعو إلى أن يكون هناك دستور ينظم علاقة الأمة بحكامها، وهو أول من أرسى فكرة الوطن والوطنية خلال حياته العلمية والتعليمية.

أشاد رفاعة بالحرية التى يعيش في ظلها الفرنسيون، وبرر تمتعهم بها، بأن في بلادهم قانوناً مكتوباً يوضح حق الحاكم والمحكوم، ويتراضى عليه الفريقان، وهو الدستور.

وقد بلغ من ولع رفاعة بهذا الدستور، أن ترجم فصوله الرئيسية كاملة في كتابه «تخليص الأبريز في تلخيص باريز». ولم يكتف بذلك، بل عرض للمعارك التى دارت في فرنسا، من أجل الدستور وتعديله، مشيراً إلى ثلاثة أنواع متصارعة من الحكم هي: الملكية المطلقة، والملكية المقيدة، والجمهورية «التى ترد لأول مرة بهذا المعنى في اللغة العربية».

وأشار الطهطاوى إلى قول جان جاك روسو، «بأن الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة، ويجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم»، ووصلت به الاستنارة إلى القول: «إن شريعة الإسلام، التى عليها مدار الحكومة الإسلامية، تشمل الأنواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها».

أهـــم مؤلفات رفاعة الطهـــطاوى:

«تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، ويصور فيه رحلته إلى فرنسا.

«التعريفات الشافية لمريد الجغرافية».

«جغرافية ملطبرون».

«قلائد المفاخر في غريب عوائق الأوائل والأواخر».

«المرشد الأمين في تربية البنات والبنين».

«التحفة المكتبية في النحو».

«مواقع الأفلاك في أخبار تليماك».

«مناهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية».

«مختصر معاهد التنصيص».

«المذاهب الأربعة».

«شرح لامية العرب».

«القانون المدنى الإفرنجى».

«توفيق الجليل وتوثيق بنى إسماعيل».

«هندسة ساسير».

«نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز».

«جمال الأجرومية».

عبد القـــادر الجزائـــرى

(١٨٠٧ -١٨٨٣م)

الفقـــــيه المجـــاهد



كـــان ظلام القرنين التاسع عشر والعشرين، حالكا فى عالمنا العربي والإسلامي. ففى أولهما انحدرت الدولة العثمانية إلى أدنى درك، وتفتتت فى مطلع الثانى، ورزح العالمان العربى والإسلامى تحت نير الاستعمار الغربى.

وما «عبد القادر الجزائرى»، سوى نجم سطع ولمع وتالق فى سماء ذلك الزمن الحالك السواد.

وبيئتـــنا العربـــية غنـــية بالشخصيات الفذة التى طبعت عصرها، وكان لها تأيثرها فى معاصـــريها وفى الأجـــيال اللاحقـــة، بما قامت به من أعمال وما سجلته من مواقف، وما أسهمت به من منجزات، مما جعلها قبسات مضيئة فى ذاكرة الشعوب العربية والإسلامية، وحافـــزا مـــتجدداً لـــذوى النفوس الأبية الرافضة للاستعباد، وأصبحت مع تعاقب السنين نموذجـــا يقتدى به كل من يعمل لصالح وطنه وشعبه، ومن هذه الشخصيات رجل ارتبط اسمه بالجزائر، وهو يعرف بالجزائر والجزائر، المعاصرة تبدأ به، وتستمر من خلاله، هو الأمير البطل «عبد القادر الجزائرى».

حـــياة هـــذا الأمير بما تمثله من قيم هى تاريخ الجزائر المعاصرة، فبالأمير يبدأ العصر الحديث فى الجزائر، وبه يرتفع التاريخ ارتفاع الساق والأغصان والأوراق من الجذر.

لقـــد عـــبر الأمـــير «محمد عبد القادر» عن موقف الشعب الجزائرى الرافض للهيمنة الأجنبـــية، كمـــا اســـتجاب لتطلعاته فى إنشاء دولة حديثة فى إطار قيمة العربية ومبادئه الإسلامية، فكان بحق ابن بيئته البار، ونتاج ثقافته الأصيلة، ولسان عصره الصادق.

لم يســـع عبد القادر الجزائرى إلى الإمارة، بل هى التى سعت إليه، عندما بحثت الجزائر عن شخص يقودها وهى تواجه خطر محو هويتها وكيانها، فى هذه اللحظات الحاسمة يفتش الوطـــن عـــن الشخص الأمة الذى يستطيع أن يستوعب الأمة فى كيانه ويجسدها بأقواله وأفعالـــه، وكان الاختيار موفقاً، وحتى يُعطى الأمير الشرعية لاختيار وجهاء الوطن له أصر على البيعة الشرعية التقليدية، فكانت البيعة الخاصة ثم العامة. وهذا أول درس يعطيه الأمير لكـــل المتطلعين إلى السلطة فى وطننا العربى، فالسلطة هى اختيار شعبى بإرادة حرة وبإجماع وطنى، وليست كنـــزاً يستأثر به أصحاب الشوكة.

رمز المقاومة الوطنية:

ولم تغير السلطة شيئاً من نمط حياة الأمير، لم يغير الجاه والثروة والقوة من طبيعته ولم تفصـــله عـــن الإنسان العادى، ظل بين شعبه لا يفصله عنه أى فاصل، أى أنه تجاوز قرون الظلام وعاد إلى شفافية السلطة فى زمن الخلفاء الراشدين، حين لم يكن بإمكان أحد أن يميز الخليفة عن باقى أفراد الشعب.

وخلال خمسة عشر عاما تولى فيها الأمير السلطة لم يكن ينفرد بالقرارات المصيرية، بل كـــان يستشـــير العلماء ورؤساء القبائل، وأخذ فتاوى رجال الدين فى مواقفه، ليؤكد أن الحـــاكم لـــيس صـــاحب القرار الوحيد، وإنما القرار هو مسئولية الشعب من خلال ممثليه المعترف بهم.

وحـــين وجد الأمير أبواب المقاومة قد أُغلقت أمامه، ولم يعد قادرا على الوفاء بأمانة الســـلطة، وهى حمل راية الجهاد لإنقاذ الوطن، فضل بعد ان استشار رفاقه ان يتخلى عن الســـلطة ويستســـلم للعدو مرفوع الرأس، ولم يرض -كما رضى غيره- أن يحتفظ بمظاهر السلطة تحت حراب الأجنبي، فهو يرى أن السلطة أمانة ورسالة، وعندما يعجز عن تحملها، فـــإن التمســـك بها يصبح خيانة وتحويلا لها من التكليف إلى التشريف. وكانت هزيمته فى المعركة انتصاراً حقيقياً لشخصه، وتحويل اسمه إلى رمز خالد للمقاومة الوطنية.

ســـيرة حـــياة وجـــهاد:

عاش الأمير «عبد القادر» ثلاث مراحل متميزة بخصوصيتها وأحداثها ودلالاتها، الأولى قضـــاها فى طلـــب العلم، وتعرف فيها على أوضاع البلاد العربية من خلال رحلته لأداء فريضـــة الحج، وقضى الثانية فى الجهاد ومقاومة العدو، وكانت الثالثة مرحلة غربة، حيث عاش أسيراً فى فرنسا، ومجاهدا محتبسا فى بورصة بتركيا ثم دمشق.

وُلِدَ الأمير «عبد القادر» فى (١من رجب سنة ١٢٢٢هـ/ سبتمبر ١٨٠٧م) بمقر أسرته بالقيطـــنة، الواقعة على سفح جبل استانبول على الجانب الايسر لوادى الحمام، وعلى بعد حوالى ٢٠كيلومترا عن مدينة معسكر. وكان رابع إخوته.

ونشـــأ فى رعاية والده الأمير «محى الدين الحسينى» الذى يتصل نسبه بالإمام الحسين، وكـــان والده مقدم الطريقة القادرية وشيخ زاوية [القيطنة]، وتلقى تعليمه الأولى فى كُتاب الـــزاوية عـــن ابيه وبعض شيوخها، فأجاد حفظ القرآن، واستوعب مبادئ العلوم الدينية واللغويـــة، ثم ارتحل إلى (آرزيو) وهو فى الخامسة عشرة من العمر ليدرس على يد قاضيها الشـــيخ «أحمد بن الطاهر»، وانتقل منها إلى مدينة (وهران) لينتسب إلى مدرسة [أحمد بن خوجـــه] المخصصة لأبناء الأعيان، حيث أمضى فيها ما يقرب من سنة انكب خلالها على توسيع معارفه اللغوية ومعلوماته الفقهية، وصقل ملكاته الأدبية والشعرية.

واشـــتهر فى الســـابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية، حتى كان يُشار إليه بالبنان بين الفرسان، لمهارته فى ركوب الخيل.

وفى ســـنة (١٨٢٣م) زوجه والده من ابنة عمه «لالاخيرة»، وصحبه فى (نوفمبر سنة ١٨٢٥م)، إلى الديار الحجازية، لأداء فريضة الحج والزيارة، ومرا فى رحلتهما بالإسكندرية

وزارا القاهـــرة، فى عهد ((محمد على)) باشا الذى أكرمهما وحاشيتهما ثم واصلا رحلتهما إلى الحجـــاز عن طريق السويس، وعرجا بعد الحج على دمشق فأمضيا فيها زمناً، ثم سارا مـــنها إلى بغداد لزيارة مقام سيدى عبد القادر الكيلانى (مؤسس الطريقة القادرية)، وغادرا بغـــداد نحو دمشق ومنها الى المدينة المنورة ومكة لتأدية مناسك الحج والعمرة، ثم عادا إلى وطنهما فى أوائل سنة (١٨٢٨م).

وازداد ((عـــبد القـــادر)) بعد هذا السفر شغفاً بالعلم، فاعتزل لتحصيله، ولزم الخلوة، حيـــث عكـــف عـــلى مطالعة كتب العلم والفلسفة، ودرس رسائل أفلاطون وفيثاغورس وأرســـطاطاليس، وتعمـــق فى درس الفقـــه والحديث والجغرافيا والفلك والتاريخ، وكتب العقاقير.

مبـــايعة الأمـــير عبد القـــادر:

استولى الفرنسيون على الجزائر سنة ١٨٣٠م ووزعوا منشورات أعلنوا فيها امتلاكهم للـــبلاد، وإخـــراجها مـــن أيدي العثمانيين، ورغم مقاومة القبائل سيطر الفرنسيون بقيادة (برمونت) على جبال الأطلس ومدينة (وهران)، وكان من نتيجة الاحتلال الفرنسى لتلك الـــبلاد أن اختلت الأحوال فيها وسادت الفوضى، فاجتمع المرابطون ورؤساء القبائل، وفى مقدمـــتهم الأمير محى الدين، وتشاوروا فى الأمر، فاستقر الرأي على الانضمام إلى سلطان مراكش ((مولاى عبد الرحمن))، فدخلت الجزائر فى سلطانه، مما أدى إلى غضب الفرنسيين، وبعـــثوا إلى ســـلطان مـــراكش مهددين بالحرب إذا لم يسحب جنوده من الجزائر، فآثر الانسحاب.

واجـــتمع كبار الجزائريين إثر ذلك للتشاور فى الأمر، واستقر رأيهم على إقامة الأمير محـــيى الديـــن سلطانا على البلاد، وذهبوا إليه فى بلدته [القيطنة] حيث عرضوا عليه الأمر وأرادوا مبايعـــته، ولما أمسك عن الإجابة هددوا بقتله إن لم يقبل فاستجاب لرغبتهم، على أن تكون السلطة لولده عبد القادر، فقبلوا ذلك راضين مرضيين.

كـــان الأمير ((عبد القادر)) فى ذلك الوقت يحارب الفرنسيين فى حصن (فيليب) فبعثوا إلـــيه وبايعوه، وسنة إذ ذاك ٢٥ سنة، تمت له البيعة على الجهاد عند شجرة الدردارة بسهل غـــريس فى (رجب ١٢٤٨هـ/ ٢٧ من نوفمبر ١٨٣٢م) وحصلت له البيعة العامة بمعسكر فى (١٧ رمضـــان ١٢٤٨هـ/ ٤ فبراير ١٨٣٣م) وعلى إثر مبايعته قصد إلى المسجد الجامع

حيث صلى بالناس وخطب حاثا إياهم على الطاعة، والعمل بمقتضى الشرع الشريف، والاقتداء بالخلفاء الراشدين*.

وجمع كلمة القبائل، وضم بعضها إلى بعض لكى تقوى على مقاومة الفرنسيين وإخراجهم من البلاد. وخاض عدة وقائع فاز فيها عليهم، ولاسيما موقعة (وهران) التى انتصر فيها انتصارا كبيراً، فهابه الفرنسيون، وأخذوا يخشون بطشه منذ ذلك الحين. وعقد قائدهم «ديمشيل» معه معاهدة صلح سنة (١٨٣٤م).

كـرٌ .. وفـرٌ:

ولما هدأت الأحوال، تفرغ الأمير «عبد القادر» لإصلاح الشئون الداخلية فى بلاده، وواصل فى الوقت نفسه إعداد العدة لمواجهة الحرب، فأنشأ مصانع للأسلحة وصب المدافع وإنتاج البارود، ونظم الجيش مما أتاح له النصر فى عدة مواقع منها معركة المقطع فى (١٨ يونيو ١٨٣٥م) التى أرغم خلالها القوات الفرنسية على الرجوع إلى [وهران]. وبعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة هاجم الفرنسيون مدن الأمير عبد القادر الرئيسية فاستولوا على (مسعكر) ثم (تلمسان)، لكن ذلك كان دافعا ليواصل الأمير ضغطه على القوات الفرنسية وتكبيدها خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد، مما اضطر الفرنسيين للصلح معه، لما تأكدوا من بسالته وقوة احتماله، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة (التافنة) فى (٣٠ مايو ١٨٣٧م) التى تقضى بتبادلهما التمثيل القنصلى، وبألا يسلم الأمير أى ساحل من سواحل بلاده لدولة أجنبية إلا بعد مشاورة فرنسا.

اهتمام بالشئون الداخلية:

وجه الأمير عنايته بعد ذلك إلى إصلاح الشئون الداخلية لبلاده وبناء مؤسساتها، كما واصل الاستعداد العسكرى كعادته لمواجهة الطوارئ، وأنشأ مدينة تجارية سماها (تقدمة)، كما أنشأ كثيرا من المعاقل واستعان بقواد أوربيين لتنظيم جيشه، وأنشأ مصانع لإنتاج المدافع ومختلف الأسلحة فى تلمسان وغيرها، وعمل لاستخراج المعادن، وتنشيط الصناعة والزراعة والتجارة، ونشر التعليم بالإكثار من المدارس، واعتزم إنشاء جامعة كبيرة فى (تقدمة) تجمع بين العلوم الدينية الإسلامية والعلوم الحديثة، وضرب نقوداً فضية ونحاسية.

معارك وانتصارات:

---

*الدكتور ناصر الدين سعيدونى، «عصر الأمير عبد القادر الجزائرى»، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى، الكويت، ٢٠٠٠، ص٢٠٤.

وكـــان شـــديد التيقظ، دائم السهر على مصلحة بلاده، حريصاً على تفقدها بنفسه، ولكن الظروف لم تسمح باستقرار الأمن فى الجزائر، إذ طمع الفرنسيون بعد استيلائهم على (قســـنطينة) فى مد سلطانهم على المناطق المجاورة لها، برغم وقوعها فى حدود سلطة الامير بمقتضـــى معـــاهدة (التافنه)، وعبثاً حاول الأمير حمل حكومة باريس على احترام المعاهدة، فـــأخذ فى تحصـــين المناطق المختلف عليها والاستعداد للدفاع عنها، وعندما نشبت الحرب تمكن الأمير من دحر القوات الفرنسية وطردها إلى السواحل.

وعُظـــم الأمـــر على الحكومة الفرنسية، وأرسلت إلى قواتها المندحرة فى الجزائر نجدة كـــبيرة، فاستأنفت الهجوم على الأمير ورجاله، ودارت بين الفريقين معركة شديدة بالقرب مـــن جـــبال الأطلس، فتغلب الفرنسيون أول الأمر، لكن الأمير سرعان ما تدارك الموقف، وأعـــاد تنظـــيم رجالـــه ثم كـــرَّ على القوات الفرنسية، فما لبث أن هزمها واضطرها إلى الانسحاب.

وتوالت المعارك بعد ذلك طيلة ست سنوات، واضطرت فرنسا فى نهايتها إلى تغيير قائد قواتهـــا فى الجزائـــر بقائدها القديم الجنرال (بوجيه)، وبعثت معه بإمدادات كثيرة من الجند والأسلحة، ولكنه لم يثبت فى هذه المرة أيضا أمام الأمير المغوار.

ولمـــا رأى الأمـــير أن الـــبلاد أصبحت كلها ميدانا للحرب، أنشأ مدينة متنقلة سماها (الزمالة)، وهى مؤلفة من خيام تُقام على نظام شوارع المدن وتتبع الجيش فى حله وترحاله، حيـــث يعمل فيها الصناع، ويُحتفظ بالأسرى ويلجأ إليها المتعبون من الجند، كما يقيم بها النســـاء والأطفـــال، وتعد الأسلحة للجنود العاملين. وقد انتفع الأمير بهذا النظام إلى حد كـــبير، حمل الفرنسيين على توجيه الجانب الأكبر من نشاطهم إلى حرمانه من تلك المدينة واســـتطاعوا الوصـــول إليها بواسطة بعض الخونة فأحرقوها، كما أحرقوا قبل ذلك مدينة (تقدمـــة) ونهبوا يوم ١٦ مارس ١٨٨٣م ما كان فى (الزمالة) من مؤن ومعدات، كما قتلوا عدداً كبيراً ممن كانوا بها.

حـــرب العصـــابات:

ولم يحقـــق الفرنسيون النصر النهائى على الجزائريين باستيلائهم على العاصمة المتنقلة (الـــزمالة)، وهذا ما أكده الأمير «عبد القادر» بنفسه فى رسالته إلى المارشال بيجو بقوله: «إن الضـــرر الذى اعتقدت أنك ألحقته بنا لم يكن سوى بمثابة أخذ كأس ماء من بحر، وإن عملكم لا يتجاوز الأثر الذى يتركه الطائر عندما يلامس بجناحيه موجة من أمواج البحر».

واضـــطر بعـــد سقوط عاصمته المتنقلة (الزمالة) وتناقص عدد جيشه إلى ألفى فارس وعشـــرة آلاف من المشاة، إلى اتباع أسلوب الكر والفر، فكان يتنقل سريعا من مكان إلى

آخـــر، ويباغت العدو على حين غرة، ثم يتراجع بعيداً، فأرسى بذلك اول تجربة كبرى فى حــــرب العصــــابات فى الـــتاريخ الجزائرى المعاصر، واجه أثناءها مطاردة ثمانى عشرة فرقة عسكرية فرنسية طوال خريف وشتاء عامى (١٨٤٥ و ١٨٤٦م)، كما فُرض عليه الانتقال عـــلى ظهـــر جواده وبصحبة فرسانه آلاف الكيلومترات، تجول فيها من بلاد القبائل إلى جهات الريف بالمغرب الأقصى، ومن نواحى تلمسان إلى تخوم الصحراء بالعقيق والأغواط.

ومـــع استمرار الضغط الفرنسى عليه، طلب الأمير «عبد القادر» من أسرته التوجه إلى المغـــرب الأقصى، وكان يأمل ان يقف السلطان المغربى إلى جانبه فلم ينجده، فى حين تلقى الفرنســـيون نجدات كبيرة وتمكنوا من حمل سلطان مراكش على معاونتهم ضده. لكن هذا كلـــه لم يـــثن عزمه عن مواصلة الجهاد، فظل يقاتل بشجاعة فى مختلف ميادين القتال التى شملت الجزائر كلها، حتى نهاية (سنة ١٨٤٦م).

وحاول الأمير أن يثنى سلطان مراكش عن محاربته مذكرا إياه بصداقتهما القديمة، وبما بـــين بلديهما من علاقات وروابط دينية ولغوية وتاريخية، ولكنه لم يستجب له وخيره بين التسليم، أو الرحيل إلى برارى الجزائر.

وعـــندما توجهـــت القـــوات المغربـــية لمحاصرته بنواحى ملوية، دخل معها فى ثلاثة اشـــتباكات دامـــية نواحـــى قلعـــة ســـلوان فى شهر [محرم ١٢٦٤هـ/ ديسمبر ١٨٤٧]. وعندماصمم المغاربةعلى مواجهته والقضاء عليه تنفيذا لمعاهدتهم مع الفرنسيين «لا لا مغنية» (١٨مارس ١٨٤٥). عقد الأمير آخر اجتماع لمستشاريه.

حكمة قرار التسليم:

جمع الأمير «عبد القادر» رجاله على ظهور الخيل وفى ظلمة الليل حتى لا يفطن إليهم المغاربـــة او ينتبه لأمرهم الفرنسيون الذين كانوا يراقبون تحركاتهم من بعيد. وخطب فيهم مصـــرحاً بحقيقة الخطر المزدوج المحيق بهم، قال فى صوت كله إيمان وصبر: «لم نجد مستنداً نستند إليه إلا الله.. وصرنا نتأمل ونتيقن بعد المشورة أن المصير إلى جند الفرنسيين أولى إلى الـــتولى للمغاربة، لأنهم لا عقد عندهم ولا قانون يضبطون به أحوالهم مع أصدقائهم أو مع عدوهم، الفرنسيون يعرفون قدر الرجال الأبطال، فيعطونهم قدرهم من التعظيم والحرمة ولو كانوا أعداء، فالميل إليهم أولى وأفضل من هؤلاء المتبدين (البدو) الذين لا يعرفون قدراً ولا يفرقون بين سليم وسقيم، ولقد وفيتم بما بايعتمونى عليه، وبذلتم جهدكم فى معاضدتى. أما وحالتنا الآن تقتضى التسليم، فأرى أن التسليم للفرنسيين خير لنا من التسليم للمراكشيين، والرأى لكم فى الحالين»، فآجابوا بأنهم على رأيه.

وحُـــددت ليلة ٢١ ديسمبر سنة (١٨٤٧) للتوقيع على شروط التسليم، وفى مقدمتها أن يغادر الأمير وحاشيته البلاد إلى الإسكندرية أو مدينة بورصة التركية للإقامة بها، وكانت ليلة ممطرة، شديدة العواصف، فأناب الأمير رجلين من خاصته وحملهما خاتمة للتوقيع على الشـــروط فى معسكر الفرنسيين، وما أن علم القائد الفرنسى برغبة الأمير فى التسليم طبقا لهـــذه الشـــروط حـــتى وافق فوراً. ولما ذهب الأمير بعد ذلك إلى المعسكر الفرنسى قوبل بالتكريم والاحترام .

ولم يكن توقف الأمير «عبد القادر» والمجاهدين معه عن مقاومة العدو صادراً عن خوف أو تخاذل أو تخل عن أداء الواجب، وإنما كان بفعل تفوق العدو عدة وعدداً، وعداء الصديق وتخاذل الحليف، وتحول الأهل والقريب.

بداية رحلة الاغتراب:

وأبحـــر الأمير فى ٢٥ من ديسمبر، ومعه حاشيته البالغة ثمانون فرداً على سفينة حربية، أقلـــتهم إلى طولون، حيث قوبل الأمير بترحاب، وعرض عليه أن يقيم بفرنسا ضيفا مكرماً على حكومتها هو ومن معه، ولكنه لم يقبل، وأثناء ذلك وقع الإنقلاب فى فرنسا وتحولت من ملكية إلى جمهورية، فطال الأخذ والرد بين الأمير والمسئولين الفرنسيين الجدد، ثم وافقوا عـــلى مغادرتـــه فرنسا إلى حيث شاء، على أن يتعهد هو ورجاله كتابة بعدم رجوعهم إلى الجزائر، وكتب هذا العهد فى مارس (١٨٤٨م).

وكان الأمير يستعد للرحيل هو ورجاله عندما صدرت الأوامر من الجمهورية الفرنسية الجديـــدة باعتباره أسيراً، ثم زج به وبرجاله إلى السجن فى «أبيس»، فلبثوا فيه حتى أكتوبر (ســـنة ١٨٥٢)، حيـــث عكف الأمير على الكتابة والتأليف. وبعد أن زاره «نابليون» في معـــتقله ببضعة أيام، صدرت الأوامر بإطلاق سراح الأمير «عبد القادر» ورجاله، وأقام له «نابلـــيون» مأدبـــة كبيرة في قصره، وأهدى إليه جواداً عربياً أصيلا، وفي ٢١من ديسمبر (١٨٥٢م)، غـــادر الأمير فرنسا مودعا باحتفال كبير قاصداً مدينة بورصة في تركيا للإقامة بهـــا حتى سنة (١٨٥٥م)، حيث انتقل في هذا العام للإقامة بدمشق، حيث قوبل بترحيب شـــعبى كـــبير، وأقام فيها بمبنى يدعى «العمارة» حيث تفرغ للقراءة ومراجعة كتب الفقه والتصـــوف والتفسير والحديث، مقسماً وقته بين العبادة والمطالعة والتأليف ومجالسه العلماء والفضلاء.

موقف إنساني نبيل:

ومـــن المواقف الإنسانية المشرفة للأمير في أثناء إقامته بدمشق، حمايته للمسيحيين عمد مـــا اشتعلت الفتنة الطائفية ضدهم في لبنان عامة ودمشق خاصة سنة (١٨٥٦م)، لم يتردد

الأمير في حماية أهل الذمة حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ففتح مقر إقامته وإقامة أتباعه لاستقبال النصارى المهددين في حياتهم، ويرجع إليه الفضل في إنقاذ حوالي ١٥ ألفاً منهم، وفي أثناء ذلك تصدى للفتنة، وذهب به إقدامه إلى حد التوجه سراً إلى زحلة حيث التقى بقائد الجند الفرنسي الذي نزل جبل لبنان، وأقنعه بالعودة إلى قواعده وعدم التقدم إلى دمشق ريثما تحل الدولة العثمانية مشاكلها الداخلية بنفسها. فحال دون حدوث مذبحة كبيرة في دمشق، وكانت وساطته خيراً للجميع.

كان موقف الأمير «عبد القادر» هذا مثار تقدير السلطان العثماني، وإكبار وإجلال ملوك أوروبا وحكوماتها، فمنحه العديد من ملوك ورؤساء الدول الأوسمة والنياشين، إعترافا بموقفه الإنساني النبيل.

كان الأمير مدة إقامته بدمشق يميل إلى التأمل والدراسة والذكر، وكان من حين إلى آخر يشد الرحال للقيام بزيارة أو سفر، حيث زار بيت المقدس والخليل، (١٨٥٧م)، وسافر إلى حمص وحماة (١٨٦٠م)، ثم سافر إلى الإسكندرية (١٨٦٢م) ومنها إلى السويس، ثم جده، وأدى مناسك الحج وزار الطائف والمدينة، وقضى هناك سنة ونصفا في العبادة والذكر والتأمل، وفي ربيع سنة (١٨٦٥م) توجه إلى استانبول للتوسط لدى السلطان عبد العزيز للتخفيف عن المتورطين بالفتنة الطائفية بالشام، ثم سافر إلى باريس ولندن.

أصبح الأمير «عبد القادر» شخصية عالمية تحظى بالتقدير والاحترام في كل مكان تحل به، وقد لقى كل حفارة وتكريم عندما دعاه خديوي مصر لحضور احتفال افتتاح قناة السويس سنة(١٨٦٩).

تفرغ الأمير بعد ذلك للعبادة وعمل الخير، والتأليف، والاطلاع، وعُرف بين الناس بعلمه وتقواه وورعه ومعيشته البسيطة، فعاش ما تبقى له من حياته بدمشق معظماً مكرماً من الجميع، حتى اعتبره الصوفيون من أهل الكشف وأنزلوه مترلة ابن عربي والنابلسي.

وفي منتصف ليلة السبت (١٩ من رجب ١٣٠٠هـ/ ٢٦ من مايو ١٨٨٣م) توفى الأمير «عبد القادر الجزائرى» عن عمر يناهز ستا وسبعين سنة، قضاها في العلم والعبادة والجهاد في سبيل الله والوطن.

أخلاق العالم وتصرفات البطل:

كان الأمير «عبد القادر» مربوع القامة، معتدل الجسم، أبيض اللون، أسود الشعر، كث اللحية، أقنى الأنف، أشهل العينين، أضبط، يستعمل بيساره ما يمكن أن يؤديه بيمينه، متواضعاً متئداً في مشيته، جهورى الصوت، قوى اللهجة، أجش النغم، وهو مع ذلك كان

يتصــف بالبشاشــة والــتأدب ولين الطبع، ويفضل الابتعاد عن مظاهر التكلف والفخامة والأبهة، ويميل إلى حياة التقشف والبداوة.

وقــد عُرف عنه أنه يكره الجشع والإسراف ويميل إلى التقشف ويقلل من الأكل، وقد يقــنع بشــئ من الحليب والسويق (الدقيق المطهى مع شئ من الماء والملح) وقد يكتفي في بعــض الأحيان بما يصطاده من طريدة، وهذا ما ساعده علي اعتدال مزاجه والمحافظة علي صــحته وقواه العقلية والجسمية إلى آخر عمره. أما لباسه فيقتصر علي قميصين أحدهما من القطن والآخر من الصوف، مع عمامة ولحاف من الوبر يغطى رأسه ويلف رقبته، وقد يضع عند الحاجة برنسا أبيض.

أما فيما يختص بسلوكه وتصرفاته، فقد جمع فيها بين أخلاق العالم، وتصرفات البطل، وسلوك زعيم الجماعة وشيخ الطريقة عن سجية، وفي تواضع وبدون تكلف كان متمسكاً بتقاليد أسرته، ودوداً لأهله، معروفا بطاعته لوالديه.

وتتمــيز نظرة الأمير «عبد القادر» إلى الحياة بتأثره بالعواطف النبيلة، فهو يقدر عاطفة الحب، كما يعجب بالطبيعة، وقد عبر عن كل ذلك في شعر رقيق جميل.

والجانــب اللافت للنظر في شخصية الأمير «عبد القادر»هو فروسيته وما يتصل بها من شــجاعة وإقــدام وحــنكة، فقد ولع الأمير منذ شـ - بركوب الخيل، ومارس منذ صغره الصــيد، فكان يقضى ساعات طوالا من يومه علي ظهر فرسه الذي كان أعز شيء عنده، ولم يكن يشغله عن هواية الفروسية سوى قراءة الكتب والإنزواء للعبادة والذكر.

ومــن الملامح المميزة لشخصيته تصوفه، وخاصة في دار هجرته، وإن كان قد تشربه مــنذ طفولته في زاوية أبيه باليقطنه، وتعمقت هذه النزعة في نفسه أثناء سجنه بفرنسا وبعد إقامته بالحجاز مدة سنة ونصف.

ســر عبقرية الأمــير:

لقــد كانــت حركة الأمير «عبد القادر» الجهادية ومحاولته بناء دولة حديثة استجابة موفقــة لــتجاوز العجز الذاتى الذى عاشه العرب والمسلمون لعدة قرون بعد أن تحطمت قدراتهم الذاتية. فالمحلل لمعطيات التاريخ الجهادى للأمير «عبد القادر» يرى أن هذه التجربة كانــت موفقة إلى أقصي حد، بالرغم من قصر مدتها، لأن الأمير استطاع أن يحقق تلاحم العوامل الدينية والثقافية والعسكرية في وضع التصور وتنفيذ القرار. جمع الأمير هذه الأبعاد الــثلاثة في سلوكه وثقافته وتصرفاته، حقق بذلك تكامل القوة العسكرية مع نظرة الإنسان المــثقف ومع الدافع الديني، فسر عبقرية الأمير عبد القادر يكمن في أنه استطاع أن يكون قــائداً عسكريا محنكاً قادراً علي جمع الكلمة، وفقيهاً عارفاً بأحكام الشرع وملتزما بتطبيق

الشـــريعة، وعالمـــا واســـع الفكر متسامحاً مع الآخر ومنفتحا علي واقع مجتمعه ومقتضيات عصره.

إن ملحمة الأمير «عبد القادر» الجهادية بالرغم من قصر مدتها الزمنية ونجاح الفرنسيين في وضع نهاية مأساوية لها، إلا أنها في مجال الذاكرة التاريخية للأجيال العربية كانت وستظل تجربة رائدة للإسهام العربي في صنع الأحداث وتغيير الواقع.

فقـــد جمعت بين مواجهة العدو وبناء الذات في آن واحد، ووافقت بين القيم الحضارية والأحكام الدينية، ومتطلبات المجتمع وحاجاته، بحيث يتكامل عمل الفقيه في المدينة مع نشاط المرابط في الريف، وتتلاحم مهمة موظف الإدارة في المدينة والجندى في ثكنته، مع طبيعة عمل المشتغل في الحرف والقائم علي فلاحه الأرض، وهذا أساس نجاح الأمم وسر تقدم الشعوب.

رب الســـيف والقـــلم:

لقـــد كان الأمير «عبد القادر» فارساً بالسيف والقلم، سطر بسيفه الأحداث الوطنية والمعارك العسكرية، وخط بقلمه الصفحات الفكرية والوقائع التاريخية.

تـــربى مـــنذ نعومـــة أظفاره علي الأدب العربي القديم وتأثر بشعرهم، وقال الشعر في أغراضه المختلفة من فخر وحماسة وعاطفة نبيلة، يعبر عن عاطفة المحبة والإخلاص التي يكنها لزوجته من خلال هذه الأبيات:

جفـــانى مـــن أم البـــنين خـــيالُ فقلـــبى جريح والدموع سجالُ
ومـــا هى إلا الروح، بل إن فقدتها فـــإن بقـــائى دونهـــا لمحـــالُ
فقولـــوا لها إن كنت ترضين عيشتى فجودى بطيف إن يعز وصـــالُ

كما قال شعراً في جمال الطبيعة وتأثيرها علي النفوس، وقال القصائد الكثيرة في وصف الأماكن التي زارها أو أقام بها، كما سجل معاركه مع الفرنسيين في أبيات شعر تنطق بطولة وفداء، ومن جميل شعره في الفروسية قوله:

فخيلـــنا دائما للحرب مسرجه مـــن استغاث بنا نبشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحـــداً وأى عيش لمن قد بات في خفر

وله العديد من القصائد في التصوف منها هذه الأبيات:

أنـــا حـــق، أنـــا خلـــقُ أنـــا رب، أنـــا عـــــبدُ
كـــل كـــون ذاك كـــونى أنـــا وحـــدى أنـــا فـــردُ
أنـــا الحب والمحبوب والحب جملة أنـــا العاشق المعشوق سراً وإعلاناً

وللأمير «عبد القادر» بعض المؤلفات في التصوف والعقيدة والأخلاق ومن مؤلفاته:

«المقراض الحاد لقطع لسان الطاعنين في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد».

«ذكرى العاقل في تنبيه الغافل».

«المواقف في التصوف» ويتضمن مقدمة وثلاثة أجزاء.

إضـــافة إلى ديوان شعر صدر فيما بعد بعنوان: ديوان الأمير عبد القادر شرح وتحقيق ممدوح حقى.

وعمومـــاً يمكـــن القـــول إن الأمير عبد القادر كان ابن الحضارة الإسلامية التي ظل إسهامها الفكرى ونزعتها الصوفية تتميز بالرقى الروحى والجسدى والعقلى.

عـــودة البـــطل:

بعد أن تحررت الجزائر من الاستعمار الفرنسي، وتحقق الأمل الذى ناضل وجاهد من أجله البطل الأمير «عبد القادر الجزائرى»، وباعتباره رمز للنضال وبطل الكفاح، ونظراً لأن ثورتـــه تعد تجربة تاريخية تؤكد استمرارية الدولة الجزائرية، بادرت حكومة الجزائر المستقلة سنة ١٩٦٦م إلى نقل رفاته، من دمشق إلى الجزائر، في جو من الاحتفالات الوطنية المدوية والمهرجانات الشعبية الصاخبة، ليعود المجاهد إلى الأرض التي شهدت جهاده وكفاحه لأكثر مـــن خمسة عشر عاماً، لترقد روحه في أمن وسلام في ثرى البلد الذي عاش ومات يناضل من أجله.

عشرة أولاد وست بنـــات:

تـــزوج الشيخ «محيي الدين الحسيني» من أربع نساء هن: وريدة ولدت له محمد العبد ومصـــطفي، والزهـــراء ولدت له عبد القادر «الأمير» وخديجة، وفاطمة ولدت له الحسين، وخيرة ولدت له المرتضي.

أمـــا الأمـــير «عبد القادر» فقد ارتبط في أول الأمر و «لا لا خيرة» التي أشار إليها في شـــعره بـــ (أم البنين) وعندما استقر بالشام كان له أربع زوجات، وكان مجمل أولاده من بـــنين وبـــنات ستة عشر، منهم عشرة ذكور، وهم: محمد، محيى الدين، الهاشمي، إبراهيم، أحمد، عبد الله، علي، عمر، عبد الملك وعبد الرازق، بالإضافة إلى ست إناث*.

* د. إسماعيل إبراهيم، «شخصيات صنعت التاريخ، فى البطولة والفداء والنهضة الفكرية»، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص١٢٦.

جمال الدين الأفغانى

(١٨٣٩ - ١٨٩٧م)

داعية توحد في وجه العدو



عـــندما طاف المصلح «جمال الدين الأفغاني»، عدداً من مناطق العالم الإسلامى، فى النصف الـــثانى مـــن القرن التاسع عشر، وجد فيها أحوالاً تثير الحزن والخوف، وتصعب علي كل ذى ضمير.

فقـــد كـــان المسلمون والعرب نهباً للاستعمار وغارقين في الجهل والتخلف والفقر. وكتب الأفغاني في وصف دائهم والدواء اللازم، ما يكشف عن عبقرية متميزة.

ولم تســتجب دعوة الأفغاني، وكأننا مازلنا اليوم كما كنا في زمنه، مع إضافة صفة جديدة إلى أوضاعنا، وهى تهمة «الإرهاب» وشراسة تكالب الآخرين علينا.

وفي وســط هــذا الــنفق المظلم الذى تسير فيه الأمة العربية والإسلامية، وتلك الأوضاع المأســاوية الــتى جعلت الأعداء ينقضون عليها من كل صوب، ويتداعون عليها يقتلون الأبرياء المدافعين عن حقوقهم في فلسطين، ويحاصرون الأطفال والنساء في العراق، ويرفعون عصا التهديد في وجـــه كل من يحاول الذود عن الكرامة العربية الجريحة. في هذه الأوقات العصيبة، يطل علينا وجـــه من أبطال التاريخ الإسلامي، يصرخ فينا شعوباً وحكاماً يطالبنا بنبذ الخلاف والتوحد في مواجهة العدو.

حـــدد جمـــال الدين الأفغانى رسالته وهدفه بقوله: «لقد جمعت ما تفرق من الفكر ولممت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفني الأفغان، وهى أول أرض مس جسمى ترابها، ثم الهند وفيها تثقف عقلى، فإيران بحكم الجوار والروابط، فجزيرة العرب، من حجاز هى مهبط الوحـــى، ومن يمن وتابعتها، ونجد، والعراق، وبغداد، وهارونها ومأمونها، والشام ودهاة الأمويين فـــيها، والأندلس وحمراؤها وما آل إليه أمرهم، فالشرق.. الشرق، فخصصت دماغى لتشخيص دائـــه وتحرى دوائه، فوجدت أقتل أدوائه انقسام أهله، وتشتت أدائهم واختلافهم علي الاتحاد، واتحادهم علي الاختلاف، فعملت علي توحيد كلمتهم، وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم».

نـــظرة للحـــياة:

يُعتـــبر «جمال الدين الأسد أبدى الأفغانى»، من أعلام النهضة الفكرية الحديثة، في النصف الـــثانى مـــن القرن التاسع عشر، واجتمع له من الصفات العقلية، والعلمية، والأخلاقية، النادرة، والـــزهد في الدنيا والقوة في طلب الحق لكل مظلوم، فرداً كان أم جماعة أم دولة، ما جعله محط الأنظار شرقا وغربا. وهو الذى قال حين طُلب منه أن يكتب سيرته الذاتية، وأى نفع لمن يذكر أنى ولـــدت سنة ١٢٥٤هـ، وعمرت أكثر من نصف عصر، واضطررت إلى ترك بلادى الأفغان مضطربة، تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأُكرهت علي مبارحة الهند، وأُجبرت علي الابتعاد عن مصـــر، أو إن شـــئت، قل: «نُفيت منها ومن الأستانة»، مقر الخلافة العثمانية وقتها، ومن أكثر عواصـــم الأرض، كل هذه الأحوال خاطرات لا تسرنى، وليس فيها أدنى فائدة للقوم. أما القول إنهـــا لا تسرنى لا بمعنى أنى نفيت من البلاد أو سجنت، كلاً. لأنى أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العُتاة «رياضة». والنفى في سبيل ذلك السبيل «سياحة»، والقتل «شهادة»، وهى أسمى

المراتب، فأنا عن نفسي غير راض، ذلك لأن الخمول قد قعد بي، فلم يوصلني إلى أسمى مرتبة وهي «مرتبة الشهداء» وحظي في مصاف المنفيين من أرض إلى أرض، فما أبعدني في كل ذلك عن أولي الهمم، ومن قاموا بالأعمال الخطيرة، أو المطلب الجلل».

كـــان «جمال الدين الأفغاني»، مثالاً للمناضل، مثالاً من أجل بعث إسلامي جديد، وحركة إســـلامية ناهضة تستعيد للمسلمين مجدهم السالف، وعزهم الغابر، متمسكين بالجذور الأصيلة للإسلام في مواجهة الهجمة الغربية الاستعمارية الشرسة. وكان يرى أن تحقيق هذا الهدف يتطلب قـــيام جامعة إسلامية، تضم كل المسلمين في وحدة سياسية للعالم الإسلامي، حيث ترتبط دولة ببعضـــها بعضـــاً، بروابط سياسية، واقتصادية محكمة، إمامها القرآن والشورى، ولا تتخلى عن الأخذ بأسباب التقدم العلمي الذي برع فيه الغرب.

مـــن ســـلالة الحســـين:

وَلِدَ «جمال الدين الأسد ابادي الأفغاني» سنة ١٨٣٩ للميلاد، في قرية «أسعد آباد» من قرى منطقة كَنر القريبة من كابول، العاصمة الأفغانية، لأسرة تنحدر من أصول عربية حجازية، يرجع بهـــا النســـب إلى الإمـــام الحسين بن علي بن أبي طالب، مروراً براوي الحديث المشهور الإمام «الترمذي». وكانت أسرته ذات نفوذ سياسي وإداري في منطقتها.

انتقل في الثامنة من عمره، مع الأسرة إلى العاصمة كابول، عندما خشي دوست محمد خان، حـــاكم الـــبلاد وقـــتها، من نفوذ أسرة «جمال الدين»، فسلبهم أرضهم وإمارتهم وأرسلهم إلى العاصمة، حتى يكونوا بين يديه وتحت عينيه. وأخذ والده «صفتر»، يشرف علي برنامج تعليمه في تلك السن.

وبلـــغ الثامنة عشرة، وكان قد درس مبادئ العلوم العربية، وعلوم الشريعة من تفسير، وحديـــث، وفقه، وأصول، وكلام، وتصوف، ومنطق وأخلاق، وسياسة، وسافر إلى الهند، فأقـــام هناك سنة ونصف السنة استطاع أثناءها أن يلم ببعض المعارف الحديثة، من حساب وهندســـة وفلك وجبر، وحتى نظريات الطب والتشريح. كما تعلم مبادئ اللغة الإنجليزية، فجمع الحكمتين. ثم سافر من الهند إلى الحجاز سنة ١٨٥٧م، لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى كابول موظفاً في حكومة الأمير الحاكم، دوست محمد خان، إلى أن نشبت الحرب الأهلية، إثـــر انقســـام أبناء الأمير علي أنفسهم بعد وفاته، وانضم «جمال الدين» إلى «محمد أعظم» أحـــد هؤلاء الإخوة، الذي كُتب له النصر، وارتفع شأن «جمال الدين» عند ذلك الأمير، فاتخذه كبيراً لوزرائه.

وتجددت الحرب الأهلية، وناصر الإنجليز الأمير «شير علي» وأمدوه بالمال والسلاح فانتصر على أخيه، واضطره ذلك إلى الفرار من البلاد، فانتقل «جمال الدين» إلى الهند منفياً، سنة ١٨٦٩ م. وأحاطه الإنجليز بعملائهم، ولم يسمحوا له بالاتصال بزعماء المسلمين، ولم يقم في الهند أكثر من شهر، ثم طلبوا منه مغادرة البلاد.

الاتجــاه إلى مصر:

اتجــه «جمال الدين» إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٦٩م/ ١٢٨٦هـ، وكانت شهرته قد سبقته إلى الديــار المصرية، وسعى الإمام الشيخ «محمد عبده» إلى لقائه. وكان هذا اللقاء مقدمة للصلة الوطــيدة بيــنهما. ولكن «جمال الدين»، لم يمكث في مصر أكثر من أربعين يوماً ذهب فيها إلى الأزهــر، والقــى دروساً في النحو والحكمة على الطلبة الشوام «أبناء بلاد الشام» الدارسين في الأزهر. وذهب من القاهرة إلى استنبول، فرحب به العلماء وأصحاب المناصب، وأكرم السلطان عبد الحميد وفادته.

ولم يضــيع «جمال الدين» الفرصة في الدعوة إلى الإصلاح الديني والسياسي، فطار صيته في أنحاء تركيا، غير أن هذا النجاح، الذى لقيه، أوغر صدور الحاقدين العاجزين، فطلب السلطان من «جمال الدين»، أن يغادر البلاد تسكيناً للخواطر، فرحل عنها إلى مصر من جديد، سنة ١٨٧١م.

وتعتــبر فــترة إقامــة الأفغاني في مصر من (١٨٧١ – ١٨٧٩م)، من أهم فترات كفاحه السياسى، والتنويرى، فوجد الشباب المصرى والعربى عند جمال الدين، روحاً جديدة غير مألوفة عــندئذ، وجدوا عنده مذهباً متكاملاً عن الدين والحياة، والكون، والإنسان، والحرية، ومقاومة التغريــب، وضرورة التمسك بالمنبع الأصيل للثقافة الإسلامية، وهو القرآن الكريم. وقد استطاع الأفغــاني بخطبه الملتهبة، أن ينفث في النفوس نزوعاً إلى الحرية، ورغبة في العدالة، وخطب مرة في الإسكندرية، قبل خلع «الخديوى إسماعيل»، فقال: «أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتنبــت مــا تسد به الرمق، وتقيم أود العيال، فلم لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة تعبك؟».

وبــذل جهــداً كبيراً في تنبيه المصريين إلى مضار الاستكانة لتدخل الأجانب في شؤونهم، فخطــب فــيهم: «لو كان في عروقكم دم ينبض، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر، فتبعث النخوة والحمية، لما رضيتم بهذا الذل، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم تضحكون، تناوبتكم أيدى الغزاة من كل جنس، وأنتم كقطع الصخر الملقاة في الفلاة، لا صوت لكم ولا حس».

ولم يكــتف الأفغاني بالخطابة، الدروس، واللقاءات مع القوى الوطنية في ذلك الوقت، وإنما أخــذ يكتب في الصحف كتابات نارية، كان ينشرها باسمه أحياناً، أو بأسماء تلاميذه، أو بأسماء مســتعارة، فــاتخذت حكومة «الخديوى توفيق»، قراراً بنفيه، بحجة «أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا!»

إلى الهــند:

غــادر «جمال الدين» مصر متجهاً إلى الهند، وأقام في مدينة «حيدر آباد» حيث ألف باللغة الفارســية كتابه «الرد على الدهريين»، الذى نقله الشيخ «محمد عبده» إلى العربية، ورد فيه على أصحاب المذهب الطبيعى، الذى انتشر في الهند، بتأييد من المستعمر الإنجليزي، وقال في الكتاب: «ومقصد أرباب هذه الطريقة «الدهرية»، محو الأديان وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية»، ثم يقــول: «إذ لا ريــبة في أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي، ولن يستحكم أساس

للتمدن من دون الدين البتة. وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان وطرح كل عقيدة دينية، أما عـــدم شـــيوع هـــذه الطريقة وقلة سالكيها، مع طول الزمن علي نشأتها، فسببه أن نظام الألفة الإنســـانية، وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية، كانت له الغلبة علي أصولها الواهية، وشريعتها الفاسدة».

وقامـــت الـــثورة العرابية في مصر، إبان إقامة الأفغاني في الهند، فأبعدته الحكومة الهندية من حـــيدر آباد، وفرضت عليه أن يقيم في «كلكتا» إلى أن انتهت الثورة العرابية، باحتلال الإنجليز مصر، وعندئذ سُمح له بمغادرة الهند إذا شاء، فذهب إلى باريس، وأقام فيها ثلاث سنوات حافلة بالنشـــاط السياسي في الدعوة إلى تخليص البلاد الشرقية من تدخل الحكومات الغربية في شؤونها، وفي الدفاع عن عقائد الإسلام كلما تعرضت للهجوم عليها، من المغرضين.

العـــروة الوثقـــى:

والـــتقى «الأفغاني» في باريس بتلميذه وصفيه، الإمام الشيخ «محمد عبده»، الذى أبعد عن مصـــر لاشـــتراكه في الثورة العرابية، وفي العمل ضد المحتل الإنجليزي، والحكام المتعاونين معهم، وأصـــدر الشيخان في باريس، مجلة «العروة الوثقى»، ولخصا في العدد الأول، الصادر في الخامس من جمادى الأولى عام ١٣٠١هـ (الثالث من مارس ١٨٨٤م)، أهدافهما من إصدار هذه المجلة في عدد من المبادئ هي:

بيان الواجب علي الشرقيين، وأسباب فساد حالهم.

إشراب النفوس عقيدة الأمل، وترك اليأس.

الدعوة إلى التمسك بالأصول، التي كان عليها أسلافهم وعزوا بها.

الدفاع عما يُتهم به الشرقيون عموماً، والمسلمون خصوصاً، خاصة أنهم لن يتقدموا ماداموا متمسكين بدينهم.

إخبارهم بما يهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.

تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، وتمهيد الطريق إلى جامعة إسلامية، تعيد شأن الإسلام الأول، وتقويـــة فكرة الرابطة الشرقية، بتقوية العلاقات السياسية، والتجارية بين شعوب الشرق، صداً لتيار الغرب وزحفه.

و لم يصـــدر عن هذه المجلة سوى ثمانية عشر عدداً، قبل أن تتوقف. فقد صودرت في الهند، ومصر، وفُرضت غرامات مالية باهظة علي كل من يقرأها أو يقتنيها.

الســـودان وإيرلنـــدا:

وزار «الأفغاني» لندن، أثناء وجوده في باريس، ليناقش جوانب الثورة المهدية، التي قامت في الســـودان، وحـــاول محاوروه الإنجليز، التعرف علي رأيه في المسألة السودانية، أوضح لهم خطأ سياســـة إنجلترا نحو الإسلام، ومصر والشرق عموماً، فاقترحوا عليه تتويجه سلطانا علي السودان، لاستئصـــال ثورة المهدى، وتحقيق أهداف بريطانيا فرفض، لأن بريطانيا تعطى ما لا تملك من لا يستحق، والأولى ببريطانيا إصلاح أيرلندا، فأعجب به الأيرلنديون الأحرار.

ثم اســـتدعاه ناصـــر الدين، شاه الفرس إلى طهران، وقربه إليه وعهد إليه بوزارة الحربية مع لقـــب ((مستشار خاص للشاه)). لكن الشاه ما لبث أن خاف من شعبيته، وخشى علي سلطانه منه، فتنكر له، ولما شعر ((جمال الدين))، بأنه غير مرغوب فيه، استأذن الشاه في السفر إلى روسيا القيصرية.

وأقـــام في مديـــنة ((بطرســـبرغ))، أربع سنوات، نشر فيها عدة أبحاث عن العالم الشرقى، والسياســـة الدولية، والتقى القيصر، لكنه سرعان ما اختلف معه حول دور الشورى والشعب في تسيير دفة الأمور، فأمر القيصر بإخراجه من روسيا. وتجول في أوروبا، والتقى صدفة مجدداً، الشاه الفارسى في ((ميونيخ)) عام ١٨٨٩، واعتذر له الشاه، وطلب منه أن يعود إلى طهران، فرجع معه لتنظـــيم الدولة، فسنَّ لها قانوناً تكون فيه الحكومة ملكية شورية، ثم دخل في صراع ضد الشاه، الـــذى تواطأ مع الاستعمار ضد دولة الخلافة، وضد الحركة الوطنية الإيرانية، وأجبر الشاه علي سحب امتياز شركة ((التبغ)) البريطانية ((ريجى)). بعد أن نجح في جعل الشعب يقاطع إنتاجها، وهو مـــا جعل الشاه يرسل خمسمائة من فرسانه يقتحمون علي ((الأفغانى)) فراش مرضه، ليقودوه علي محفـــة خشـــبية، وهو ينتفض من الحمى، إلى البصرة فى العراق، فقامت ثورة من مريدية أحمدها الشاه، الذى طعنه رجل من أهل فارس وقتله ثأراً ((لجمال الدين)).

الأســـد المكبل بالذهب:

استدعاه السلطان ((عبد الحميد))؛ الذى كان حريصاً علي استبقائه علي مقربة منه ليتيسر له مراقبته، ولما وصل خبر اغتيال الشاه في إيران، أظهر الأفغانى سروره، فزاد السلطان ((عبد الحميد)) فـــزعاً منه، وأمر بتشديد الرقابة عليه، وظل ((الأفغانى)) في مدينة استانبول خمس سنوات، قضاها كمـــا وصفه سائح ألمانى، زاره سنة ١٨٩٦م، ((فى سجن النعمة، خلف قضبان من ذهب))، و لم يـــتزوج جمـــال الدين الأفغانى، تخففا من أعباء الأسرة، وتفرغاً لكفاحه. وعندما أهداه السلطان إحدى جواريه الجميلات، ليقيد حريته بالزواج، رفض. وعندما أحس بضغط الحاشية، هدد بأن يـــزيل من نفسه مؤهلات الرجل للزواج. وقال له الطبيب: ((إنك بذلك تعاند الطبيعة))، فأجابه: ((إن الطبيعة أقدر منى ومنك علي تنظيم نفسها بنفسها)).

الوفـــاة:

توفى ((جمال الدين الأفغانى))، صبيحة التاسع مع مارس سنة ١٨٩٧، متأثراً بمرض السرطان، الذى أصاب فكه، وقيل إن السلطان ((عبد الحميد)) دس عليه من ساعد علي موته، ودفن في قبر متواضـــع جداً، ظل مهجوراً حتى شيده العالم الأمريكى كرين، سنة ١٩٢٦م، ونُقل الرفات سنة ١٩٤٤م إلى بلاده أفغانستان، عبر البلاد العربية، في موكب رسمى وشعبى.

مـــن أقـــواله:

الاستعمار الثقافى

نـــبه الأفغـــانى الشعوب الإسلامية إلى خطر جديد هو الاستعمار الثقافى فقال: ((ينخذ الغربيون في الشرق أساليب عجيبة للقضاء علي الروح القومى،

وقـــتل التربية الوطنية، وتقويض الثقافة الشرقية: فتراهم يزيفون للشرقيين أن يـــنكروا علي قومهم كل مأثرة وكل فضيلة، ويلقون في روعهم أنه ليس في لغـــاقم العربية أو الفارسية أو الهندية آداب تؤثر، ولا في تاريخهم مجد يذكر، ويوهمونهم بأن قصارى المجد للشرقى النابه أن ينفر من سماع لغته، وأن يتباهى بأنها لا يحسن التعبير بها، وإن ما تعلمه من الرطانة الغربية هو غاية ما يستطاع بلوغـــه من الثقافة الإنسانية: ألا ليت الشرقيين يدركون أنه لا جامعة لقوم لا لســـان لهـــم، ولا لسان لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مأثر رجالهم)).

الوصول إلى القمر والأجرام السماوية الأخرى

وكـــأن جمال الدين كان يستشرف المستقبل واختراعاته حين قال ((... وعندى، إذا ظفر العقل في هذا الحراك والجدال، وتغلب إقدامه علي الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح، ولا يلبث طويلا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان، وغاص في البحار يسابق الحيتان، وسخر البرق بلا سلك لحمـــل أخباره، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره، كأنه قاب قوسين أو أدنى، وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر، أو الأجرام الآخرى؟!)).

الاتجاه العقلي في الإسلام

وكان الأفغاني يهيب بالمسلمين علي اختلاف مذاهبهم أن يستعملوا هذا المـــبدأ العقـــلى الذى امتاز به الإسلام علي سائر الأديان فيقول: ((هذا الدين يطالب المؤمنين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقـــل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل: تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقـــل والبصـــيرة، وأن الشـــقاء والضلالة من لواحق الغفلة، وإهمال العقل وإنطفاء نور البصيرة))*.

الحث علي الجهاد ضد المستعمر

كان يردد دائماً ((أنرضى ونحن المؤمنين، وقد كانت لنا الكلمة العليا، أن تضـــرب علينا الذلة والمسكنة؟! أو أن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة؟! بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء، حتى يخلى منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته؟!)).

وعندما يناقش العلاقة بين الشعب ومستعمريه، ويحدد معالم ((الخيانة))، فإنه لا يراها مقصورة علي ((المتعاونين)) مع الأعداء بل ويراها كذلك عارا لا

---

* د. محمد عمارة، ((الإسلام بين التنوير والتزوير))، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص٢٤٥.

صقا بالسلبيين، والمتهادنين في المعركة ضد هؤلاء الأعداء فيقول: ((لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس، وكل ثمـــن تـــباع به البلاد فهو بخس – بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوهـــا العـــدو فى أرض الوطن، بل من يدع قدما لعدو تستقر علي تراب الوطن وهو قادر علي زلزلتها)).

العقل مرة آخرى

ثم يعود الأفغانى ليتحدث عن العقل مرة أخرى فيستعير كلمات ابن عربى التى يقول فيها: أيحسب الإنسان أنه جرم صغير؟ وفيه إنطوى العالم الأكبر ثم يمضى قائلا ((نعم.. إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلى بعقلـــه مـــا غمض وخفى من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صـــار ممكنا، وما صوره جحوده وتوقف عقله عنده بأنه ((خيال)) قد أصبح حقيقة)).

معنى الأرهاب

ثم يتحدث الأفغانى في مقال له عن حرب الشعب مهاجماً الذين يصفونها بأنها ((إرهاب)) فيقول: ((إنما ننادى علي صاحب البيت أن يدافع عن حريمه، ومالـــه، وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه، وهى سنة جرى عليها دعاة الحق في كل أمة)).

ثم يقول: إن مقاومة الأهالى أشد أضعاف مضاعفة من القوى العسكرية -النطامية- ... وما جـــرى لحكومة إنجلترا مع الأفغانيين أعظم شاهد علي ما نقول. دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغـــان بســـتين ألف عسكرى، واستوليت على المدن، وكاد قدمها يرسخ في البلاد، فلما قام الأهـــال من كل صقع، والتحمت المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان عجز الستون ألفا عن الوقوف موقـــف الدفاع، واضطرت حكومة إنكلترا بعد تسلطها سنتين، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترلينى إلى ترك البلاد!!

وما أشبه الليلة بالبارحة في فلسطين وأفغانستان.

رحم الله ((جمال الدين الأفغانى)) ذا البصيرة النافذة التى كانت تستشرف آفاق المستقبل وتعبر عنه.

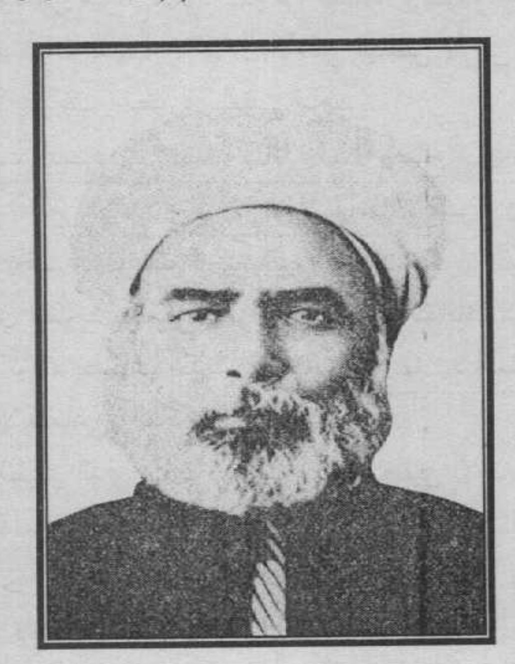
ونعتقد أن خير ما يصور شخصية ((الأفغانى))، في طموحه وإبائه هو ذلك المعنى الذى أشار إليه هو نفسه في بيت الشاعر العربى:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم　　　بـــين طعن القنا وخفق البنـــود

الإمـــام محـمـد عـبـده

(١٨٤٩ - ١٩٠٥م)

أفتى بعزل الخديوى وانضم إلى الثوار



وســط الظــلمة الحالكة التي عاشها العالم العربى والإسلامي في القرن التاسع عشر، برزت أسمــاء مضيئة بعقول متفتحة وبصائر نافذة نغبطهم عليها نحن أبناء القرن الحادى والعشرين. ففى تلــك الأيام الصعبة ظهرت أسماء عظيمة في فضاء العالم الإسلامي، منها «جمال الدين الأفغانى»، و«عبد الرحمن الكواكبى»، و«محمد عبده» وبعدهم «محمد رشيد رضا» وغيره.

أنار الشيخ «محمد عبده »كرائد عظيم للإصلاح الديني والاجتماعي. الطريق أمام دعاة الإصــلاح للسير قدما نحو استعادة المجد الضائع للحضارة الإسلامية. وكشف الإمام للناس عــن كــثير من وسائل النهضة وسبل التقدم، فرفع راية الجهاد ضد مظاهر التخلف، ودعا الشباب إلى نبذ أسباب الجمود والأخذ بأسباب التقدم، وسار يناهض سطوة الحكام الإنجليز ويزيل ظلام الغشاوة من عيون الناس، ليقاوموا الفساد. ويطردوا عن أنفسهم عوامل اليأس والقنوط، اللذين أصاباهم بسبب الاحتلال الأجنبي البغيض لأرض «الكنانة» الذى أدى إلى تخلفهم عن اللحاق بالركب الحضارى العالمى الناهض.

وأدرك «محمــد عــبده»، ببصيرته النافذة أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولهــا. فالدين هو أساس الإصلاح في كل زمان ومكان، فشرع في تطوير الأزهر، مناهجه ومدارســه وراح يعقــد الحلقات التعليمية ليوضح للناس مراد الله من خلقه. وأخذ يكتب المقالات التنويرية في الصحف، ليرقى بعقول الناس ويعلو بثقافاتهم. وكان له في كل وظيفة تقلدهــا أو عمل تولاه بصمات تجديدية واضحة، غايتها نبذ التقليد العقيم السائد وتحقيق الإصلاح الدينى والاجتماعي والفكرى.

ولم يكــن الطريق الذي سلكه «محمد عبده» لتحقيق الإصلاح مفروشاً بالورود. بل كان مليئا بالأشواك مرصوفا بالوعورة.

وهــو الــذى وصفه مستشرق أمريكي فقال: «كان محمد عبده فلاحاً صميماً. وليد تربة مصر العريقة، قبل أن يغدو فقيهاً وإماماً للمسلمين، وإننا لنلمح فيه إخلاصه لبلده وفي دعوته إلى الوطنية مزاجاً عجيباً من الوفاء للماضى المجيد، والاستمساك بيقين الدين».

كــان شخصية منفتحة علي العالم، وهذا ما جعل البعض يعترض عليه قائلا: «ما هذا الشــيخ الــذي يتكــلم الفرنسية، ويسيح في بلاد الإفرنج، ويترجم مؤلفاتهم، وينقل عن فلاسفتهم، ويباحث علماءهم، ويفتي بما لم يقل به أحد من المتقدمين؟».

نشــأة مثــابرة:

كانــت حــياة الإمــام مثل شخصيته خصبة، حافلة صنعها بقلبه، وقالبه، فكان يطالع ويتعــلم، ويحــرر جريدة الوقائع المصرية، ويُلهم الثورة العرابية وينشر دعوة العروة الوثقى في

العالم الإسلامي كله، ويشتغل بالقضاء، في المحاكم ويُعلم في الأزهر، ويُصدر الفتاوى المستنيرة، ويشـــترك في جلســـات مجلس شورى القوانين. وفي مجلس الأوقاف الأعلى، ويؤلف الرسائل الدينية، وينشر المقالات السياسية والفلسفية، ويُفسر القرآن من خلال رؤيته الثاقبة، التي ترى أن إصلاح الأمة لا يكون إلا بإصلاح عقول وقلوب أبنائها.

وُلـــدَ الشـــيخ «محمد عبده» عام ١٨٤٩في قرية «محلة نصر» في محافة البحيرة، لأسرة متوســـطة الحال تعمل في الزراعة، وتوسم أبوه فيه ذكاء ونبوغاً، فأراد أن يجعله من رجال الديـــن، فأدخله كتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم. وجاوز العاشرة من عمره، وأتم حفظ القرآن الكريم. وذهب إلى الجامع الأحمدى في طنطا، ليتم تجويد القرآن ودراسة قواعد اللغة العربـــية، لكـــن منهج التعليم في الجامع الأحمدى،كان شاقا علي الصبى الصغير، الذى كاد يعتريه اليأس، ففكر في أن يعود إلى قريته ويشتغل مثل إخوته في الزراعة لولا أن التقى أحد أخوال أبيه، الذي أعاد إليه ثقته بنفسه، وقد وصف الإمام الأثر الذى تركه فيه قريبه ذاك، وكان يدعى الشيخ «درويش» فقال: «تفرقت عنى جميع الهموم، ولم يبق إلا هم واحد، هو أن أكـــون كـــامل المعرفة، كامل أدب النفس، ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه نفســـى، ســـوى ذلـــك الشـــيخ الذى أخرجنى في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة»*.

وانـــتقل الشيخ إلى الدراسة في الجامع الأزهر، عام ١٨٦٦م وحصل منه علي شهادة العالمـــية عام ١٨٧٧م فأصبح من حقه التدريس في الأزهر، وراح يلقى دروساً في التوحيد والمنطق والأخلاق، إلى أن عُين مدرسا للتاريخ الإسلامى في مدرسة دار العلوم، «كلية دار العلوم» حاليا وعُين في الوقت ذاته مدرسا للغة العربية في مدرسة «الألسن».

التقـــاؤه الأفغـــانى:

مـــرت «بمحمـــد عبده» خلال دراسته الأزهرية، ظروف نفسية جعلته ينقطع عن الدرس والتحصيل، ويحاول اعتزال العالم، وأخذ يمارس ضروب الزهد والخلوة مع النفس، إلى أن وفد إلى مصـــر عـــام ١٨٧١ «الإمام الثائر» «جمال الدين الأفغاني»، وكانت شهرته قد سبقته، كداعية للتحرر من الاستعمار الأجنبي ووحدة الأمة الإسلامية، ومجدداً للفكر الدينى معلياً من شأن العقل. فصـــار الشيخ «محمد عبده» من أقرب تلاميذه إليه، وأقدرهم علي فهمه. فلما صدر قرار إبعاد جمـــال الديـــن الأفغانى عن مصر للمرة الأولى. قال يوم وداعه لبعض خاصته: «لقد تركت لكم محمد عبده وكفى به لمصر عالماً».

---

*السيد يوسف، «الإمام محمد عبده رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث»، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الطبعة الألولى، ١٩٨٩، ص١٣.

وبدأ «الشيخ محمد عبده» يكتب في صحيفة الأهرام، معبراً عن أفكاره، متأثراً بأفكار أستاذه «جمـــال الدين الأفغاني»، وكان مما كتبه عام ١٨٧٧م مقال بعنوان «العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية». جاء فيه: «فعلينا أن ننظر إلى أحوال جيراننا من الملل «الشعوب» والدول، وما الذى نقلهم من حالهم الأول، وأدى بهم إلى أن صاروا أغنياء أقوياء، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم، إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل. فإذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع إليه، حتى نتدارك ما فات وها نحن بعد النظر، لا نجد سببا لترقيهم في الثورة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلـــوم في مـــا بيـــنهم، حتى قادتهم إلى رشادهم، فإذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا».

ومضـــى الشـــيخ في كتاباته إلى جانب عمله في التدريس إلى أن تولى الخديوى توفيق عـــرش مصـــر، فشعر بخطر أفكار الأفغاني وتلميذه محمد عبده، على عهده وحكمه، فعزل محمـــد عبده من التدريس في دار العلوم عام ١٨٧٩م وحدد إقامته في قريته، وبعد عام من تحديد إقامته صدر عنه العفو.

الصحافي الثـــائر:

أراد ريـــاض باشـــا إصلاح جريدة الوقائع المصرية وتطويرها، وكانت لسان الحكومة الـــرسمى، فعين «الشيخ محمد عبده» محرراً فيها، ثم جعله رئيساً لتحريرها، وسار الشيخ في تحريـــر الصحيفة سيرة إصلاحية حقيقية، فانضم إليها الزعيم سعد زغلول وغيره من كبار المصـــلحين، المثقفين المستنيرين الذين يحلمون بوطن متطور، يتمسك بأصول الدين من دون قشوره داعين إلى التقدم العلمي، من دون تقليد الظواهر المادية الغربية البراقة.

ثم قامت الثورة المصرية بقيادة الضابط «أحمد عرابى»، فسارع «الشيخ محمد عبده» بتأييدها ومناصرتها بعزيمة وإخلاص، تحقيقا لحرية الشعب المصرى واستقلاله في الداخل والخارج.

وبعد أن تدخل الإنجليز وتم القضاء على ثورة الجيش بقيادة «أحمد عرابى»؛ وُجِّهت إلى «الشـــيخ محمـــد عبده» تهمة التآمر مع الثوار، فحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر، ثم بالنفى ثلاث سنوات لأنه أفتى بعزل «الخديوى توفيق»، فاختار الإقامة في سوريا، رحل إليها عام ١٨٨٣م فرحـــب به أهلها، وأعجبوا بعلمه وفضله، فأقام هناك فترة فاغتنموا إقامته بينهم وعهدوا إليه بالتدريس في بعض مدارسهم.

في المنـــافى:

ومـــن ســـوريا إلى بـــاريس، مستهل العام ١٨٨٤م، ليلتقى أستاذه وصديقه «جمال الدين الأفغـــانى»، وكانا قد تواعدا على اللقاء هناك، لينشئا معاً جريدة «العروة الوثقي» فكانت بذلك أول جريدة تصدر بالعربية في أوربا، وكان مكتبها في باريس ندوة لجميع الشرقيين، من المقيمين

والزائرين ولكنها لم تعمر طويلاً، حيث طوردت من الاستعمار البريطاني والسلطات الحاكمة في الـــبلاد الإسلامية المحتلة، وإن كانت قد تركت صداها لدى المسلمين كافة، لما حملته من أفكار متحررة تناقض ما هو مستقر في أذهان البعض.

وســـافر «محمد عبده»عام ١٨٨٥م إلى بيروت، وعُهد إليه بالتدريس في المدرسة السلطانية فألقى فيها دروسه المشهورة «في علم الكلام»، وهى الدروس التي كانت ركيزته الأساسية لرسالة كتبها بعنوان «رسالة التوحيد» عن صفات وأفعال الله سبحانه وتعالى. ويبدو أن نشاط الشيخ في بيروت لم يكن على هوى الخلافة العثمانية فسعى «السلطان عبد الحميد» لدى الحكومة البريطانية إلى إصـــدار العفو عن «الشيخ محمد عبده»، ليعود إلى وطنه مصر، وعاد «محمد عبده» إلى مصر عام ١٨٨٨م، حيث عُين قاضيا في المحاكم الشرعية، وعمل في محاكم بنها والمنصورة، والقاهرة، وعُـــين عام ١٨٩٥م نائبا لرئيس محكمة الاستئناف في القاهرة. وقد عُرف أثناء عمله في القضاء باســـتقلال الفكر، وكان يتوخى في أحكامه إيقاظ الوعى وإصلاح ذات البين وديا بين المتقاضين قبل أن يصدر أحكامه.

المفـــتي:

عُـــين «الإمام محمد عبده»، سنة ١٨٩٩م مفتياً للديار المصرية، وامتازت فتاواه بالبعد عن التقلـــيد، وكان يضع أمام ناظريه دائماً، الملاءمة بين روح الإسلام، ومطالب العصر، وكان من أشـــهر الفـــتاوى الـــتى أثـــارت عليه سخط الشيوخ المتزمتين، وجلبت عليه ضروبا من القدح والتشهير: إباحته للمسلمين أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة القصوى.

وأفتى بالسماح للمسلمين بأن يتزيوا بزى غير زيهم التقليدى. تيسيرا لهم في أمور معاشهم.

كمـــا أصـــدر فتواه التي اعتبرت تجديدا مهما في الفقه، وهى الفتوى الخاصة بصحة «نظام الـــتوفير في الـــبريد بالأرباح»، وصحة نظام التأمين، وهو ما ساعد على تأسيس النهضة الأولى للاقتصاد المصرى، عن طريق الادخار الاجتماعي، واستثمار المدخرات لمصلحة المجتمع. وبضرورة تعلم لغات الأمم الأخرى طلباً للعلم والحكمة، وتجنبا للشرور الوافدة أو الثابتة.

وعُين «الشيخ محمد عبده»، يوم الخامس والعشرين من شهر يونيو «حزيران» سنة ١٨٩٩م، عضـــواً في مجلـــس شـــورى القوانين، فسار على نهجه الخاص في السمو عن الأغراض الخاصة، واستهداف المصالح القومية الكبرى، كما كان من أوائل مؤسسى «الجمعية الخيرية الإسلامية» التى كانـــت تهـــدف إلى التعاون بين الأفراد ومد يد العون للمحتاجين. وتوفير فرص العمل للقادرين عليه. ويرجع إليه الفضل في إنشاء مدرسة القضاء الشرعى، وتأسيس جمعية «إحياء الكتب العربية القديمة».

ونشر وزير خارجية فرنسا «جبريل هانوتو» مقالا في صحيفة «لوجورنال» الباريسية، سنة ١٩٠٠. بعـــنوان موقفـــنا من الإسلام والمسألة الإسلامية، فلما تُرجم المقال ونشر في صحيفة،

المؤيـد، بـادر الإمام إلى الرد مفنداً ما زعمه «هانوتو» من فوارق بين المسيحية والإسلام، في ما يتصـل بالخالق سبحانه، وحقيقة القضاء والقدر وحرية الأفعال، ورفض ما زعمه «هانوتو» من قـيام التعارض بين الساميين والآريين ولامه في النهاية، لاستخدام معلوماته التاريخية المغلوطة في محاولة التأثير في أفكار الفرنسيين الذى يجهلون حقيقة الإسلام.

وقـد اشـتهر هـذا الرد، كما اشتهر رده علي «فرح أنطون»، الذى نشر مقالا عن الفيلسوف «ابن رشد» ورد في سياقه تعريض بالإسلام والمسلمين، وقد نشر الإمام رده هذا في كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» والذى لازال يطبع حتى اليوم.

وكان الإمام «محمد عبده» يردد دائما مقولته الشهيرة: «إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عـنه» وكانت هذه المقولة شعاراً لحياته، التي أفناها في خدمة وطنه ودينه فتعرض لحملات ظالمة رموه فيها بمخالفة العرف، والخروج علي طاعة السلطان.

بهـذه الروح الثائرة وضع لجريدة «الوقائع المصرية» التي رأس تحريرها ميثاق شرف يقضي بإلـزام الصحف جميعاً بالوقوف عند حدود الوقار في ما تكتب، مع إطلاق الحرية لها، في تبيين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب من دون خوف.

عطف الذئب على الحمل:

وحمـل في مقالاته علي الرشوة والمحسوبية، والإسراف والتفاخر بالمظاهر، وشدد علي ترك البدع الضالة لمنافاتها الشرع والعقل، ونادى بوجوب إبطالها وتطهير الإسلام منها. ولم ينس الاستعمار وأذنابه، فكتب بقول: «لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة، إذا تغلبت علـيها أمـة أشد منها قوة وقهرتها بقوة السلاح، وإنما العار الذى لا يمحوه الدهر، هو أن تسـعى الأمة أو أحد رجالها، أو طائفة منهم إلى تمكين أيدى العدو من نواصيهم، إما غفلة عن شؤونهم، أو رغبة في نفع وقتي».

وزار بريطانـيا عام ١٨٨٤م، وقال لمندوب جريدة بريطانية قابلة: «إننا نرى أن انتصاركم لـلحرية إنمـا هو انتصار لما فيه مصلحتكم، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب علي الحمل، لقد قضيتم علي عناصر الخير فينا، لكي يكون لكم من ذلك حجة للبقاء في بلادنا».

وكـان الإمـام يرى أن الخطوة الأولى في كل مسعى فلسفى هي تنبيه الوجدان، وايقاظ الضمير وإثارة روح النقد تمهيداً للفهم. ولذلك وجدناه في جميع أقواله ومؤلفاته دائبا علي مهاجمة «التقلـيد» أي تقـبل أراء الغير من دون المطالبة بالدليل، ومن أجل هذا كان يشيد دائما بمبدأ، الاجتهاد الذى يحافظ علي أصول العقيدة، مع الأخذ بظروف الزمان والمكان وهما متغيران.

وكـان يقـول: «إن الإنسان يكون حرا عندما يكون خالصا من رق الأغيار، عبداً للحق وحـده، وفي الحق علينا أن نهتدى في حاضرنا بتجارب السلف، ولكن ليس من واجبنا أن نقبل

جميع ما يؤثر عنهم. بل ينبغى أن نستعمل الفكر في موروثاتنا. فإن وجدناها صحيحة. قبلناها، وزكيناها. وإلا رفضناها غير آسفين»*.

ويقول منتقداً القائلين بنظرية الجبريين الذى يحيلون كل شيء في حياتهم إلى القضاء والقدر المحتوم: «إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه، فإن مثل هذا لمن سخف الرأى، ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين». ثم يقول: «إن جزءاً من أعمالنا منسوب إلى الإرادة. وذلك ما يسمى «الكسب» وهو مناط الثواب والعقاب».

وكان يرى أن «المشرك هو من يُعظم سُوى الله مستعيناً به في ما لا يقدر الإنسان عليه، مثل الاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله»

على أن التوكل الصحيح لا يعنى شيئاً أخر في رأيه سوى: «الثقة بالله، مع استعمال الأسباب الطبيعية، من أجل غايات ترسمها عقولنا».

تفسيره القرآن الكريم:

ووضع تفسيره القرآن الكريم، من خلال دروسه فى علم التفسير في الأزهر الشريف، والذى أكمله من بعده تلميذه السورى الشيخ محمد رشيد رضا، وأصدره في ما عُرف بتفسير «المنار» واعتمد فيه «على إعمال العقل في النص» والاعتماد على التأويل والقياس. لتقريب المعنى من أصول الفكر العقلى، وحدد الإمام «محمد عبده» طبيعة الإسلام الصحيح الذى يجب أن يتمسك به المسلمون بقوله: «ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وضبطه، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل».

وكان يرى أن إصلاح المسلمين عن طريق الفهم الواعى لدينهم، أسهل وأجدى من إصلاحهم عن طريق الأخذ بأساليب المدنية الأوربية في رؤيتها الاجتماعية التي لا تتوافق معنا، مع إعلاء شأن العقل والعلم في حياة المسلم، والاستفادة بما وصلت إليه الثقافة والحضارة والعلم من ابتكار وتجديد وإصلاح.

وفاة الإمام:

شرع الإمام سنة ١٩٠٥م في نشر الدعوة لإنشاء جامعة مصرية، تقوم إلى جانب الجامعة الأزهرية، لكنه لم يعش حتى يحقق ما دعا إليه، حيث وافاه الأجل في الإسكندرية في ١١ يوليو

---

* د. إسماعيل إبراهيم، «شخصيات صنعت التاريخ في البطولة والفداء والنهضة الفكرية»، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص١٧٤.

(تمـــوز) سنة ١٩٠٥م، وهو في أوج نشاطه وعطائه. وكانت وفاته حداداً عاماً في البلاد العربية والإســـلامية جميعاً. وتوفى الإمام و لم يعقب ذرية يبقى بها اسمه، ولكنه خلف آثار فكرية يخلد بها ذكره.

مؤلفـــات الإمـــام*

المؤلفات التي تركها الإمام «محمد عبده» قليلة قلة سنوات تدريسه، لكنها جليلة الأثر وهي:

- تفسير القرآن الكريم.
- مجموعة فتاوى حوالى ألف فتوى.
- رسالة الواردات.
- ترجمة الرد علي الدهريين لجمال الدين الأفغاني.
- شرح مقامات بديع الزمان الهمزاني.
- شرح نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.
- شرح البصائر النصيرية لابن رسلان.
- رسالة التوحيد.
- الرد علي هانوتو.
- الرد على فرح أنطون.
- رحلة صقلية.
- نظام التربية والتعليم في مصر.
- رسائل وكتابات مختلفة.

تضامن مع تولستوى:

كمـــا كتـــب رسالة تحية للكاتب الروسى «تولستوى» بعد أن حكمت عليه الكنيسة التابع لها بالحرمان، يقول في نهايتها: «وإن أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته علي متاعبك في النصـــح والإرشاد، هذا هو الذى سماه الغافلون الحرمان والإبعاد. فليس ما حصل لك من رؤســـاء الدين، سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس بأنك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم، كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم»*.

---

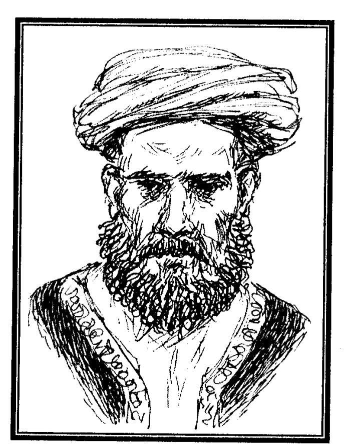
* د. كمال الدين عبد الغنى المرسى، «الإمام محمد عبده وأثره في تجديد الفقه والفكر الإسلامى»، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م. ص٤٧.

* د. عثمان أمين، «رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٦٥.

الشيخ العدوى

(١٢٢١-١٣٠٣هـ) (١٨٠٦-١٨٨٦م)

يعزل الخديوى توفيق



كان علماء الدين المدركون لحقيقة دورهم، المعتصمون بالله، دائما في قلب كل معركة خاضــتها الشــعوبمــن أجــل حريتها واستقلالها، إن لم يشاركوا بالحرب والقتال فهم يشــاركون بكــلمة الحق في وجه السلطان المستبد، يدعمون جبهات القتال بالعلم الديني وبتحفيز النفوس وتقوية الهمم.

في ثــورة عرابي، كان للمشايخ صولاتهم وجولاتهم، جاهدوا بالكلمة والقلم والفتوي وحملــوا الســلاح. إضافة إلي النديم خطيب الثورة، وعرابي قائدها، والاثنين نهلا من علوم الديــن – تتلمذا علي مشايخ الأزهر، يأتي «الشيخ حسن العدوي»، (١٢٢١ – ١٣٠٣هـ) (١٨٠٦ – ١٨٨٦م) وهــو من كبار علماء الأزهر، ومن أقطاب المؤتمر الوطني الذي أقامة الوطنيون لمساندة الضباط الثائرين علي ظلم الخديوي.

هــذا العــالم الكبير لم يكتف بمهمة إعداد النفوس والقلوب لرفض الظلم والاستبداد فقــط، وإنمــا تصــدي لــلخديوي عندما تحالف مع الإنجليز ضد عرابي ورفاقه،فأفتي هو والشيخان«محمد عليش» و«محمد الخلفاوي» بعزل «توفيق» عن حكم البلاد.

وطــني غيــور:

هــذا الموقف لم يكن جديدا علي الشيخ «حسن العدوي»، ذلك الرجل الوطني الغيور الــذي استمد منهجه من قول الله سبحانه وتعالي: ﴿**من يعتصم بالله فقد هدي إلي صراط مســتقيم**﴾ [آل عمران، آية ١٠١]، فهم الشيخ هذه الآية حق الفهم فجعلها منهجا له، فأعزه الله بعزته، فلم يكن يخشي في الله لومة لائم، لا يقول، لسانه إلا الحق وقول الصدق، حتي ولو كان مراً.

وقــر في قلــب وعقل الشيخ منذ أن أخذ العهد علي أيدي شيوخه ومعلميه أن العــلماء ورثة الأنبياء ماداموا علي الحق وماداموا يعملون به ويدعون الناس إليه، ولم يكن يؤمن بذلك قولا فقط، وإنما كان يبدأ بنفسه، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر.

في عهــد الخديــوي إسماعيل، الذي أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا، ورغم نياته الحسنة، لف الأوربيون حبل الديون حول رقبته فغرق وأغرق مصر معه، في هذا العهد، زار السلطان العثماني «عبدالعزيز» مصر. وكان «إسماعيل» حفيا بهذه الزيارة، لأنها كانت جزء مــن برنامجه لتأكيد سلطانه وتوكيد صلته بأولي الأمر في تركيا، وزاد في الحفاوة والتكريم أملا منه في الحصول علي لقب خديوي، إضافة إلي غيرها من الإمتيازات التي كان يطمع في الحصول عليها من السلطان لتمكن له الاستقرار في حكم مصر.

المقـــابلة الســـنية:

وحـــتي يبين «إسماعيل» للسلطان «عبدالعزيز» أنه يستحق أن ينعم عليه السلطان بكل مايـــريده، لأن الشعب بكل طبقاته يدين بالولاء ويحب «إسماعيل»، حتي طبقة العلماء، التي كان يخشي جانبها دائما. من أجل ذلك تضمنبرنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السراي.

ولمـــا كانت للمقابلة السنية تقاليد لابد أن يراعيها الجميع بين يدي السلطان، منها أن يـــنحني الداخل إلي الأرض، وغير ذلك من التقاليد المنافية لروح الإسلام الحنيف، التي تجعل السجود والركوع لله سبحانه وتعالي فقط. فلا انحناء إلا لواهب الموت والحياة.

وكـــان رجـــال السراي يدربون العلماء قبل هذه المقابلة بعدة أيام، كي لا يخطئوا في حضـــرة السلطان،حتي لا يغضبوه ويكون في حالة مزاجية ونشوة وسرور تجعله ينعم علي حاكم البلاد باللقب الذي يطمح ويطمع في الحصول عليه.

وعندما حان الموعد، دخل السادة العلماء الأجلاء علي السلطان، كان منهم من نسي دينه، واشتري به دنياه، طمعاً في رضاء السلطان وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات التي تقلل من قدر رأى إنسان، فما بالك بورثة الأنبياء.

مرفـــوع الـــرأس:

وبعد اللقاء خرج هؤلاء بظهورهم موجهين وجوههم إلي الخليفة العثماني، كما أمرهم رجـــال التشريفات، إلا عالما واحدا، هو الشيخ «حسن العدوي»، ذكر دينه ونسي دنياه، واستحضـــر في قلـــبه أنه لا عزة إلا لله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. دخل الشيخ مرفوع الرأس في كرامة وإباء، كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار، وواجه الخليفة بتحية الإسلام: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. فرد عليه الخليفة التحية.

ولم يفوت عالم الدين الفرصة، فربما لا يتمكن من رؤية الخليفة مرة أخري، وهو يعلم أنه الرأس المدبر لكل ما يدور في السلطنة، ووراء كل ما يحدث للمسلمين، ورسالته كعالم دين توجب عليه أن يؤدي واجبه تجاه هذا الحاكم، وتجاه رعيته.

ابـــتدر الخلـــيفة بالنصـــيحة التي ينبغي أن يتلقي بها العالم الحاكم، دعاه إلي تقوي الله والخـــوف من عذابه، والعدل والرحمة بين رعاياه، فلما انتهي سلم وخرج مرفوع الرأس، معطيا ظهره للخليفة وإسماعيل وحاشيته*.

* د. عبد الرحمن عميرة، «مواقف العلماء أمام الحكام والولاة»، دار العلم والثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٤٨.

ما فعله الشيخ أصاب الخديوي ورجال السراي بالخوف والفزع من رد فعل ((السلطان عبد العزيز))، بعد هذا التصرف المرفوض -من وجهة نظرهم- من جانب ((الشيخ العدوي)) الذي لم يلتزم بطريقة المقابلة التي رتبها السراي. وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم، وأن السلطان لابد غاضب، وضائعه تلك الجهود التي بذلوا والآمال التي نسجوا.

الكلمـــة المؤمنـــة:

ولكـــن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سدي، والكرامة لا تأتي أبداً إلا بالخير، فالكلمة المؤمنة لابد أن تصدع القلوب قوية حارة كما تنبعث من مكمنها قوية حارة، وهكذا كان. فقـــد أكـــبر السلطان هذا السلوك الحميد من ((الشيخ العدوي)) الذي لم يهن دينه و لم تمتهن كرامـــته، وقام بواجبه، وقال السلطان موجهاً حديثه إلي ((إسماعيل)): ليس عندكم إلا هذا العـــالم الـــتقي الـــورع، العارف لوظيفة العلماء وواجبهم تجاه السلطان والرعية، و لم يخلع السلطان أية خلعة هدية إلا علي ((الشيخ العدوى)).

وتمضي الأيام ويخلف الخديوي توفيق والده ((إسماعيل))، الذي عزله السلطان، وإن كان توفـــيق قد بدأ عهده ببعض الإصلاحات التي أراد من خلالها أن يخفف المعاناة عن الشعب، ويجمـــع حوـــله النخـــبة منه، فإن موقفه من التدخل الإنجليزي في شئون البلاد وترك أمور الجـــيش في أيـــدي الشراكســـة، وقصر الترقي عليهم أغضب العسكريين المصريين ومعهم الوطنـــيين الغـــيورين علي بلدهم، وكان في مقدمتهم العالم الكبير ((حسن العدوي)). الذي كان رغم تقدم العمر به، ما يزال علي العهد والإقتناع الكامل بأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر- كما قال الرسول (ﷺ).

فمـــا أن قـــدم الضباط المصريون شكواهم إلي الخديوي توفيق بتحسين أحوال الجيش، حـــتي دب الخلاف بينهم. وبين الخديوي، الذي رغم إذعانه لطلباتهم، وفتح باب الترقيات أمامهم وتكوين مجلس نواب، وتشكيل وزارة وطنية برئاسة ((محمود سامي البارودي)) كان عـــرابي وزيـــرا للحربية فيها، إلا أنه وبمشورة الإنجليز انقلب ضد الضباط، وجرت محاولة لتصفية ((عرابي)) وأتباعه، ثم تطورت الأمور إلي نزول الإنجليز بالإسكندرية.

عـــزل الخديـــوى:

في هـــذه الأوقات العصيبة من تاريخ الوطن تُعرف أقدار الرجال، وهنا هب ((الشيخ العدوي)) مشاركاً في صفوف الثائرين يجمع الكلمة ويوحد الرأي المؤيد للقوي الوطنية.

وعـــندما غـــالي الخديوي في مواقفه الموالية للإنجليز والمحبطة للوطنيين والثوار لم يتوان ((الشـــيخ العـــدوي)) عـــن الإفتاء بأن الخديوي بتصرفاته هذه يكون خارج عن الإسلام،

وبالتالي لابد من عزله من حكم البلاد. وزيل هذه الفتوي هو والشيخين ((محمد عليش)) و((محمد الخلفاوي)) من علماء الأزهر. وأصر الثلاثة علي نشر وإذاعة هذه الفتوي بين الناس، رغم ما فيها من تحد القوي المؤيدة للخديوي، دون خوف أو رهبة.

فلما حلت الهزيمة وقُبض علي ((عرابي)) والعرابيين، كان ((العدوي)) واحداً من الذين قدموا للمحاكمة. كانت المحكمة مؤلفة من لفيف من الباشوات ومن رجال الخديوي وعدداً من الإنجليز، أمام المحكمة وقف ((الشيخ العدوي)) الذي قارب سن الثمانين في مهابة وإجلال، لم يتطرق الخوف إلي قلبه، كان ثابت الجنان، فقد أقدم علي ما أقدم عليه وهو لا يبغي إلا نصرة الحق مهما كانت النتائج.

الشيخ الشجاع:

سأله رئيس المحكمة ((إسماعيل باشا أيوب)) بصوت غليظ جاف: هل وقعت باسمك أو ختم بخاتمك قراراً يقضي أن أفندينا المعظم سمو الخديوي توفيق باشا يستحق العزل لأنه مارق عن الدين ويتعاون مع الإنجليز أعداء البلاد؟ وإذا بالشيخ الطاعن في السن يستعيد حمية الشباب وحماسته، فنظر إلي أيوب باشا نظرة حادة ثابتة وهو يتكأ بذراعيه علي منضدة أمامه وقال: أيها الباشا، إنني قد وقعتها، ولكنني أقول لك ما يأتي.

إنه إذا أحضرت لي الآن ورقة تحتوي علي مثل هذا المعني الذي ذكرته، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي، وأختمها بخاتمي في حضورك الآن أيها الباشا.

ونظر الشيخ إلي أعضاء المحكمة قائلا: إذا كنتم مسلمين فهل تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا قد خان بلاده وذهب إلي الإنجليز وانضم إليها، و لم يعد جديرا بأن يكون حاكما لنا؟.

واصفر وجه الباشا رئيس المحكمة الذي كان يظن أنه يخيف المحكومين، وأن الشيخ رهبة من العقاب الذي ينتظره يمكن أن يتراجع أو يُنكر ما حدث منه، ولكنه أمام شجاعة الشيخ المسن لم ينطق بكلمة واحدة يرد بها علي هذا العالم الشجاع الجريء، وأومأ إلي حراس المحكمة أن يأخذوه ويخرجوا به من قاعة المحكمة، ثم نقلوه إلي قريته واعتقلوه فيها*.

هكذا كان شيوخ الأمس، فهم ملح الأمة، وشتان بينهم وبين شيوخ اليوم الذي قال فيهم الشاعر:

يا علماء الأمة يا ملح البلد ماذا يصلح الملح إذا الملح فسد

---

*د. سمير محمد طه: ((أحمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية)) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٨٨٦م.

عبد الرشيد إبراهيم

(١٨٤٦-١٩٤٤م)

الشيخ الأمة

العالم الإسلامي

في أوائل القرن العشرين

تأليف: عبد الرشيد ابراهيم

ترجمة: أحمد فؤاد متولي هويدا محمد فهمي



جزء من غلاف أحد

مؤلفات الشيخ عبد الرشيد إبراهيم

هذا الشيخ في قامة «جمال الدين الأفغاني»، كان مثله معجزة خارقة، حوت حياته الكثير من غرائب الشجاعة وعجائب الجهاد، حقق بمفرده ما تعجز عن تحقيقه الجماعات.

هـــو الداعـــية الرحالة المجاهد الصابر الدءوب: «عبدالرشيد إبراهيم» الذي تعود بنا مظاهر جهاده ودفاعه عن الإسلام والعمل علي نشره في ربوع العالم، بسير رجال الإسلام الأوائل الذين نشروا الإسلام شرقاً وغرباً وأضاءوا بنوره ظلمات القلوب والعقول.

جـــهاد متواصـــل:

كـــان «عبدالرشيد إبراهيم» في كل أدوار حياته مثال المجاهد المتواصل الكفاح، ومثال عالم الديـــن الذي لم يكتف بالوعظ والإرشاد وإلقاء الخطب، وإنما حول علمه وإيمانه إلي سلاح ضد أعداء الدين في روسيا القيصرية، ثم يرحل إلي الحجاز ليتعمق في دروس الشريعة واللغة، ويصل إلي تركـــيا لـــيوجه جهود الخلفاء إلي نصرة المستضعفين من أبناء الإسلام، ويسافر إلي الهند والصين والـــيابان لـــيعلن كلمة الله في ربوع نائية لا تكاد تعرف عن الإسلام إلا القليل. وبمنطقة العذب الجميل هدي الله آلاف القلوب إلي اعتناق الدين الإسلامي.

كـــان داعية غيور يشرح شعائر الوضوء والصلاة والزكاة، ويبني المساجد، باذلا الجهد في جمـــع التـــبرعات من شتي ربوع الإسلام، ليعلن كلمة الله في بيوت أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه.

كـــان مـــيدان دعوته ونشاطه في أقاصي آسيا، في بلاد الصين واليابان وكوريا ومنشوريا، حيث ذهب إلي هناك لنشر نور الإيمان والهداية.

وإذا كـــان «جمـــال الدين الأفغاني» ثائراً مضطرماً يريد أن يغير معالم الدنيا في لحظة عين، فيشـــعل الثورات مختاراً جنودها من تلاميذ أمدهم بروحه الثائرة فأصبحوا مراجل غضب يصبون الـــنار عـــلي المحـــتلين والمستبدين. فإن «عبد الرشيد إبراهيم» آثر أن يكون مجاهدا يدعو إلي الله بالحكمة والموعظة الحسنة، يؤلف في صمت، ويعظ في هدوء، ويرحل في مثابرة، ويدعو لله تعالي أن يؤتي جهاده ثماره الطيبة تعم بالخير علي الإسلام.

وأثمر جهده بالتمكين للإسلام في أماكن نائية كانت تسبح في ظلمات الوثنية والجهل حتي في العصـــور الحديثة، فقد استطاع «عبدالرشيد إبراهيم» سنة ١٩٣٩م أن يجبر البرلمان الياباني علي الاعتراف بالإسلام واحدامن أديان الدولة الرسمية، ثم بني الشيخ مسجدين تنطلق من مأذنهما نداء «الله أكبر.. الله أكبر».

المولـــد والنشـــأة:

وُلـــدَ «الشيخ عبدالرشيد» بمدينة «تارا بسيبيريا» سنة ١٨٤٦م في أسرة تعتز بإسلامها حين كانـــت القيصـــرية الروسية في قمة طغيانها العنصري، وحيث كان المسلمون في مجاهل سيبيريا

يعانون أشق أنواع الظلم والاضطهاد. و لم يزدها هذا الاضطهاد العنصري إلا تمسكاً بدينها القويم.
تلقـــي دروســـه الأولي في هـــذا الجـــو الذي زاده إصرارا علي النهل من منابع الشريعة والثقافة الإســـلامية، فـــارتحل وهـــو في الثانية عشرة إلي مكة. وهناك راح يغذي نفسه بمصادر العربية الصحيحة ويدرس الفقه والشريعة، وكانت كل خطاه ما بين مكة والمدينة تذكره بأمجاد الإسلام الأولي، وجهـــاد المسلمين الأوائل لنشر كلمة الله، فتوقد في صدره حمية مشتعلة وغيره متيقظة، وعـــز علـــيه وهو في غربته حال أبناء وطنه سيبيريا وما يعانون منه، وما تتعرض له عقائدهم من شـــبهات باطلة وأراجيف مختلفة، دون أن يجدوا من يميز لهم الخبيث من الطيب في منطق واضح وإيمان شديد، فقرر أن يعود إلي بلده، بعد أن تزود بحصيلة وافية من المعارف الدينية الصحيحة.

تصـــحيح المفـــاهيم:

في جـــد واجـــتهاد العالم العابد راح «الشيخ عبدالرشيد» يصحح المفاهيم المغلوطة ويوضح حقـــائق الدين، فالتف حوله الباحثون عن الدين الحق وذاع صيته، وأحبه الناس مدافعا عن الدين داعية سمحاً بليغاً، و لم تمض غير سنوات حتي تم اختياره قاضيا بالمحكمة الشرعية، ثم وكيلا للإفتاء الديني.

و لم يتخذ هذا المنصب وسيلة للراحة أو المكانة والتقرب من ذوي السلطان، بل جعل منصبه أداة توجيه وإصلاح لخير المسلمين، فراح يُطالب السلطات القيصرية بوجوب العمل علي مساعدة المســـلمين ومساواتهم بغيرهم في الحقوق والواجبات. و لم يثنه عن هذه المطالب ترغيب أو وعيد، وظل يناضل من أجل هذه الحقوق.

وسافر إلي استانبول عاصمة الخلافة العثمانية يوضح ما يتعرض له المسلمون في بلده من ظلم واضطهاد وحرمان من أبسط الحقوق.

وهناك عُرضت عليه المناصب، ولكنه آثر أن يكون بين أبناء وطنه يدافع عنهم ويقوم بواجبه تجاههم، فعاد ليواصل الكفاح والجهاد، وعندما لم يوفق في الحصول علي ترخيص بإصدار صحيفة يكتـــب فـــيها وتكـــون بمثابة منبر يخاطب منه المسلمين ويدافع عنهم، أصدر عدة رسائل باللغة التركية القاذانية، وراح تلاميذه من الطبقة المستنيرة يجمعون المسلمين من كل بلاد الروس ليقرءوا علـــيهم هـــذه النشرات، التي كانت تحمل دعوات جريئة إلي الإصلاح الديني، والتمسك بمبادئ الإسلام، واليقظة لما يحاك ضد الإسلام من جانب الحكام الروس وغيرهم من حكام الدول الاستعمارية.

و لم تقتصـــر هـــذه الرسائل والمنشورات علي اللغة القاذانية، بل أخذ يدعو باللغة العربية، ويكتب الرسائل الموجهة إلي المسلمين في المشرق العربي يتحدث فيها عن مآسي المسلمين الروس وما تمارسه السلطات الروسية من ظلم واضطهاد وتنكيل بالمسلمين.

المهاجـــر بالدعـــوة:

ولأنـــه كان يؤمن بأن الإسلام دين عالمي، وأن الداعية الحق للإسلام يجب أن يجعل العالم أجمع مكاناً لرسالته، رأي الشيخ أن يقوم بالدعوة للإسلام في البلاد البعيدة التي لم تصلها أضواء

الهدايـــة المحمدية بعد، فتعددت رحلاته منذ عام ١٩٠٥م إلي اليابان وكوريا والصين وسنغافورة، وجزائـــر ما وراء الهند، وتركستان ومنشوريا، يدعو الناس إلي دين الإسلام، دين المستقبل، ذلك الدين الذي كان أول دين يهتف بالحرية والإخاء والمساواة.

لم تكن مهمته سهلة ميسورة، وإنما كان الطريق مليء بالصعاب التي لا يقدر علي تخطيها إلا أصـــحاب الإيمـــان الراسخ والعقيدة الصادقة الذين عاهدوا الله علي نصرة دينه. وكان «الشيخ عبدالرشيد» أحد هؤلاء الدعاة الصادقين، الذين لا يبتغون إلا رضوان الله سبحانه وتعالي. فتخطي هـــذه العقبات ببسالة نادرة، وكان يُنفق علي رحلاته من ماله الخاص وكان الله حليفه، فيهدى علي يديه بنور الإسلام الآلاف في كل بلد كان يذهب إليه.

ولمـــس المجاهد الكبير من بشائر التوفيق ما زاده إيماناً وحماسة لرسالته التبشيرية، حتي ذعُرت مـــنه دوائر التبشير المسيحي بآسيا، واعتبرت هذا الشيخ الفرد خطراً علي جمعياتها التبشيرية. فقد كان وحده – دون أن تقف وراءه مؤسسة أو دولة تعينه وتمده بالمال – ندا لهذه المؤسسات ذات الميزانيات الضخمة المدعومة من مجلس الكنائس العالمي وحكومات الدول الأوربية التي تساندها. اســـتطاع هـــذا الشيخ بجهاده في نشر الدعوة الإسلامية في هذه لبلاد أن يؤكد للعالم أجمع، أن الإســـلام أقوي من أي سلاح، وأكبر من أية أموال، فهو ينتشر فقط بقوة مبادئه وصدق غاياته وهدفـــه الأسمي؛ فهو دين صالح لكل زمان ومكان يصلح دنيا البشر وآخرتهم في سماحة ويسر، بعيدا عن أي تعصب، فلم يكن الشيخ عبدالرشيد يملك في جهاده في هذه البلاد البعيدة غير سلاح المنطق والإقناع والدعوة إلي الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة الناس بالتي هي أحسن*.

شـــيخ واحـــد:

بعـــض القسس من مبشري المسيحية في الصين أفزعه سريان دعوة «الشيخ عبدالرشيد» بين أوســـاط الصينيين، فكتب إلي وزارة الخارجية في بلاده هذه البرقية: «انتبهوا.. المسيحية تعاني هنا كثيرا من جهود عدو يزحف عليها بقوته.. اخبرونا ماذا نفعل؟».

انزعجـــت وزارة الخارجية، وأرسلت إلي عميلها في الصين تقول: «أفزعتنا برقيتكم، نريد المـــزيد من التفاصيل عن قوة هذا العدو، ومدي نفوذه الحربي، وما هي القوي التي تقف خلفه.. أفيدونا بسرعة حتي يمكن وضع خطة للتحرك ومواجهة هذا الخطر الذي تتحدثون عنه».

ويرد عليهم قائلا: «هذا العدو مجرد شيخ واحد اسمه عبد الرشيد!»

واستمر هذا الشيخ الأمة يبشر بالدين السمح الرحيم حتي أسلم علي يديه المئات والآلاف، وحتي أصبح الإسلام ديناً معترفاً به في بلاد الشمس المشرقة، وقد ارتفعت في طوكيو المآذن تردد في اليوم الواحد خمس مرات هتاف الإسلام الخالد: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله.

---

* د. محمد رجب البيومي، «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»، الجزء الأول، فبراير ١٩٨٠، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ص٦١.

حمـــل الســـلاح:

لم يقتصـــر جهـــاد «الشـــيخ عبدالرشـــيد» علي ميدان الوعظ والإرشاد والكتابة في الصحف، فإلي جانب المنبر والقلم كان مجاهداً يحمل السلاح، فقد كانت نصرة الإسلام هي غايـــته الكبري؛ عندما أحتل الإيطاليون ليبيا، ذهب إلي هناك يجاهد مع إخوانه الليبيين سنة ١٩١٢، وله في هذا الجهاد بطولات رائعة. وحين قامت الحرب العالمية الأولي،حمل السلاح إلي جانـــب الجـــيش العثماني في جبهة القوقاز، وإلي ألمانيا ذهب أثناء الحرب لمتابعة أحوال الأسري المسلمين.

وقد حضر «الشيخ عبد الرشيد» إلي القاهرة وأقام فيها فترة، وكان مجلسه يجمع رواد مـــن مختلف المذاهب والمشارب الذين اجتمعوا علي الإعجاب به والعجب منه، فمنهم من جـــاء ليســـتمع إلي الشـــيخ الرحالة الذى يتحدث عن جماعات المسلمين ويصف أدوائهم وأدويتهم، فقد ركب البر والبحر ليدعو إلي الله، ومن منصت إلي عجائب الأسفار وغرائب الأوطـــان. ومن مكبر لهذا الشيخ الوقور، الذي لا تقعد به السن عن الأسفار البعيدة، وقد أتـــاح له كل هذا أن يصدر مؤلفه: «عالم إسلام» يجمع فيه مشاهداته الشخصية البصيرة في شـــتي ربوع الإسلام، في آسيا وأوروبا وأفريقيا، ويصف من أدواء المسلمين وعللهم ما لم يتيسر الإلمام به إلا للقلائل..

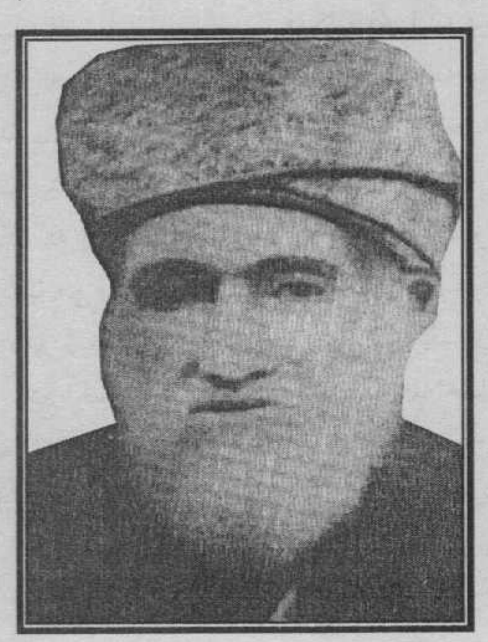
وعـــن نفســـه كتب يقول: «ما تركت بقعة من العالم الإسلامي إلا زرتها وطوفت في أرجائهـــا، جبت ما بين أقصي الشرق والمغرب الأقصى، و لم أدع موطناً للمسلمين في آسيا وأوربـــا وأفريقيا إلا يممته، وتعرفت ماضيه وحاضره، وقد أرهقتني الأسفار الكثيرة المتتالية، ومضـــيت في طـــريقي رغم كل شئ، فقد كان هناك نداء لا ينقطع من أعماق نفسى ألا تقف، تقدم، امض في سبيلك، نداء غيرتي علي ديني، تلك الغيرة التي تصطدم كالبركان بين جوانحـــي فـــلا أطيق وقوفاً، ولا أثبت في مكان، لا يقيدني حب النفس والوطن والأهل والولد، فكل هذه الأشياء لم تكن لتثنيني عن عزمي، ولا تعدل بي عن مقصدي، لا أبغي إلا وجه الله، ذلكم كل أملي لا أبغي سواه».

هكذا ظل المجاهد الكبير «الشيخ عبدالرشيد إبراهيم» طوال عمره المديد حتي توفي سنة ١٩٤٤م، يوم ٣١ أغسطس..

بدر الدين الحسني

(١٢٦٧-١٣٥٤هـ) (١٨٥٠-١٩٣٥م)

شيخ شيوخ الشام



عالم الدين الحق هو الذي يكون في الطليعة دائما، إذا دعا الناس إلي فعل الخير كان هو من السابقين إليه، وإذا نهي عن شئ، كان أول المنتهين عن إتيانه. وإذا ما دعا داعي الجهاد، كـــان في مقدمة الساعين إلي الشهادة، أو النصر. وهكذا كان عالم الشام «الشيخ بدرالدين الحســـني»، الـــذي لم يكتف بواجبه التعليمي في العلوم الشرعية والكونية، بل إنه قام بدور رئيسي في الجهاد ضد المستعمر الفرنسي.

هو «محمد بن يوسف بن عبدالرحمن»، بن عبدالغني المراكشي السبتي «نسبة إلي مدينة ســـبتة في المغرب». ينتهي نسبه إلي الولي الشيخ عبدالعزيز التباع، الذي ينتهي نسبه بدوره إلي الحســـن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. ولد في دمشق سنة ١٢٦٧هـ، الموافق ١٨٥٠م لأبوين فاضلين تقيين، يُشهد لهما بالصلاح، فوالدته السيدة عائشة الكزبري بنت المـــرحوم إبراهيم الكزبري من أعرق أسر دمشق علما وفضلا وحسبا ونسبا. وقد عرفت هذه الأسرة برواية الحديث.

أمـــا والــــده فهـــو السيد يوسف، ويكفيه فخرا أنه هو الذي استخلص دار الحديث الأشـــرفية بدمشق من يد بائع خمر حولها إلي مستودع للخمور، فعندما قدم هذا الرجل إلي دمشق، وسمع بذلك، حتي هب يستنصر أهل الشام لإزالة هذا المنكر، فرفع الأمر إلي الوالي، الـــذي لم يفعـــل شيئا خوفا من إغضاب القنصلية الفرنسية التي كان يتمتع بحمايتها تاجر الخمور. فما كان منه إلا أن ذهب إلي الأستانة، حيث حصل علي فرمان سلطاني بإنقاذ دار الحديـــث الأشرفية من يد ذاك الرومي. ولكن الوالي لم ينفذ الأمر السلطاني، فسعي السيد يوسف لدي «الأمير عبدالقادر الجزائري» -الذي كان يقيم في ذاك الوقت بدمشق- واقنعه بشراء الدار من بائع الخمر. وتولي «السيد يوسف» إصلاحها وإدارة شئونها.

همـــة عظيمـــة:

نشـــأ «الشيخ محمد بدرالدين» في رعاية هذا الوالد العلامة «الشيخ يوسف»، وحفظ القرآن بمعونته وإرشاده، وقرأ عليه مبادئ العلوم حفظا وفهما.

ولمـــا بلـــغ الثانية عشرة من عمره، توفي والده، فجلس في غرفة والده بدار الحديث، وأخذ يدرس الكتب التي تركها له والده بهمة عظيمة، حتي أدهش علماء عصره بعقله، فقد حفظ اثني عشرة ألف بيت من الشعر في فنون مختلفة، وهو لم يتعد الثانية عشرة من عمره، ولم يكـــد يكمـــل الثانية عشرة إلا وقد نبغ نبوغا باهرا استلفت أنظار مشايخه، فأجازوه، وأذنوا له بالتدريس.

أقبل الشيخ الشاب علي تحصيل العلم بهمة صادقة، وعزيمة صحيحة، لا يفتر عن ذلك أنـــاء الليل وأطراف النهار. وكان حصاد خلوته هذه أنه ألف نحوا من أربعين مؤلفا قبل أن يكمل سن العشرين، معظمها كان شروح وتعليقات علي الكتب والمتون المعتمدة. وحفظ صـــحيحي البخاري ومسلم بأسانيدهما، وموطأ مالك، ومسند أحمد، وسنن الترمذي وأبي داود والنســـائي وابـــن ماجة، وكان يحفظ أسماء رجال الحديث، وما قيل فيهم من جرح وتعديل.

و لم يكـــن قد تجاوز الثلاثين من عمره، حتي تصدر للإقراء والتدريس، فألف الكتب الكثيرة وأقرأ الكتب الكبيرة. وليس هذا بمستغرب علي شاب انكب علي المطالعة وأولع بها كـــثيرا منذ كان صغيرا جدا. وساعده علي ذلك تجنبه كثرة الاختلاط بالناس، وابتعاده عن فضول الأمور. فكان لا يتكلم إلا بمالا بدمنه من الكلام.

وأشاد به كل علماء عصره، قال العلامة الشيخ بهجة البيطار: كان أعلم محدثي الشام، علم وحفظ ودراية وكتب ودراسة، أما الحديث فلا نعلم له نظيرا في حفظه. ولا في ضبط رجالــه ومعـــرفة سنده. وحسبه روايته في الجامع الأموي تحت قبة النسر، من بعد فريضة الجمعـــة إلي أذان العصـــر، وقـــد دأب علي ذلك نحو ثلاثة أربا ع قرن. وأما دار الحديث الأشرفية، فقد كان يجلس فيها للدرس صباح كل جمعة وثلاثاء، و لم يكن يقرأ للطلاب فيها مـــن كتب العلوم الشرعية والعربية والعقلية إلا مطولاتها وصعابها، فقد رأي أن هذه الكتب ترفع الهمم وتقوي الملكات في الفهم، وتُعين علي دفع الإشكالات والشبهات.

كـــان يقضـــي يومه في حركة دائبة وعمل مستمر، لا يكاد يستريح إلا سويعات من الليل ينام فيها، ثم يقوم قبل الفجر للعبادة والطاعة والعمل المستمر.

عمـــل رائـــد:

يشـــرح أحد تلاميذه، نمط عمله اليومي، يقول «الشيخ محمود ياسين»: كان «الشيخ بدرالدين» يُصلي الصبح في الجامع الأموي ثم بعد أن يقرأ بعض أوراده يذهب إلي غرفته في دار الحديـــث، وحوله جماعة ممن ولعوا به، فإذا وصل إلي باب المدرسة أقبل عليهم بوجهة وطلب منهم الدعاء، ثم سلم ودخل غرفته، وهناك يتم بقية أوراده، ثم يُصلي صلاة الضحي التي لم يتركها حتي في سفره إلي الحجاز ولا يوم وفاته.

وبعـــد أن يقضـــي إغفاءة، يبتدئ الدروس التي تمتد إلي ما بعد الصحوة الكبري، فإذا قـــرب الظهر توضأ واستقبل القبلة، ودعا، وصلي ما شاء الله له أن يصلي، فإذا أذن الظهر صـــلاها بجماعـــة، وأقبل بعد قراءة أوراده علي الدروس، فإذا قرب العصر تهيأ، ثم بعد أن يصـــليها مع الجماعة يعود إلي الدروس في بيته، وهذا الدرس يحضره بعض الطلبة وكثير من

العامة، ويؤخر صلاة العشاء لأجله، فإذا صلاها مع الجماعة ذهب فورا إلي مضجعه من غير أن يكلم بعدها أحدا، فينام وهو ذاكر الله تعالي، ثم يقوم للتهجد حتي يقرب الفجر، فيأتي الجامع الأموي فيصلي فيه الفجر.

وهكذا كانت حياته دائرة بين ذكر وصلاة ودعاء ومناجاة وصيام وقيام ودروس خاصة وعامة، وشفاعة لدي حاكم، ونصيحة له، وسؤال عن أحوال الناس، وعن أسعار أقواتهم، ومواضع شكاتهم، وترحيب بزائر وطلب الدعاء منه، وزيارة للسجون يتفقد أحوال المسجونين بها ويعظهم، وكذلك القبور، وصلة الأرحام، وعيادة المرضي، وجمع للناس علي الله تعالي، وتخويف من عقابه.

داعية وطنية:

وكان «الشيخ بدرالدين الحسني» من دعاة الوطنية والجهاد في سبيل الله والوطن، فقد كان يهيئ نفوس مريديه، ويعدهم للقتال، ويبين لهم فضل المجاهدين بأموالهم وبأنفسهم مصداقا لقول الله سبحانه وتعالي: ﴿**انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ [التوبة، الآية: ٤١].

وكان يحدثهم عن أن المسلم يقاتل إما للنصر وإما للشهادة، وللشهداء منزلة عالية عند ربهم، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين**﴾ [آل عمران، الآيات من ١٦٩ - ١٧١].

هذه الرغبة في الجهاد التي كان يزرعها في قلوب وعقول تلاميذه، كانت راسخة مستقرة في وعيه ويقينه، لذلك لم يكتف بواجبه التعليمي في العلوم الشرعية والكونية بل اضطلع بدور رئيسي وهام في إزكاء النفوس وإشعال نار الثورة للجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، فقد رفض مقابلة الجنرال الفرنسي «غورو» عندما وصل إلي دمشق، وحض الناس علي عدم دفع الضرائب للفرنسيين أو التعامل معهم، وصار يعلن في مجالسه الخاصة وفي دروسه أن الجهاد ضد الفرنسيين فرض علي الناس.

إعداد النفوس للثورة:

وحتي يُعد النفوس للثورة والجهاد، خرج «الشيخ بدرالدين» مع بعض تلاميذه، ومنهم الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب. يجوبون البلاد داعين إلي الجهاد والثورة علي ظلم واستبداد الفرنسيين، بدأوا رحلتهم من دمشق في سنة ١٩٢٤م، إلي دوما وإلي حمص

وحمـــاة، وإلى حلب، طافوا في سورية كلها، وكانوا كلما وصلوا إلى بلدة أو قرية، خرج أهـــلها عـــلي بكرة أبيهم لاستقبالهم بالأهازيج والمواكب، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد، فتكـــلموا فيه ووعظوا، وحمسوا واثاروا العزة الإسلامية في النفوس، وذكروا بالمجد الغابر، وحـــثوا علي الجهاد لإعلاء كلمة الله، فكانت هذه الرحلة هي العامل الأول والمباشر لقيام ثورة ١٩٢٥م السورية ضد الفرنسيين، التي امتدت سنتين، وأذهلت ببطولتها العالم كله.

كـــان يعيش في سعة من دنياه، ولكن الدنيا كانت في يده لا في قلبه، وكان اعتماده عـــلي الله، لا عـــلي المال، فلا يحرص عليه حتي يناله من غير محله، ولا يجزع إذا ذهب بغير عملـــه، عاش ثمانين سنة بالعلم وللعلم، ما جري فيها بغير العلم لسانه، إلا أن تكون كلمة لابد منها*.

أكـــثر مـــن جبهـــة:

ظل طوال هذه السنوات يقوم بالواجب الكبير، والجهاد العظيم المزدوج الجبهة. جهاد ضـــد المســـتعمر، وجهاد ضد الجهل والظلام والفساد، لا يكف عن تعليم، ولا يغيب عن درس، يحـــافظ علي نظام عمله وترتيب أوقاته.. ومازال في حيوية ونشاط، كان وهو ابن ثمانين سنة ظننته ابن الثلاثين، مازال في حركته الدائبة، وهمته الكبيرة وعمله الشاق، لا يغير مـــنها شيئا طيلة سبعة وثمانين عاما، لم يقطع درسا، ولم يؤجل مجلسا. اللهم إلا ما كان في الـــيوم الســـابق لوفاته. رغم نصح الأطباء له بالتوقف عن هذا النشاط قبل ذلك بأمد غير يسير.

ولمـــا أحـــس الشـــيخ بدنو أجله، ازدحم طلابه وأحبابه حوله حتي شعر بالاحتضار، فسارعوا بالانصراف ليتركوه يلاقي ربه وحده وهو يناجيه بالذكر والدعاء والشكر. وأسلم الـــروح إلى بارئها، وكان ذلك بعد الضحي بساعة من صباح يوم الجمعة السابع من ربيع الأخر سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية، الموافق الثامن والعشرين من حزيران سنة خمـــس وثلاثين وتسعمائة وألف ميلادية. وخرجت سورية بعلمائها، ومعها عدد من علماء البلاد العربية والإسلامية في وداع العالم الكبير.

رحـــم الله العالم العامل الذي قال عنه صاحب حلية البشر «عبدالرزاق البيطار»: عالم إلا أنـــه عـــامل، وفاضل غير أنه كامل، قد اعتصم بحبل السنة والكتاب، وانتظم في سلك المتمسكين بأقوال الصحاب.

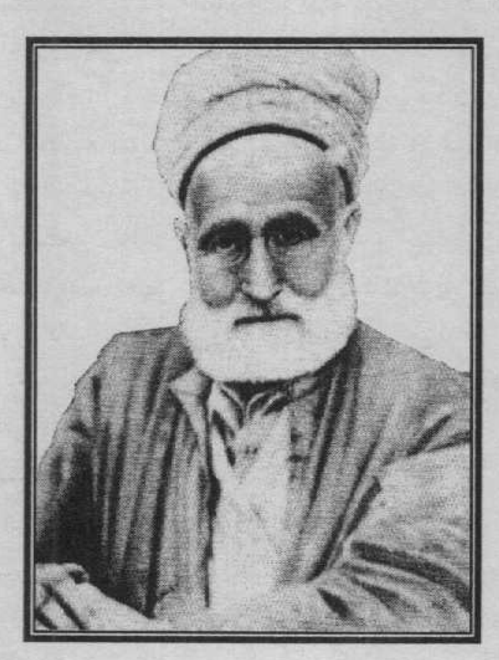
---

*الدكتور محمد حسن الحمصي «الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة، المنطلقة من مساجد دمشق»، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ص٨٠٦.

الشيخ طاهر الجزائري

(١٨٥٢- ١٩٢٠م)

داعية نهضة وتحرر



في فــترة الظلام الفكري التي خيمت علي الوطن العربي والإسلامي عند ما ضعُفت الخلافة العثمانـــية، هب بعض الرجال يطالبون القافلة النائمة ان تستيقظ وتعاود السير، وصرخوا بأعلى الصـــوت ناعين علي الناس استسلامهم وركوهم، مطالبين بمحاربة الاستبداد ونفض تراب الجهل داعين إلى نهضة جديدة، وكان في مقدمة هؤلاء علماء الدين من مصر وسوريا.

ومـــن علماء الشام الذين نذروا أنفسهم لهذه المهمة وكرسوا كل حياتهم من أجلها «الشيخ طاهـــر الجزائـــري» الذي ترك في كل مظهر من مظاهر الحياة في الشام أثرا، وفي كل ناحية من نواحي الإصلاح عملا فكان باعث نهضة وكان معلم جيل.

كانـــت رسالة «طاهر الجزائري تحفيز العرب إلى الزهو بمجد آبائهم والعمل علي إعادة ذلك المجـــد متسلحين بالعلم، وكان الشيخ من أوائل من رغب فيه ودفع إليه داعيا إلى العودة إلى اللغة العربية الفصحي والبيان العربي.

بشـــير الخـــير:

تميز «الشيخ طاهر» عن غيره من دعاة النهضة العربية بأنه كان يترك اثرا من الخير أينما حل، فكان بمجلسه حيثما جلس مدرسة ولقاؤه أينما لقيته درس يعلمك مسألة أو يرشدك إلى كتاب أو يلقنك خلقا من أخلاق الخير، كان يعلم بفعله لا بقوله كما يقول «علي طنطاوي» دعا إلى النظر في الكتـــب فلم يدع كتابا لم ينظر فيه، ودعا إلى التأليف فكان له من المؤلفات العديد، ودعا إلى حفـــظ الوقـــت وتنظيمه فلم يكن يضيع من وقته لحظة في عمل غير نافع، ودعا إلى الرجوع إلى أخلاق المسلمين الأوائل من الصراحة والصدق وترك الأباطيل فكانت حياته كلها كذلك.

وكاد ييأس المصلحون ولكن الشيخ لم ييأس ولم ير مستحيلا إيقاظ هؤلاء العرب الذين ناموا دهـــورا طوالا تحت أغطية الجهل والخمول، ولم يسلك طريق الطفرة فقد كان يري ان الطفرة لا تأتي بخير، ولا الثورة فالثورة لا تشيد وانما تبيد، بل عمد إلى إزالة أسباب الداء، والي الترغيب في العـــلم وحـــث عليه ليحارب الجهل، ورد الناس إلى اللغة وتعريفهم فضلها ونشر أخبار السلف وتاريخ الفتوح لنفي الخمول.

التلاميـــذ والمريـــدون:

كـــان الجزائري يجمع حوله طائفة من أعلام الشباب هم صفوة خلطائه وعيون مريديه، فيشرح لهـــم الـــرأي ويبين لهم الطريف وطائفة من الشيوخ يعرض لهم تعريضا ويمهد لهم تمهيدا، وطائفة من الفتـــيان يُنشئهم علي برنامجه ويسيرهم من حيث لا يشعرون في طريقه وطائفة من العامة يقنع منهم بـــتقويم الأخـــلاق وإصلاح المجتمع، وكان يعطي كلا ما يناسبه كالطبيب الذي يحمل الدواء الشافي ويـــدور عـــلي المرضـــي فلا يعطي إلا بمقدار ولا يداوي إلا عن بينة من المرض، وكان أيضا يجالس الموظفـــين الكبار والباشوات الأتراك يأمل ان يوجههم إلى فضل الخير، عندما رأي الكتب المخطوطة معرضـــة للتلف والضياع لتفرقها في المساجد والزوايا فكر في جمعها في مدرسة الملك الظاهر التاريخية بدمشـــق، وقتها كان الشيخ مفتشا بالتعليم عارضة أعداء كل إصلاح واشترطوا موافقة الوالي، ولولا صداقته إياه لضاعت هذه الكتب ولم تنشأ دار الكتب الظاهرية.

واستفاد من صلته برجال الحكم الأتراك في افتتاح المدارس العصرية بعد أن كان التعليم قاصرا علي الكتاتيب للصغار وحلقات المساجد للكبار، بل انه افتتح أيضا مدارس البنات في هذا الوقت المبكر من بدايات القرن العشرين.

كـــان رجل تعليم من الطراز الأول، يري ان يرتقي الإنسان إلى مدارج الكمال خطوة خطـــوة، وكان ينهي عن العنف ويدعو إلى التلطف في معاملة التلاميذ، فقد كان اشد خلق الله تشـــجيعا للناشئين وتنشيطا للعاملين، يحاول ان يوصل الناس جميعا إلى المثل الأعلى، لا يرفعهم جميعا إليه، وكان يسعي جاهدا ان يقربهم من المثل الأعلى ويسهل لهم بلوغه، وكان يقول لأصحابه: ان جاءكم من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام فلا تقولوا له ان هذا مستحيل بـــل علموه، فلعل اشتغاله هذه الأيام الثلاثة بالنحو تحببه إليه فيقبل عليه، وكان كلما لاحظ علامات الفهم والذكاء في أ حد أخذ بيده علي طريق العلم وسهل له تحصيله وشجعه عليه، وقد اهتم بإدخال العلم إلى بيوت الأكابر.

قيمـــة العـــلم:

لم يكـــن مهتما فقط بالعلوم الدينية الشرعية، فبالرغم من انه شيخ إلا انه كان له ذهن رجل درس في أوروبا، يعرف قيمة العلوم الجديدة والعمل المنظم وأهمية الصحافة وأثرها.

قضـــي هـــذا الشيخ معظم وقته في القراءة والعلم والتأليف كان يقضى ساعات طوال يـــدرس ويؤلف، وكان أكثر مقامه في مدرسة عبد الله باشا بدمشق فإن كان مشغولا وجاء إلـــيه أحـــد، أطل فقال له: «مشغول عد في وقت آخر» مهما كانت مترلة هذا الزائر، فإن دخـــل علـــيه أحد من حيث لا يشعر دفع إليه كتابا وقال خذ أقرأ هذا وتركه وعاد إلى ما كان فيه، ومن قوله في ذلك «اشغلوهم قبل ان يشغلوكم».

لقـــد كـــان «الشـــيخ طاهر الجزائري» أديب باحث لغوي عارف بالكتب ومؤلفيها وأماكن وجودها، شارك في أنواع العلوم المختلفة، وكان يجيد معظم اللغات الشرقية، وأصله من الجزائر، وُلدَ في دمشق في ربيع الثاني من عام ألف ومائتين وثمانية وستين للهجرة الموافق عـــام ألـــف وثمانمائه واثنتين وخمسين ميلادية، تعلم في الكتاتيب ودرس في الجامع الأموي، وكـــان مُجـــدا في تحصيل العلوم الشرعية وغير الشرعية، وعُين مفتشا في دمشق، ثم اختير عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي ومديرا لدار الكتب الظاهرية.

عـــزة وإبـــاء:

ولعـــلمه وبســـاطته وتفتح ذهنه تحلقت حوله طبقة من شيوخ دمشق والعلماء النابهين فيها، ولأنـــه كان داعية من دعاة التحرر ناصبه رجال الحكم العداء فلم يتراجع عن موقفه واضطر إلى الهجرة إلى مصر، حيث مارس هناك نشاطا ملحوظا في الأعمال السياسية وفي الدعوة إلى التحرر وترك القديم البالي والأخذ بأسباب النهضة من خلال الكتابة في الصحف والمجلات.

وفي مصر كانت حياته كلها عزة وإباء، فقد كان هذا الشيخ شديد الثقة بالنفس ولا يفرط أبدا في كرامته، وعند ما جاء إلى مصر لما ضاقت الشام وحكامها بدعوته أخذ يبيع من كتبه ومن ذخائر المخطوطات التي أفني حياته في اقتنائها، إذ كان يبيع الكتب حتي يعيش من ثمنها وحتي لا يضطر للاستدانة من أحد، حتي ولو كان أقرب الأصدقاء.

ومن فرط وطنيته وكراهيته للمستعمر كان يرفض الثمن الغالي الذي كانت تعرضه مكتبة المتحف البريطاني مقابل كتبه وأمثالها من المؤسسات الأجنبية، أو من الناس الذين يشترون الكتب للتجارة، وكان يذهب إلى دار الكتب المصرية يبيعها كتبه بنصف الثمن ليبقي الكتاب في أيدي العرب ولا يخرج منها الي أيدي الأجانب.

حاجة وكرامة:

وعندما نفدت كتبه وضاقت به الحال سأل «أحمد تيمور» باشا «الشيخ علي يوسف» صاحب المؤيد أن يحدث الخديوي سنة ١٩١٣م ليمنح «الشيخ طاهر الجزائري» مرتبا دائما أسوة بمن كان يمنحهم المرتبات من العلماء والأدباء، ونجحت وساطة الشيخ «علي يوسف» وأمر الخديوي بمنح «الشيخ طاهر الجزائري» معاشاً، فغضب أشد الغب وقال «للشيخ علي»: كأني بك قلت للخديوي: أن «الشيخ طاهر» اثني عليك، نعم إني اثنيت عليه لتأييده مشروع زكي باشا في خدمة الكتب العربية ولكن ما الذي يضمن لك ألا يأتي الخديوي بضد هذا العمل الطيب يوما، وهنا يكون من واجبي أن أزمه وانتقده فلماذا تسود وجهك بسببي وتكون في موقف لا تحسد عليه؟.

ثم قال بغضب: ومن أذن لك ان تدخل نفسك في خصوصيات أمري؟

فقال له «الشيخ علي يوسف»: نحن أصدقاء ولقد وجدتك تعاني وقد نفذ ما كان لديك من كتب تبيعها وأنت ترفض الاستدانة من أحد.

فرد «الشيخ طاهر الجزائري» في شمم وإباء «العالم الحر لا يقبل أبدا أن يعيش علي عطايا أصحاب السلطان وإلا كان تابعا لهم لا يقوى أبدا علي أن يرفع عينيه أمامهم أو ينتقد غير الصالح من أعمالهم، وأنا عالم حر صاحب رأي ولا أريد لنفسي أبدا أن أكون مجاملا لأحد، حتي ولو كان صاحب سلطان أو نفوذ».

قال «الشيخ علي يوسف» وماذا أفعل الآن هل ترد منحة الخديوي؟

قاله له «الشيخ طاهر»: اذهب فأبطل ما سعيت بإتمامه.

ورجع يعيش عيش الكفاف والتقتير بأثمان ما بقي من كتبه فكان الشيخ علي يوسف يقول بعد ذلك.

«كنت أظن أن هذه الطبقة من العلماء قد انقرضت فلما رأيت «الشيخ طاهر» علمت أنه لا يزال علي وجه الأرض بقية منها».

ولماضاقت به الحال عاد «الشيخ طاهر» إلى دمشق حيث اشتد به المرض الذي لم يمهله أكثر من أربعة أشهر، حيث توفي في الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٢٨هـ الموافق ٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٠م، ودُفِنَ في سفح جبل قاسيون*.

---

* علي الطنطاوي، «رجال من التاريخ»، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى،١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص٣٧٢.

الإمــــام الخضــــر حســـين

(١٨٧٦-١٩٥٨م)

المهـــاجــر بديـــنــه ونضـــالــه



هذا الرجل من عظماء الجهاد الفكرى، مؤمن صادق فى إيمانه، مجاهد أخذ على عاتقه مهمـــة الحفـــاظ عـــلى حرية الكلمة، ومقاومة حركات المسخ والتغريب التى تعرض لها الإســـلام، وكـــان من أخطرها ما جاء على يد أبنائه من أمثال «على عبد الرازق» و«طه حسين».

هذا الشيخ آمن بالإسلام ودعوته، وأحب من صدر حياته أن يكون من الذين قال الله ســـبحانه فيهم: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون**﴾.

قاتل فى صفوف الوطنيين ضد الاحتلال والاستبداد الفرنسى، حتى حُكم عليه بالإعدام ففـــر بديـــنه إلى عـــدد من الأقطار الإسلامية، ثم استقر بمصر، التى فتحت ذراعيها لجهاده وتقواه وعلمه وورعه، وبادلته حباً وتقديراً حتى أصبح شيخاً للأزهر الشريف. وتمثيل حى لوحدة العرب والمسلمين وتجسيداً لضرورة التكامل العربى الإسلامى.

نسب شريف:

فمـــن أســـرة جزائـــرية «شريفة» يرتفع نسبها إلى الأمراء الأدارسة، بالمغرب، جاء والده،.. ومن أسرة تونسية اشتهرت بالعلم والفضل والتقوى، جاءت والدته.

وفى مديـــنة «نفطة»، من أعمال «الجريد» بجنوب القطر التونسى، ولد الشيخ الفاضل «محمد الخضر حسين»، فى ٢٦ رجب سنة١٢٩٣هـ، ١٦ أغسطس سنة ١٨٧٦م. وفى هذه المديـــنة كانت نشأته الأولى، التى تأثر فيها بأبيه، وبخاله السيد محمد المكى بن عزوز، الذى كان من كبار العلماء، وموضع احترام رجالات الدولة العثمانية يومئذ، وله مؤلفات علمية معروفة.

وفى هـــذه النشأة الأولى «بنفطة»، حفظ شيخنا القرآن الكريم، وألم بجانب من الأدب والعلوم العربية والشرعية.

وعندما وصل إلى الثانية عشرة من عمره، انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة، وفى عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) التحق بجامع الزيتونة، حيث تقدم فى تحصيل العلم، وظهرت علامات نبوغه فى علوم العربية وعلوم الشريعة، وتجلى ذوقه الأدبى فى الإنشاء وفى التذوق.

قلـــم ولســـان:

ونال شهادة العالمية فى سنة ١٣٢١هـ (١٩٠٣م) وأصبح من علماء الزيتونة، وأنشأ فى نفـــس العـــام مجلـــة [السعادة العظمى] التى كانت رائدة المجلات العلمية والأدبية فى بلاد

الشـــمال الإفـــريقى يومئذ، فلفت الأنظار إلى قلمه ولسانه، فلقد كان خطيباً ومحاضراً إلى جانب كونه أديباً وشاعراً وكاتباً.

وتـــولى سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٥م) قضاء مدينة بنزرت ومنطقتها، إلى جانب التدريس والخطابة بجامعها الكبير. وفى يونيو ١٩٠٦م ألقى محاضرة عن «الحرية فى الإسلام» فكشف بهـــا عن موقف فكرى ذى مغزى فى بلد يستبد بحكمه المستعمرون الفرنسيون، ثم استقال مـــن قضـــاء بنـــزرت وعاد إلى مدينة تونس مدرساً بالمدرسة الصادقية، ثم عُين بعد ذلك مدرساً بجامع الزيتونة.

وفى عـــام ١٩٠٧م اشترك فى تأسيس «الجمعية الزيتونية» وأخذ على عاتقه الدعوة إلى إحـــياء قيم الحرية والعروبة فى وطن يخضع لاستعمار ينهب خيراته ويستبد بمقدراته ويمسخ هويته العربية والإسلامية.

وعـــندما زحفت الجيوش الإيطالية على ليبيا سنة ١٩١١م، وقف الشيخ الخضر بقلمه ولسانه، ومن خلال مجلة [السعادة العظمى] يستنفر الأمة لتقاوم الغزو الإيطالى، ويستنهض الدولـــة العثمانية -التى كانت تحكم العالم العربى- استخلاص الحق من غاصبيه. ودعا إلى التعبـــئة العامـــة وشحذ الهمم، وبعث الروح الإسلامية والبطولات العربية، والتأكيد على الإخوة الإسلامية.

الهجـــرة إلى الأســـتانة:

وفى هـــذه الفـــترة رفض رغبة الحكومة الفرنسية فى ضمه إلى سلك القضاء فى المحاكم الفرنســـية. وكـــان لابد من الصدام بين الشيخ المناضل الرافض للتعاون مع المستعمر وبين ســـلطات الاستعمار الفرنسى فى تونس، فوجهت هذه السلطات إليه فى سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م تهمـــة بث روح العداء للغرب، وخاصة السلطات الفرنسية فى تونس، وهى تهمة تصل عقوبتها إلى الإعدام، فهاجر بدعوته وبجهاده إلى الأستانة، مواصلاً سعيه لتخليص بلده وأمته من الاستعمار، معلناً أن ذلك لا يكون إلا بالدعوة إلى الله، وإحياء الوحدة الإسلامية من جديد، وبعث روح الجهاد فى نفوس المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

وخلال تجواله ما بين دمشق والقاهرة والأستانة وألمانيا تَعَرف على كوكبه من العلماء الأعـــلام المناضـــلين فى ســـبيل النهضـــة العربية والإحياء الإسلامى، منهم «الشيخ طاهر الجزائـــرى»، و«السيد محمد رشيد رضا»، و«السيد محب الدين الخطيب»، و«أحمد تيمور» باشا، وعُين فى دمشق مدرساً للغة العربية فى المدرسة السلطانية (١٩١٢م) ولنشاطه الوطنى الملحوظ اعتقله أحمد جمال باشا الحاكم العام فى سورية لعدة أشهر، حتى أنقذه من السجن تدخل وزير الحربية العثمانى أنور باشا، وبعد خروجه من السجن أوفده أنور باشا إلى برلين

مـــرة ثانـــية حيث التقى فيها بزعماء الحركات الإسلامية: «الشيخ عبد العزيز جاويش»، والدكتور «عبد الحميد سعيد»، والدكتور «أحمد فؤاد». ثم عاد إلى الأستانة، ثم إلى دمشق.

الاســـتقرار بمصـــر:

وكـــان الشيخ قد سئم كثرة الأسفار وعدم الاستقرار، فاستقر عزمه على أن يستوطن القاهرة فألقى بها عصى ترحاله الذى استمر عشر سنوات، فأقام بالقاهرة سنة ١٩٢١م.

وفى القاهـــرة أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمى المنظم والنشاط الإصلاحى الدائم، فوضـــحت معـــالم نضـــجه فى الـــتجديد والإصلاح وتكونت من حوله حلقات الطلاب والمريدين، وأخذت تأثيرات علمه وإصلاحه تلفت إليه أنظار العلماء وطلاب الإصلاح.

وتجـــنس بالجنسية المصرية، ثم تقدم إلى امتحان العالمية بالجامع الأزهر، فحصل عليها بجدارة، وأصبح واحداً من علماء الأزهر الشريف.

ولم يمـــنعه الانخـــراط فى هيئة كبار العلماء والاشتغال بالبحث والتحقيق عن مواصلة النهوض بمسئولياته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربى، وأيضاً رعاية حقوق وطنه الأصلى تونـــس، وأشقائه الرازحين بالمغرب تحت نير الاستعمار الفرنسى، فأسس سنة (١٩٢٤م) «جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية» لتكتيل وتحريك جهود أبنائها فى خدمة قضية تحرير هذه البلاد من الاستعمار.

معـــاركة الفكريـــة:

وفى ســـنة ١٣٤٤هـ (١٩٥٢م) بدأت معاركة الفكرية الكبرى دفاعاً عن الإسلام ضد من أرادوا النيل منه، وخاصة من أبنائه. ففى هذا العام أصدر الشيخ على عبد الرازق كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فكان أول كاتب مسلم يسعى إلى زرع العلمانية فى العقل الإسلامي، وفى واقع المســـلمين، بل وإلى علمنة الإسلام، وكان أخطر ما فى هذه المحاولة – كما يقول الدكتور محمد عمارة – أنها جاءت فى ثوب إسلامي، وتحت رايات إسلامية، ومن عالم فاضل تخرج من الجامع الأزهر، ويشغل منصب القاضى فى المحاكم الشرعية الإسلامية.

ورغـــم أن الشيخ الخضر حسين كان صديقاً للشيخ على عبد الرازق وعائلته، لم يمنعه ذلـــك بدافـــع من غيرته على دينه أن يهب دفاعاً عن الإسلام منذ هذه الهجمة العلمانية، فعكـــف عـــلى الـــرد على كتابه ونقضه، وذلك من خلال كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» الذى نفذت طبعته خلال شهر واحد.

عمـــد «الشيخ الخضر» فى كتابه إلى نهج يغنى قارئه عن قراءة الكتاب الذى يرد عليه وينقضـــه، حتى لا يكاد الرجل يترك من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فقرة إلا أوردها ليـــناقش صاحبها ولينقدها، ونقض فكرتها أو يبين رأيه فيها، فهو يتبع أبواب الكتاب باباً

بعـــد باب، و لم يقف الخضر حسين فى نقد مصادر خصمه، عند ما استند إليه الخصم من نصوص واقتباسات بل يعود إلى المصادر التى يقتبس منها الخصم. واستمر فى نقضه لأفكار الكتاب فكرة فكرة حتى بين للناس الباطل الذى يحمله مضمون الكتاب عندما أراد صاحبه أن يجرد الإسلام من طابعه ودوره السياسى.

وأكـــد فى رده على كتاب «الإسلام وأصول الحكم» أن من يقول بما قاله الشيخ على عـــبد الرازق يخدم الاستعمار خدمة جليلة، فهو يدعو إلى تجريد الإسلام من طابعة ودوره السياســـى، وتجريد الدولة فى وطن المسلمين من صبغتها الإسلامية، وتقديم الإسلام ديناً لا دولـــة، ورســـالة روحية لا شرع فيها ولا سياسة، ذلك أن المسلمين فى ظل الاستعمار إذا اهتموا «بما لله»، وتركوا «ما لقيصر لقيصر» كان المستفيد الأول من ذلك هو الأجنبى. لأن قيصر هنا هو الاستعمار.

فعلمـــنة الإسلام -كما يرى الشيخ- هى فى حقيقتها وبغض النظر عن النوايا تشريع يمنع الحرج والإثم عن ضمير المسلم إن هو خضع لسلطان أجنبى أو سلطة غير إسلامية، ومن ثم فإن اشتراط إسلامية الدولة وإسلامية القانون. هو فى الحقيقة دعوة للمسلمين كى يثوروا فى سبيل حريتهم وتسويد شريعة الإسلام فى الوطن الذى يعيشون فيه، وهذا ما لا يتحمله أو يريده المستعمر أو الحاكم المستبد.

الـــرد علي «طه حسين»:

وفى العـــام التالى (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م) ظهر كتاب «فى الشعر الجاهلى» للدكتور طه حســـين، فرد عليه الشيخ بكتابه «نقض كتاب فى الشعر الجاهلى» فصنع معه ما صنع مع كـــتاب «الإســـلام وأصول الحكم» عندما فنده فقرة فقرة وفكرة فكرة مع أدب رفيع فى الحـــوار، وبراعة فى الجدل، كشف عن عقل متمكن ومتمرس فى ميدان البحث والمناظرة، يغترف صاحبه من معين من العلم لا يغيض أو ينقص مائة.

وأثبـــت الشيخ الخضر حسين بما لا يدع مجالاً للشك فى كتابه «نقض كتاب فى الشعر الجاهـــلى» أن كـــل أفكار طه حسين منقولة عن «المستشرق الإنجليزى جب»، واستشهد ضمن استشهاداته على بطلان فكرة طه حسين بكتاب نشر بالإنجليزية للمستشرق الإنجليزى «تشـــارلس لـــيال» نقـــض فيه فكرة «جب» وأثبت بطلانها، حيث أقام الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة على أصالة الشعر الجاهلى.

تأســـيس الجمـــعيات:

وكـــان «للشـــيخ الخضر حسين» دوراً بارزاً فى تأسيس العديد من الجمعيات العالمية للتعريف بالإسلام والزود عن حضارته ضد فكرة التغريب، فأسس مع «أحمد تيمور» باشا

سنة ١٩٢٥م جمعية الشبان المسلمين، ثم أسس جمعية الهداية الإسلامية، التى ضمت كوكبة مـــن المثقفين ثقافة دينية ومدنية. ومن خلال هذه الجمعية ومجلتها قدم معالم دعوته للإحياء الإسلامى والنهضة العربية وتحرير ديار العروبة والإسلام.

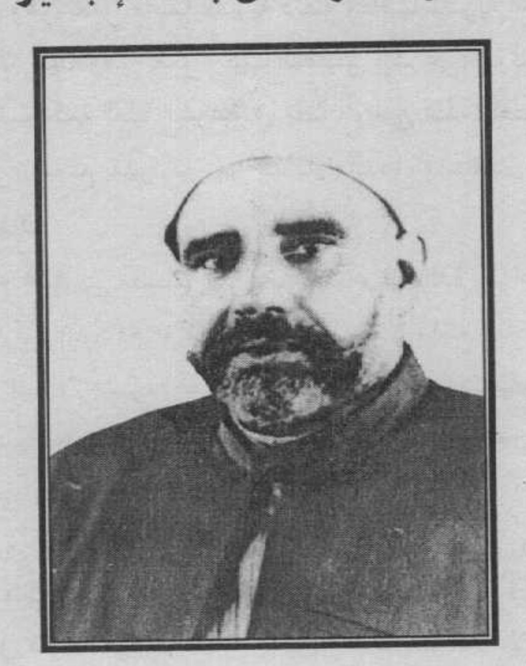
وقـــد كـــان «الخضر حسين» من أقدم أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، كما اختير عضـــواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق. وفى سنة ١٣٧٠هـ -١٩٥١م نال عضوية هيئة كبار العلماء.

وعندما قامت الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، كان منصب شيخ الأزهر شاغراً، فوقـــع اختـــيار الثورة وحكومتها على «الشيخ الخضر حسين» إماماً أكبر وشيخاً للإسلام ووجهـــاً مشـــرفاً لهذه الجامعة العريقة تطل من خلاله على عالم العروبة والإسلام، فنهض بالأمانـــة مـــا وسعته الطاقة فى يوم الثلاثاء ٢٦من ذى الحجة ١٣٧١هـ (١٦سبتمبر٥٢م)، ولديـــه أمـــل عريض فى برنامج إصلاحى كبير للنهوض بتلك المؤسسة الإسلامية، وجعلها وسيلة لبعث النهضة الإسلامية العظمى، التى يتطلع إليها العالم الإسلامى فى جميع القارات. وأعطـــى الإمـــام للمنصب حقه. وعندما شعر بضغوط تحول بينه وبين تنفيذ ما يريد، أو تطلـــب منه تنفيذ ما لا يرضى صمم على الاستقالة فى ٧ يناير سنة ١٩٥٤م، قائلاً كلمته الشـــهيرة: «يكفـــينى كـــوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا العفاء». وكان خلال قيامه بواجبات منصبه يقول دائماً: «إن الأزهر أمانة فى عنقى، أسلمها -حين أسلمها- موفورة كاملـــة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدىّ فلا أقل من ألا يحصل لـــه نقص». ومن ذلك التاريخ تفرغ للبحث والكتابة والمحاضرة، حتى وافاه الأجل، فانتقل إلى جـــوار ربـــه مساء يوم الأحد رجب سنة ١٣٧٧هـ ٣ فبراير سنة ١٩٥٨م. وقد امتد موكب جنازته ما بين ميدان باب الخلق والجامع الأزهر الشريف.

الإمـــام المـــراغى

(١٨٨١-١٩٤٥م)

الرجل الأكثر خطراً على بلاد الإنجليز



«إن هـــذا الرجل أخطر علي بلادنا وحياتنا من ويلات الحرب..» هذا ما قالته التايمز الـــبريطانية عـــن قضـــيلة الشيخ محمد مصطفي المراغى شيخ الأزهر في فترة الحرب العالمية الثانـــية، فقـــد رفض هذا الرجل بشدة أن تشارك مصر انجلترا في حربها ضد الألمان ودول المحور، قائلا قولته المشهورة «إنها حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل».

و«المـــراغى» هـــو أصغر من تولى منصب مشيخة الأزهر سناً، وقد تولى هذا المنصب مـــرتين رغم مواقفه المناوئه للحاكم، وفتاواه التي لم تكن ترضى السلطان. ورغم معارضته لأن يكـــون حاكم مصر خليفة للمسلمين. وهو تلميذ الإمام «الشيخ محمد عبده»، وسار علي منهاجه في كل ما تولى من مناصب دينية.

فـــلم يتقـــيد بمذهـــب أبي حنيفة كما كان المتبع آنذاك، وتزعم الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وتوحيد المذاهب حتى تتوحد الأمة.

هكـــذا كان وهو يعمل قاضيا لمديرية دنقلة وقاضيا لمديرية الخرطوم، وقاضيا للقضاة بالســـودان. وهكذا كان وهو يعمل رئيسا للتفتيش الشرعى، ورئيسا للمحكمة الابتدائية الشرعية، ورئيسا للمحكمة العليا الشرعية في مصر، وحتى عندما أصبح شيخا للأزهر.

وكان «المراغى» يتمتع بقدر كبير من الذكاء والدهاء واستقلال الرأى والشخصية.

قاضى قضاة السودان:

وُلِـــدَ «الشيخ محمد بن مصطفي ابن محمد المراغى» ببلدة «مراغة» مركز طهطا محافظة ســـوهاج في ٩ مارس ١٨٨١م. وكان والده عالما جليلاً واسع الثقافة، وظهرت نجابة الأبن مـــبكراً فأرسـله إلى الأزهـــر، حيـــث اتصل بالشيخ «محمد عبده» وتأثر بفكره، وانتفع بمحاضـــراته في الـــبلاغة والتوحيد والتفسير، شجعه -محمد عبده- علي أن يعود للمصادر الأصيلة، وألا يكتفي بالقشور.

وكـــان أصـــغر مـــن حصل علي شهادة العالمية سنة ١٣٣٢هـ. رغم أنه كان مريضا أثناء الامـــتحان. ولمـــا طلبت حكومة السودان من «الشيخ محمد عبده» اختيار قضاة السودان، رشح «المـــراغى»، فـــتولي قضاء الخرطوم سنة ١٩٠٤م. وهناك تعلم اللغة الإنجليزية، واتسعت علاقاته بـــزملائه وأصدقائه السودانيين، كما توثقت علاقته بحاكم السودان الإنجليزي رغم حفاظه علي جـــلال المنصـــب الذي يشغله، ومع تمسكه بالقواعد الشرعية، ومع حرصه علي هيبة شخصيته. وطـــوال إقامـــته هناك عُرف عنه الميل إلى الاعتدال والنفور عن العنف، مع الاستقلال في اتخاذ القرار، ثم أصبح قاضي القضاه بالسودان (١٩٠٨م) وعمره ٢٧ عاما، فكان أصغر من تولى هذا المنصب.

ولمـــا أرادت حكومـــة السودان تعديل لائحة المحاكم الشرعية تمسك بأن من سلطته كقاضـــي القضاة أن يختار للقضاه الآراء الفقهية التي يحكمون بها، وأبى السكرتير القضائي، فاحتكما للحاكم الذي أقر رأي «المراغى».

وعندما قامت ثورة ١٩١٩م، وامتدت أثارها إلى السودان، وحاول الإنجليز قمعها في مصـــر بأساليب وحشية، أصدر الإمام المراغى نشرة ثائرة عنوالها «اكتتاب لمنكوبي الثورة بمصر» وصف فيها المآسى التي لحقت بمصر، واستجاب السودانيون للنداء، وقد أغضب هذا التصـــرف منه حاكم السودان إلا أنه لم يستطع أن يمنع السودانيين عن مناصرة إخوالهم في مصر.

ومـــن دلائـــل اعـــتزاز «المراغى» بكرامته، أن الملك الإنجليزي جوزج الخامس، مر بالسودان، وطلب من الموظفين أن يكونوا في انتظاره، علي ألا يصعد إلى الباخرة إلا الحاكم العـــام للسودان، وأصر المراغى أن يصعد إلى الباخرة قبل الحاكم العام، وإلا فلن يكون في استقبال الملك **جروج**، وتم له ما أراد.

ثم عـــاد «المـــراغى» إلى مصر في يوليو ١٩١٩م، وتنقل في عدة مناصب: حيث عمل كرئيس للتفتيش الشرعى بوزارة العدل، ثم رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الشرعية، ١٩٢٢م، وعضو المحكمة العليا الشرعية، فرئيسا لها سنة ١٩٢٣م. وكان في هذه المناصب جميعا أصغر من تولاها سناً.

آراؤه.. واتجاهاته الفكرية:

كان الشيخ «المراغي» معنيا بقضية الإصلاح والتجديد، مترسماً في ذلك خطى أستاذه «محمد عبده»، وقد اهتم الشيخ «المراغي» بإصلاح كل من الأزهر والقضاء.

(١) **إصلاح القضاء**: كان إصلاح القضاء هو الاهتمام الشاغل للإمام «المراغي» لتحقيق العـــدل والإصلاح بين الناس، وكان الشيخ يتبع أسلوبا جديداً مع المتقاضين، حيث كـــان يحاول أن يوفق بينهما دون اللجوء للتقاضي، وكان يرى أن القاضي يستمد أحكامـــه وقدراته من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، ولا سلطان لأحد عليه سوى الله ثم ضميره حتى يستطيع أن يؤدي رسالته في العدالة بين الناس دون الخوف من أحد، حتى ولو كان الحاكم أو السلطان.

وكـــان «الإمـــام المراغي» يرى أن إصلاح القانون هو إصلاح لنصف القضاء؛ لذلك شـــكل لجـــنة برئاســـته تكون مهمتها إعداد قانون يكون هو الركيزة الأساسية للأحوال الشخصية فى مصر.

وقـــد وجه «الإمام المراغي» أعضاء اللجنة المكلفة بإعداد القانون بعدم التقيد بمذهب معين، حيث كان القضاة لا يحيدون عن مذهب الإمام أبي حنيفة، الذي كان معمولاً به في ذلك الوقت، إلى غيره من المذاهب، ولكن «الإمام المراغي» كان يرى بضرورة الأخذ بغيره مـــن المذاهـــب إذا كان فيها ما يتفق مع المصلحة العامة للمجتمع، وكان مما قاله لأعضاء اللجـــنة : «ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان، فالشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة ما يجعلنا نجد في تفريعاتها وأحكامها في القضايا المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا في كل وقت».

إعـــادة النظر في قوانين الأزهر:

(٢) إصـــلاح الأزهر: كانت نصرة الإسلام وتطوير وإصلاح الأزهر على رأس أولويات «الشـــيخ المراغي»، لذلك شكل فور توليه مشيخة الأزهر لجاناً لإعادة النظر فى قوانين الأزهر، ومناهج الدراسة فيه.

كمـــا قدم قانوناً لإصلاح وضع الأزهر «للملك فؤاد» الذي كان مشرفا على شئون الأزهـــر آنذاك، إلا أن بعض حاشية الملك فؤاد أوعزوا له بأن الشيخ المراغي يريد استقلال الأزهر عن القصر، فرفض الملك فؤاد القانون، وأعاده إلى «الشيخ المراغي».

فمـــا كـــان من «الشيخ المراغي» إلا أن وضع القانون الخاص بإصلاح الأزهر في ظرف، واستقالته من مشيخة الأزهر في ظرف آخر، وطلب من «الملك فؤاد» حرية الاختيار، فقبل الملك فؤاد الاستقالة، ولكن الإضرابات عن الدراسة التي قام بها علماء وطلاب الأزهر، والتي استمرت أكثر من ١٤ شهرا أجبرت الملك فؤاد على إعادة «المراغي» شيخا للأزهر مرة أخرى.

وقـــام «الشـــيخ المراغي» بإنشاء ثلاث كليات تكون مدة الدراسة فيها أربع سنوات، تتخصـــص إحداها في علوم العربية، وهي كلية اللغة العربية، والثانية في علوم الشريعة وهي كلية الشريعة والقانون، والثالثة في علوم أصول الدين وهي كلية أصول الدين.

وقد دعا الإمام المراغي إلى ضرورة العمل على تحرير مناهج الأزهر من التقليد والتلقين في التدريس، والأخذ بالأساليب الحديثة، والتوسع في الاجتهاد.

ودعا الطلاب إلى دراسة اللغات الأجنبية ليكونوا أكثر قدرة علي نشر الإسلام والثقافة الإسلامية لغير المسلمين.

جماعة كبار العلماء:

وقـــد شكل «الإمام المراغى»لجنة للفتوى داخل الجامع الأزهر تتكون من كبار العلماء تكـــون مهمتها الرد علي الأسئلة الدينية التي تتلقاها من الأفراد والهيئات، كما شكل أكبر

هيـــئة دينية في العالم الإسلامي، وهى جماعة كبار العلماء، والتي تتكون من ثلاثين عضواً، واشترط الإمام المراغى في عضويتها أن يكون من العلماء الذين لهم إسهام في الثقافة الدينية، وأن يقدم رسالة علمية تتسم بالجرأة والابتكار.

وقــد دعــا ((الإمام المراغي)) للتقريب بين المذاهب الإسلامية والتقريب بين طوائف المســلمين، وبذل في سبيل ذلك بعض المحاولات منها: إجراء محادثات مع أغاخان!! بهدف تكويــن هيئة للبحث الديني تكون مهمتها توثيق الروابط بين المسلمين في جميع أنحاء العالم، وإقامــة نوع من التعاون بين الهيئات التعليمية في البلدان الإسلامية، والتوفيق بين المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم وفرقهم .

مواقــف تاريخيــة:

وكــان ((المراغى)) حازماً في قضاياه لا ترهبه سلطة أو يخضع لابتزاز، وهو ينظر قضية كبيرة تتعلق بملايين الجنيهات، لوح له أصحابها ببعض الألوف حتى يصدر الحكم لصالحهم، ولكنه رفض في شجاعة فلابد أن يأخذ العدل مجراه، فألقى أصحاب القضية بواسطة بعض البلطجية عليه ماء النار.

ومحــنة أخرى تعرض لها أثناء توليه القضاء، فعندما طلق الملك فاروق زوجته الملكة فريدة، أراد الملك أن يحرم عليها الزواج من بعده، ورفض المراغى أن يصدر فتوى بذلك، وذهــب الملك إليه، وكان يعالج في مستشفي المواساة إثر إصابته بماء النار، فقال المراغى كلمــته المشــهورة: ((فأما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم فلا أملكه)) ولما غلظ عليه فاروق صاح الشيخ: ((إن المراغى لا يستطيع أن يحرم ما أحل الله)).

وفي عام ١٩٢٨ تولى ((المراغى)) مشيخة الأزهر، وكان عمره وقتها (٤٧ سنة)، وكان يحظــى بمساندة حكومة الأحرار الدستوريين، ويؤيده تيار الإصلاح داخل الأزهر، فشكل لجــنة للإصــلاح برئاسته مترسما خطى ((الإمام محمد عبده))، الذي كان يرى أن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام، وأن إصلاحه لصالح جميع المسلمين.

ونادى بالعناية بحفظ القرآن الكريم والاهتمام بدراسة علومه، ودراسة السنة، وحرص علي منع التعصب لمذهب، ودعا إلى دراسة الأديان الآخرى والمقارنة بينها.

لا ناقة ولا جمل:

وكــان ((الشيخ المراغى)) من الداعين إلى عدم مشاركة البلاد في الحرب العالمية الثانية، وألا تجــر مصــر إلى الحرب بين الحلفاء والمحور. وأعلن عن ذلك الرأى صراحة في خطبة الجمعــة الــتي ألقاها بجامع بيبرس يوم ١٩ سبتمبر ١٩٤١، وكان يحضرها الملك فاروق،

حيــث قال «إنما حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل». وقد أغضب ذلك الإنجليز، وحاولوا عن طــريق رئيس الوزراء حسين سرى أن يعدل الشيخ عن هذه الفتوى، وبعد أن أعيت الحيلة حسين سرى في حواره مع المراغى، قال له: هذا كلام في السياسة، وليس من اختصاصك، ولــيس لــك أن تتكلم في أمور تخصنا. فقال المراغى إنني لا أتكلم في السياسة، وصاح به: «أتهــددني وأنا شيخ الأزهر!» وأضاف: «إن شيخ الأزهر أقوى بنفوذه من رئيس الوزراء، ولو شئت لا رتقيت المنبر، وأثرت عليك الجماهير، حتى تجد نفسك معزولا عن الشعب»*.

وكان موقف الشيخ في هذه المسألة يتفق وموقف الأحرار الدستوريين والحزب الوطني والقصــر. وقد أقلق هذا الموقف إنجلترا، لدرجة أن جريدة التايمز البريطانية خرجت تقول: «إن هــذا الــرجل -تقصــد الشيخ المراغي- أخطر علي بلادنا وعلى حياتنا من ويلات الحرب». ومع ذلك لم يغير «المراغى» موقفه.

فقــد كــان صــلبا في المواقف حتى ولو كان مع أصدق الأصدقاء لا يحب الكذب والنفاق، من ذلك: إن «المراغى» كان صديقا لمحمد محمود باشا زعيم الأحرار الدستوريين، وقــد ســأله السفير البريطاني يوماً: من سيفوز في الانتخابات؟ قال: الوفد، فعجب السفير وقــال: إنــني أعلم أنك صديق لمحمد باشا محمود، فقال «المراغى»: إن الصداقة لا تدفعني للكذب والنفاق.

وقــد استقال «الإمام المراغى» من مشيخة الأزهر في المرة الأولى في ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٩م، عــندما وجد عدم استجابة من الحكومة لمشروعاته الإصلاحية التي كانت تقوم علي إلغاء مدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم وفتح باب الاجتهاد وإدخال العلوم الحديثة.

وظــل المراغى بعيداً عن الأزهر قرابة خمس سنوات. تولي المنصب فيها «الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى»، إلى أن خرج الأزهر ينادى بالمراغى وألح في النداء، وكان الرد فصل ٧٢ من شيوخه وعلمائه.

ومــع بداية وزارة توفيق نسيم (١٤ نوفمبر ١٩٣٤م) بدأ شباب الأزهر حركة أعلى صــوتاً تطالــب بالإصلاح، وامتدت الحركة إلى معاهد المدن الأخرى، وتصاعدت الحركة حتى يناير ١٩٣٥م، وفي فبراير بلغت الحركة ذروتها وتحدد هدفها في عودة المراغى، وأطلق زعيم هذه الحركة.. «الشيخ أحمد حسن الباقورى» عبارته الشهيرة: «إما تحت راية المراغي، وإمــا إلى القــرى تــاركين الأزهر للبوم والغربان». وتحت هذا الضغط استقال «الشيخ

---

*لمعى المطيعى، «موسوعة هذا الرجل من مصر»، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧، ص٥٣٢.

الظواهرى))، وعاد الإمام المراغى إلى الأزهر مرة آخرى في ابريل ١٩٣٥م. وظل في منصبه عشر سنوات حتى توفي في ٢٢ أغسطس ١٩٤٥م.

مؤلفـــاته:

أثرى ((الشيخ المراغى)) المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات والتراجم، والتي اشتملت علي برامجه الإصلاحية، وخاصة إصلاح الأزهر وقوانين الأسرة، بالإضافة لمؤلفاته ودروسه في تفسير القرآن الكريم، وبعض القضايا الفقهية واللغوية ومن أهم هذه المؤلفات:

الأولياء والمحجورون: وهو بحث فقهي لا يزال مخطوطا بمكتبة الأزهر، تناول فيه الشيخ المراغى الحجر علي السفهاء، وقد نال الشيخ المراغى بهذا البحث عضوية هيئة كبار العلماء.

تفسير جزء تبارك: وقد قصد الشيخ المراغى من هذا التفسير أن يكون مكملاً وتكملة لتفسير جزء عم للإمام محمد عبده.

بحث في وجوب ترجمة القرآن الكريم.

رسالة بعنوان: الزمالة الإنسانية، كتبها لمؤتمر الأديان في لندن.

بحوث في التشريع الإسلامي وأسانيد قانون الزواج رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩م.

مباحث لغوية بلاغية :

دروس دينية نشرت بمجلة الأزهر تشتمل على تفسير لبعض سور القرآن الكريم، وقد ألقي ((الشيخ المراغي)) هذه الدروس في المساجد الكبري في القاهرة والإسكندرية، وحضرها الملـــك فاروق في الفترة من عام ١٣٥٦هـ حتى عام ١٣٦٤هـ، وقد نُشرت هذه الدروس في كتيبات مستقلة.

شــــهادات بفضله:

قـــال عنه د. محمد سيد طنطاوي -شيخ الأزهر- بالرغم من أن حياة الشيخ المراغي كانـــت قصيرة، إلا أنها كانت طويلة وكبيرة بالنسبة للأعمال التي قام بها في خدمة الأزهر من إصدار قوانين، وتطوير للمناهج، وإنشاء كليات اللغة العربية، وأصول الدين، والشريعة والقانون.

و لم يكن ((الإمام المراغي)) فلتة في عائلة، بل أحد أعضاء عائلة كلها علماء أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات والتراجم والتحقيق لكتب التراث.

وقالـــت عـــنه د. نعمات أحمد فواد: جمع ((الشيخ المراغي)) بين علوم الدين والعلوم الكونية. ومنها الأدب كما كتب الشعر والنثر.

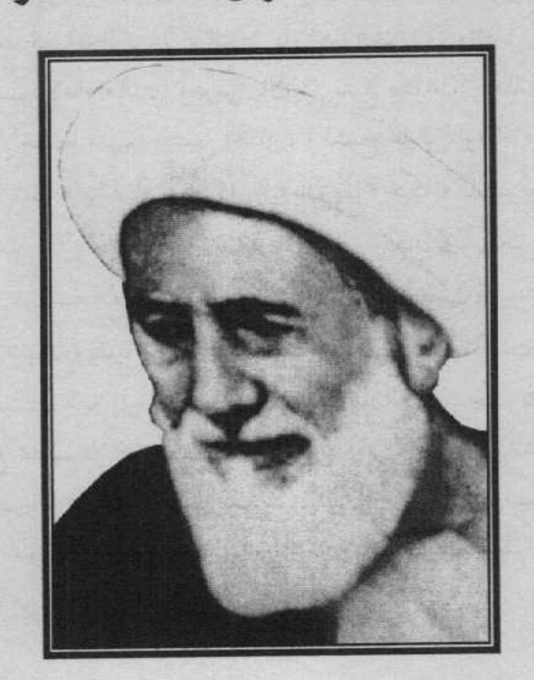
كمـــا نـــادى بدراسة الأديان دراسة مقارنة ضمن مناهج الأزهر لتتجلى فيها الصورة المشـــرقة للإســـلام، كما أكد أن التقدم العلمي والفلسفي ليسا بقادرين على منع الحروب وأســـبابها، فقد شهدت الأيام أن الحروب تزداد وحشية وقسوة بتقدم العلم، وأن الأديان، وفي مقدمتها الإسلام – وحدها القادرة على وقف ومنع هذه الحروب.

وقـــال عـــنه: د. محمد نايل – عميد كلية اللغة العربية السابق، ورفيق الإمام المراغي (رحمه الله) – أن «الإمام المراغي» كان ثورة لا يهاب أحدا في سبيل الحق.

الإمام سليم البشري

(١٨٨٢-١٩١٦م)

صاحب الرأى الحر



«إن رأيى لى، ومنصبى لهم، ولن أُضحى لهم بما يدوم فى سبيل ما يزول».

هـــذه العبارة الدالة على تمسك صاحبها برأيه وتقديسه لكلمة الحق، وعدم تنازله عن قولهـــا، حـــتى ولو ضحى من أجل ذلك بأرفع المناصب، حتى ولو كان المنصب هو شيخ الأزهـــر. قالها العالم «الإمام سليم بن أبى فراج البشرى»، الإمام رقم ٢٥ فى تولى مشيخة الأزهـــر. الـــذى قدم استقالته من هذا المنصب الهام والحساس عندما وجد أن ثمن بقائه فى المنصب هو التنازل عن رأيه والانصياع لرغبة الحاكم.

هو الشيخ سليم بن أبى فراج بن السيد سليم بن أبى فراج البشرى، نسبه إلى «محلة بشر» من قرىا شبراخيت بمحافظة البحيرة، وهو من مواليد عام ١٢٤٨هـ (١٨٨٢م). توفى والده وهو فى الســـابعة مـــن عمره، فكفله أخوه الأكبر «عبد الهادى البشرى» ولَما بلغ التاسعة كان قد حفظ القرآن الكريم وجوده.

ثم قَـــدِمَ إلى القاهرة، وأقام عند خاله «بسيونى البشرى» أحد علماء ضريح السيدة زينب – رضى الله عنها- فتلقى عنه مبادئ العلوم، وظل فى كنفه عامين درس فيهما عليه وعلى غيره من العـــلماء قـــراءات القرآن الكريم. ثم التحق بالأزهر الشريف، واتصل بكبار العلماء، حيث درس الفقـــه على مذهب الإمام مالك. ودرس بالأزهر تسع سنوات كاملة، حيث تلقى العلم على يد عدد من العلماء الأجلاء، منهم: الشيخ الخنانى، والشيخ عليش، والإمام الباجورى وغيرهم.

ولَمّا مرض شيخه «الخنانى» أوكل إليه أن يقوم مكانه بالتدريس لما أنس فيه من علم، وأقبل الطلاب على دروسه، ونبغ فى علوم كثيرة، وكان يجد لكل مسألة حلا، حتى قصده العلماء يحضرون دروسه مع الطلاب، ونبغ فى علوم الحديث، نبوغاً كبيراً أبلغه درجة كبار المحدثين. ثم عُين شيخاً ونقيباً للسادة المالكية، وهومن أكبر مناصب الأزهر.

ولَمـــا اتجهـــت النية إلى إصلاح الأزهر فى عهد الشيخ «حسونة النواوى»، كان فى مقدمة العلماء الذين وقع عليهم الاختيار لعضوية مجلس إدارة الأزهر، مع «الشيخ محمد عبده»، و«الشيخ عبد الكريم سلمان»، وغيرهم من كبار العلماء، الذين أُوكل إليهم مهمة إصلاح وتطوير الدراسة بالأزهر ليواكب علوم العصر ومستجدات الحياة الحديثة. فكان عضواً بارزاً. ووقع عليه الاختيار ليكون شيخاً للأزهر عام ١٩٠٠م (١٣١٧هـ).

مواجهـــة:

وحـــدث أثـــناء توليه مشيخة الأزهر أن اختير الشيخ «أحمد المنصورى» شيخاً لأحد الأروقـــة بالأزهر، ولم يكن الحاكم راضياً عن هذا الشيخ، فأوعز إلى فضيلة الإمام الأكبر بالعدول عن هذا القرار، فأبى الشيخ الرجوع عن اختياره، وقال:

«إن كـــان الأمر لكم فى الأزهر دونى فاعزلوه، وإن كان الأمر لى دونكم، فهذا الذى اخترته، ولن أحيد عنه».

انتهز الدساسون الفرصة وأوغروا وصدر الخديوى عباس عليه، فأرسل إليه من يقول له «إن تشبثك برأيك قد يضرك فى منصبك». ولَما رأى «الشيخ سليم» أن هذه رسالة تهديد مباشـــرة، صمم على رأيه ورفض التراجع عنه وقال قولته المشهورة: «إن رأيى لى، ومنصبى لهم، ولن أُضحى لهم بما يدوم فى سبيل ما يزول». وقدم استقالته، فقبلت فى اليوم الثانى من ذى الحجة سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٤م).

وعُـــين بدلاً منه فى منصب شيخ الأزهر «الشيخ على بن محمد الببلاوى»، الذى قضى فى المنصـــب حـــوالى ثلاثـــة أعوام، أى حتى عام١٣٢٣هـ، حيث قدم استقالته، وحل محله «الشيخ عبد الرحمن الشربينى»، الذى لم يقضى بالمشيخة إلا حوالى عام واحد واستقال من منصبه سنة ١٣٢٤هـ، وأُعيد «الشيخ حسونة النواوى» كشيخ للأزهر حتى عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، وعندما استقال، تقرر إعادة تعيين «الشيخ سليم البشرى» كشيخ للأزهر للمرة الثانية عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م).

الحـــزم في الإدارة:

وفى عهـــده طُـــبق نظام امتحان الراغبين فى التدريس بالأزهر، واجتاز هذا الامتحان كـــثيرون مـــن العلماء، وكان رحمه الله حازماً فى إدارته للأزهر. وعلى الرغم من الأعباء الكـــبيرة التى كان يحملها فى مباشرته لمشيخة المالكية ومشيخة الأزهر، فإنه ظل يباشر إلقاء دروســـه فى الأزهـــر، كما ظل يباشر التدريس والتصنيف، وقيادة الحركة الإصلاحية بعزم وحـــزم حـــتى ظهرت آثارها فى عهده، وحتى أصبح معظم مدرسى الرياضة فى عصره من علماء الأزهر، بعد أن كادت صلات الأزهر بهذه العلوم تنقطع انقطاعاً تاماً.

ومن أمثلة شجاعته واعتزازه بنفسه، أنه عقب استقالته من منصب شيخ الأزهر فى المرة الأولى ســـنة ١٩٠٤م. ذهـــب فى الـــيوم التالى لعزله إلى الجامع الأزهر، للجلوس فى مقعد التدريس، حيث ألقى درسى التفسير والحديث، اللذين حضرهما نحو خمسمائة عالم، وما لا يحصى من الطلاب.

زيادة مرتبات العلماء:

وعـــندما اضـــطربت الأحوال فى الأزهر وكثرت استقالات مشايخه، اضطر ولاة الأمر إلى الـــلجوء إلـــيه ليعود إلى منصبه شيخاً للأزهر ليعالج هذه الاضطرابات، فاشترط لقبوله أن تقوم الحكومـــة بإكرام العلماء والطلبة والتوسع فى أرزاقهم، ورد حقوقهم إليهم، فتقرر زيادة مرتبات العـــلماء عشرة آلاف جنيه سنوياً – وكان الجنيه المصرى وقتها له شأن وكان أضعاف الدولار

الأمـــريكى – توزع بالقسط عليهم. واستطاع أن يحصل من الحكومة على ترخيص يسمح لكل عالم فى أى معهد من المعاهد الأزهرية بالسفر فى قطارات السكك الحديدية بنصف الأجر المقرر. وكذلك الطلبة فى أيام حضورهم للدراسة وانصرافهم فى الأجازات.

وظـــل الإمام سليم البشرى يكافح ويجاهد فى النهوض بالأزهر الشريف، حتى نال الحظوة لدى السلطان فمنحه «النيشان المجيدى الأول» والوشاح الأكبر «وسام النيل».

وكان من عاداته أن يستيقظ من نومه فى الثالثة صباحاً فيتهجد ما شاء الله له أن يتهجد، ثم يوقظ حفدته الصغار، فيتناول معهم طعام الإفطار، ثم يلقى عليهم بعض الدروس.

وكـــان ((الإمـــام ســـليم البشرى)) دائم التصدق بمرتبه، حيث لم يقبض مرتبه فى حياته مرة واحدة، وإنما كان يكل ذلك إلى من يثق به، ويطلب منه أن يتصدق به على بعض الأسر الفقيرة.

وتوفى «الشيخ سليم البشرى» عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م) وهو فى التسعين من عمره، بعد أن قام بنهضة إصلاحية تعليمية وعلمية، وخفف أعباء مادية كثيرة عن كواهل العلماء والطلاب.

وقد رثاه شاعر النيل حافظ إبراهيم بقصيدة بليغة مؤثرة منها هذه الأبيات.

أيَـــدرى المسْـــلمُونَ بمـــنْ أصـــيبُوا	قـــد وارَوْا (سَـــليماً) فى الـــتُّراب
هَوَى رُكْنُ الحديَث فأَىُّ قُطْبِ (موطا	لطُـــلاب الحقـــيقَة والصَّـــواب
مـــالك) عَـــزَّ (الـــبخارى)	ودع لله تعَـــزية (الكـــتاب)
فمـــا فى الـــناطقين فـــمُ يُوَفّـــى	عـــزاء الديـــن فى هذا الـــمُصاب
قضـــى الشـــيخ المحـــدثُ وهو يملى	عـــلى طُلابـــه فَصْـــلَ الخطـــاب
ولم تـــنقـــص لـــه التســـعون عزماً	ولا صـــدته عـــن درك الطَـــلاب
ومـــا غالـــت قريحـــته اللـــيالى	ولا خانـــته ذاكـــرة الشـــباب
أشـــيخ المســـلمين نأيـــت عـــنا	عظـــيم الأجـــر موفـــور الثواب*

أهـــم مؤلفـــاته:

وقد ترك الشيخ جملة مؤلفات معظمها من الحواش والتقارير على كتب السلف، ومن آثاره:

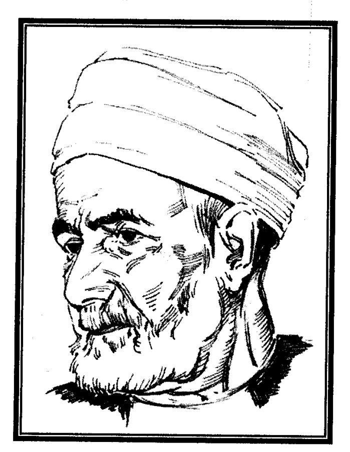
- حاشية تحفة الطلاب على شرح رسالة الآداب.
- حاشية على رسالة الشيخ عليش فى التوحيد.
- المقامات السنية فى الرد على القادح فى البعثة النبوية.
- عقود الجمان فى عقائد أهل الإيمان.
- الاستئناس فى بيان الأعلام وأسماء الأجناس.
- شرح نهج البردة لشوقى.

* حـــافظ إبراهـــيم، ديـــوان حـــافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه: أحمد أمين، أحمد الزينى، إبراهيم الإبيارى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص٥٠٤.

الإمام عبد المجيد سليم

(١٨٨٢-١٩٥٤)

التمسك بالحق والجرأة في الفتوى



يحفـــل تـــاريخ مصر بكوكبة من علماء الدين الذين عرفوا بمواقفهم الصريحة القاطعة ودفـــاعهم المخلـــص والمســـتميت عن الدين، والتصدى بكل حزم لأى مساس بالشريعة الإســـلامية. ومن هؤلاء العلماء الأجلاء فضيلة «الإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم» وهو واحـــد من أهم الأئمة الذين شرفوا بتولى مشيخة الأزهر وشرفت بهم. فقد كان من نوابغ عـــلماء الإســـلام الذيـــن حباهم الله بفيض من علمه وفضله، حتى أصبح فقيهاً لا يبارى ومشرعاً ذائع الصيت، ومُصلحاً لا يخشى فى الله لومة لائم.

بصمات لا تُنسى:

كـــان للإمـــام «عبد المجيد سليم» بصماته التى لا تنسى فى خدمة الإسلام والمسلمين، مدرســـاً بالمعـــاهد الدينـــية ومدرسة القضاء الشرعى، يمتاز بغزارة العلم ومداومة البحث والإطـــلاع وبـــراعة الأداء، وقاضـــياً شرعياً يمتاز بدقة البحث وتحرى الحق. ومفتياً لمصر يستقصـــى البحـــث فى موضوع الفتوى، لا يكتفى برأيه هو، وإنما يحرص على ذكر آراء الفقهاء، ويرجح بينها ويستنبط منها ما يراه صحيحاً، ثم يدعم رأيه بالأدلة العقلية والبراهين النقلية.

تأثـــر «الإمام عبد المجيد سليم» بالشيخ «حسن الطويل» وعرف منه أساليب عديدة فى فـــنون الجدل والقياس، وكان الشيخ يرعاه ويوجهه ويرشده، وقد تنبأ له أن يصبح شيخاً للأزهـــر. ودرس الفقه على العالم الجليل «الشيخ أحمد أبى خطوة». كما كان يحضر دروس «الإمـــام محمـــد عـــبده» فى الرواق العباسى وظل مواظباً على حضورها على مدى خمس ســـنوات، تلقـــى خلالها عنه أسرار البلاغة، كما تلقى عنه دروساً فى تفسير القرآن الكريم والمنطق والفلسفة.

وكـــان تأثير «الإمام محمد عبده» و«الشيخ أبى خطوة» قوياً واضحاً فى فتاوى «الإمام عبد المجيد سليم» وأرائه، مع التحرر المطلق من التقيد برأى معين أو مذهب خاص.

وُلِـــدَ الإمـــام الشـــيخ فى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٨٢ م فى قرية «ميت شهالة» بمحافظة المنوفـــية، تعـــلم مبادئ القراءة والحساب بكتاب القرية، ثم التحق بالأزهر، وحصل على الشـــهادة العالمـــية من الدرجة الأولى عام ١٩٠٨م، ثم اشتغل بالتدريس فى المعاهد الدينية ومدرســـة القضاء الشرعى، حيث كان يدرس للطلاب مادتى الفقه وأصوله، ثم وُلِّى القضاء قبل أن يصبح مُفتياً للبلاد على مدى سبعة عشر عاماً، وفاز بعضوية جماعة كبار العلماء، ثم أصـــبح وكيلاً لها، قبل أن يُعهد إليه بالإشراف على الدراسات العليا بالأزهر ورئاسة لجنة الفتوى.

وفى الســـادس والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٦٩هـ الموافق ٨ أكتوبر عام ١٩٥٠م صدر قرار تعيينه شيخاً للأزهر، حيث كان الإمام الثالث والثلاثين فى تاريخ الأزهر.

تمســك بالــحق:

و قضـــى «الشيخ عبد المجيد سليم» فى منصب المفتى سبعة عشر عاماً متواليات، وهى أكبر مدة قضاها عالم من علمائنا فى منصب المفتى، وقد كان تمسكه بالحق ودقته فى الفتوى وراء هــذه الفــترة الطويلة فى المنصب، وبلغ إجمالى القضايا التى أفتى فيها ١٥٧٩٢ فتوى، وهى ثروة فقهية عالية القيمة.

وشـــجاعة الشيخ عبد المجيد فى فتواه، لم تكن وليدة شغله منصب الإفتاء، وإنما كانت جزءاً من شخصيته، حتى وهو طالب فى المعاهد الأزهرية، ثم وهو قاض شرعى بعد تخرجه من مدرسة القضاء الشرعى.

ومـــن قضاؤه الشجاع قضية وقف كان ناظره «الملك فؤاد» ملك مصر، وقد رُفعت القضـــية لإقصاء الملك عن هذه النظارة للوقف، وقال المدعى فى دعواه: أنه لا يجوز للملك أن يـــنظر وقفاً بشخصه، لأنه صاحب وضع دستورى لا يجيز له القيام بأعمال مثل نظارة الوقـــف، فهو يدير أملاكه بنفسه أو بأجهزته الخاصة الملكية، أما كونه ناظراً للوقف فهذا يجعلـــه محـــل المســـاءلة إذا أخطأ، والوقف تتعلق به حقوق خيرية كثيرة، منها ما يصيب الأشـــخاص، ومنها ما يصيب الهيئات، وكل صاحب حق له وجهة نظره فى قدر ما يؤدى إلـــيه ريـــع الوقف، فإذا وجد خطأ كان من واجبه أن يشير إليه وأن يقتضيه، وهذا يجعل موقف الملك حرجاً، فإما أن تضيع حقوق الموقوف عليهم، وإما أن تضيع هيبة ولى الأمر.

وعـــلى الناحـــية الأخرى من الدعوى كان محامى الملك فؤاد يدافع عن نظارة الملك للوقف، ويطالب برفض الدعوى، لكن القضية ينظرها قاض شجاع، لا يتحرج من الحكم بالحق، فقضى بعزل الملك فؤاد عن نظارة الوقف، وتم تنفيذ الحكم.

وبرغم هذا الحكم الشجاع، فإن الملك فؤاد عندما عُرض عليه تعيين «الشيخ سليم» فى منصب الإفتاء وافق على الفور، ولم يحاول الانتقام منه، وإنما أصدر المرسوم الملكى بالتعيين، وبالـــرغم من أنه لم يكن عضواً فى المحكمة الشرعية العليا، وكان التقليد أن يُختار المفتى من بين أعضائها، إن لم يكن رئيسها.

ضـــد الملك فـــاروق:

وفى منصب الإفتاء واجه الشيخ تحدياً آخر، ولكن ضد الملك فاروق، الذى تولى الملك بعـــد وفاة أبيه الملك فؤاد. فقد وصل إلى الشيخ سؤال من إحدى المجلات عن مدى شرعية إقامة الحفلات الراقصة فى قصور الكبار، وقد حمل رسالة المجلة إليه أحد أمناء الفتوى فى دار

الإفتاء، ولفت نظره إلى أن المجلة التى طلبت الفتوى من المجلات المعارضة للملك، وأن الملك قد أقام حفل راقص فى قصر عابدين، فالفتوى إذن سياسية، وليس مقصوداً بها بيان الحكم الديــنى. وتــريد المجلة بذلك الوقيعة بينه وبين الملك، إلى جانب التعريض بالتصرف الملكى وصولاً إلى هدف سياسى.

فقال فضيلته: وماذا فى ذلك؟ إن المفتى إذا سُئل لابد أن يجيب ما دام يعلم الحكم، فإن لم يكــن يعــلمه بحــث عنه بوسائله المتاحة من اطلاع على القرآن والسنة، وعلى كتب الأقدمــين، وبواســطة جهــاز الأمناء فى دار الإفتاء، فإذا أعجزته الوسائل قال لا أدرى. وأصــدر المفــتى فتواه بحرمة هذه الحفلات، ونشرت المجلة الفتوى مؤيدة بالأدلة الشرعية. وحدثــت الأزمة بين الملك والمفتى، وصمم الملك على الانتقام من المفتى، الذى كانت فتواه سبباً فى إحراج موقفه السياسى.

وعلى إثر هذه الفتوى وجه الديوان الملكى الدعوة إلى «الشيخ عبدالمجيد سليم» لحضور صــلاة الجمعة مع الملك فى مسجد قصر عابدين، وهو القصر الذى أُقيم فيه الحفل الراقص، فذهــب المفتى وجلس فى المكان المخصص له، وحين حضر الملك جلس فى مكانه بالصف الأول، وبعد انتهاء الصلاة وقف كبار المصلين لمصافحة الملك بعد الصلاة قبل أن يدخل إلى حديقــة القصــر من الباب الداخلى للمسجد المؤدى إلى الحديقة، ووقف المفتى فى مكانه استعداداً لهذه المصافحة الملكية، وكان كل من يأتى عليه الدور للمصافحة يرفع يده قبل أن يدركه الملك استعداداً لمصافحته، لكن الشيخ عبد المجيد سليم هدته فطرته الإيمانية إلى عدم رفع يده، وكانت نية الملك أن يترك يد الشيخ ممدودة للمصافحة دون أن يصافحه، ويكون فى ذلك عقابه والإنتقام منه، لكن إيمان الشيخ أنقذه، فقال له الملك: ما الذى دعاك يا شيخ للفتوى ضدى؟ فأجابه الشيخ: المفتى إذا سُئل لابد أن يجيب ليعرف الناس الحق من الباطل، ولينتهى المبطلون إذا أرادوا، وإلا عرضوا أنفسهم لعقاب الله.

مقــاطعة الاحتفالات الرسميــة:

و لم يكــتف الشيخ بهذه المواجهة ومع الملك على رؤوس الأشهاد، بل رفض بعد ذلك حضــور الحفــلات الرسمــية التى يترأسها الملك، وكانت تأتيه الدعوة ولا يعتذر عن عدم الحضور. ومعنى هذا أن يبقى المقعد المخصص للمفتى شاغراً، مما يسيء إلى الملك.

اتصــل رئــيس الديوان الملكى بالمفتى يلفت نظره إلى أهمية الالتزام بالبروتوكول، وأن علــيه إذا كــان هناك ما يمنعه من الحضور أن يخطر الديوان: فأجابه المفتى: أن موقفه قضية كرامة، وإذا اتصلت الكرامة بالبروتوكول، كانت الأولوية للكرامة، ولا بأس عليكم إذا لم توجهوا الدعوة إلى المفتى.

ورفـــع الديوان الأمر إلى الملك، ليدرك أنه أمام شخصية فذة من علماء المسلمين وأنه لا سبيل إلى زحزحته عن موقفه إلا بالاعتذار إليه. فأمر الملك رئيس الديوان أن يذهـــب إلى الشـــيخ ويعتذر إليه، فجاء رئيس الديوان إلى المفتي وقال له: ((إن مولانا جلالة الملك بعثني إليك لأن جلالته يرجو رضاك)).

وبعد أن عُين ((الشيخ عبد المجيد سليم)) شيخاً للأزهر، ضغطت الحكومة ميزانية الأزهـــر، ثار الإمام الأكبر ثورة عارمة، وقال عبارته المشهورة ((قصد هنا -تقطير- وإســـراف هـــناك))، وكـــان الملك وقتها يقضى عطلة الصيف باستراحته فى كابرى بإيطاليا، وعندما علم بما قاله ((الشيخ عبدالمجيد سليم)) غضب، وأمر بعزل شيخ الأزهر من منصبه فى سبتمبر سنة ١٩٥١م. ثم أعيد إليه مرة أخرى فى فبراير ١٩٥٢م. ولكنه استقال من المنصب فى سبتمبر ١٩٥٢م*.

وحـــدث أن أهـــدت مصلحة الترام إلى فضيلته تصريحين للركوب بالمجان هو وتابعه، فرفض الشيخ استعمال هذا التصريح وحمل تابعه على رفضه، وعندما علم أنه استعمله مرة، ذهب الشيخ إلى إدارة المصلحة ودفع ثمن تذكرة تابعة.

إصلاح مناهج التدريس:

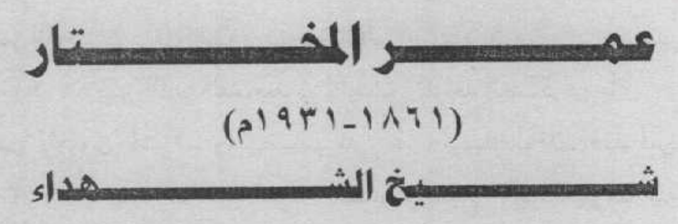
وأثـــناء تولـــيه مشيخة الأزهر عمل فضيلة الإمام على إصلاح مناهج التدريس بهذه الجامعـــة العـــريقة، فقد كان يرى أن مهمة الأزهر تشمل تعليم أبناء الأمة الإسلامية دينهم ولغتهم بما يؤهلهم ليكونوا حملة شريعة الإسلام وأئمة الدين واللغة. وحُفاظاً حراساً لكتاب الله وســـنة رســـوله (ﷺ)، وعمل على تشجيع حركة التأليف والتجديد عن طريق الجوائز العلمية. وعمل على توجيه العلماء إلى وضع بحوث فى الفقه والتشريع تساير الروح العلمية الحاضـــرة. واشتمل منهجه الإصلاحى أيضاً على إعداد جيل قوى من أبناء الأزهر يستطيع أن يحمل الرسالة، إضافة إلى مراجعة الكتب الدراسية، وإبقاء الصالح منها. وتشجيع حركة البعوث العلمية إلى جامعات أوروبا للتزود من شتى العلوم والمعرفة. وتنظيم الجامعة الأزهرية تنظيماً يتفق مع رسالتها، ويساعدها على أداءها، الى جانب أداء رسالتها الإسلامية، وذلك بإنشـــاء مكتبة كبيرة ودار طباعة حديثة، تخرج مؤلفات باللغة الأجنبية والعربية للرد على مزاعم المبشرين، وإنشاء إدارة للدعوة الإسلامية بين شتى الدول والشعوب، وتفسير القرآن إلى اللغات الأجنبية.

---

* سعيد عبد الرحمن، شيوخ الأزهر، الشركة العربية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ص١٢.

وكـــان دائمـــاً ينصح طلاب الأزهر قائلاً لهم: «نصيحتى لكم أن تعلموا أنكم مجـــندون فى ســـبيل الله، فاقبلوا على دراستكم، وتجملوا بالفضيلة بينكم وبين الناس، لتحقيق آمال آلاف المسلمين فيكم، وإعلاء كلمة الدين والعلم بكم».

وظل الشيخ متواضعاً يعتز بكرامته، ويجهر بكلمة الحق، ولا يبالى ما يترتب عليها من آثار حتى لقى وجه ربه الكريم فى أكتوبر سنة ١٩٥٤م.


عمــــــر المخـــــــتار
(١٨٦١-١٩٣١م)
شـــيخ الشـــــهداء



فى ســـجلات الـــبطولة والجهاد ضد المستعمر واستقلال الأوطان، يحظى المجاهد الليبى عمر المختار بحظ وافر من صفحات النضال والكفاح، وبذل الروح والنفس محارباً غطرسة الإيطاليين، الذين أرادوا طمس الهوية الليبية وتحويل ليبيا إلى مستعمرة تابعة لهم يتحول فيها أهل البلاد إلى عبيد يخدمون السادة الطليان.

اســـتمر عمر المختار رافعاً راية الجهاد طوال ٢١ عاماً، خاض خلالها أكثر من ألف معركة مـــع الإيطالـــيين، منها ٢٦٣ معركة في مدة لا تتجاوز عشرين شهراً وهى المدة التي تبدأ بتولى «غراتســـيانى» قـــيادة الجيش الإيطالى في برقة، وتنتهى بموت عمر المختار [سى عمر] يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١م.

ذهب «عمر المختار» ذلك اليوم، ضحية الغدر وشهيد الوفاء، نتيجة غدر الطليان به، وقـــد وقع أسيراً في أيديهم طاهر الصحيفة، لم يدنس تاريخه العسكرى بأى جريمة ولا عمل صـــغير مخـــالف لأصول الشرف ومقتضيات المروءة. وشهيد الوفاء، فقد قال حينما توجه لـــلجهاد سنة ١٩٢٣م، بعد أن اشتد حوله الحصار وأصبح الجهاد ميئوساً منه: «ما الفائدة من العيش مهاجراً ذليلاً؟ يجب أن أعود لأموت وأؤدى بذلك آخر حق عليَّ لله ولبلادى».

وقعـــت ليبـــيا فريسة في أيدى الإيطاليين في ٢٩ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩١١م. رفع الليبيون رايات الجهاد أمام حملات الاستيطان والتبشير والتطهير العرقى ومحاكم التفتيش التى أقامها الإيطاليون. علي غرار ما حدث في إسبانيا إبان العصور المظلمة في القرن الثانى عشر.

نشـــأة المختـــار:

كان «عمر المختار» أحد أهم رايات الجهاد الليبى ضد الاستعمار. ولم يكن المجاهد الوحيد ولا الشهيد الوحيد فى قوافل وجيوش المجاهدين والشهداء الليبيين. وإنما شكلت ظروف استشهاده حالـــة فريدة، سجلت سطوراً متلألئة فى صفحات التاريخ العربى والإسلامى ضد محاولات النيل مـــنه وطمـــس هويـــته ومعالمـــه. فقد كان «عمر المختار» شيخ المجاهدين أثناء الجهاد. وتحول باستشهاده إلى شيخ الشهداء فحاز الحسنيين. كان المختار علماً مشهوراً. فهو ابن مختار بن عمر المـــنفى مـــن قبيلة [المنفة] أهم القبائل الليبية، ضمن قبائل أولاد علي الكبيرة، المنتشرة في أراضى مصـــر وبـــرقة الليبية. وكان مولد «عمر المختار» سنة ١٨٦١م فى قرية جنـــزور، التابعة لمنطقة «دفنه». وتقول رواية أخرى إنه ولد فى برقة عام ١٨٥٨م، وتوفى والده المختار ووالدته عائشة، وهما في طريقهما إلى أداء فريضة الحج.

رجاحـــة وصـــلابة:

بلغ «عمر» السن، التى تؤهله لحفظ القرآن الكريم، فبعثه والده المختار إلى زاوية السنوسية فى الجغبوب ليقرأ فيها القرآن وما تيسر من العلوم، وقد ظهر عليه من دلائل النجابة ورجاحة العقل

مما لفت إليه انتباه المهدى السنوسى، وكان صاحب الجاه العريض والسلطان النافذ في برقة، فصار موضـــع اهتمامه وأحله من عنايته أعلى مراتبها. فما كاد يتم حفظ القرآن ودراسة بعض العلوم حـــتى انتشر ذكره وتناولته الألسن بالثناء، واحترمته قبائل العرب لعراقة بيته ولمكانته السنوسية. ولاه المهدى شيخاً علي زاوية القصور في الجبل الأخضر قرب مدينة المرج، حيث قام بتعليم أولاد المسلمين وإكرام من يأوى إلى تلك الزاوية من الفقراء وعابرى السبيل، وفض المنازعات بين قبائل العـــرب والســـعى في مصالحهم، وكان اختياره شيخاً لزاوية القصور لغرض نبيل، ذلك أن تلك الزاوية تقع فى حوزة قبيلة العبيدات، التى اشتهرت بالاستقلالية وفيها أفراد صعب مراسهم. وكان المختار لدماثة خلقه وصلابة عودة أهلاً لترويض هذه النفوس.

ونـــال عمـــر المختار لقب «السيد» من انتسابه إلى السنوسية، ووقعت أمور عارضة اقتضـــت سفر المهدى إلى السودان، فاختار «عمر المختار» لمرافقته في ذلك السفر الطويل. وكـــان «عمـــر» محل ثقة المهدى، الذى عينه شيخاً لزاوية فى السودان، واستمر نائباً عن المهـــدى هناك، حتى عاد إلى برقة شيخاً لزاوية «القصور» مرة ثانية، واستمر يدير شؤونها حتى احتل الإيطاليون ليبيا، فكان أول من لبى نداء الوطن وباشر الجهاد.

شـــيخ المجـــاهدين:

كـــان «عمر المختار» في طليعة المجاهدين الليبيين، حيث أسهمت نشأته الدينية وجهاده في الســـودان ضد الفرنسيين في غرس قيمة الجهاد والكفاح من أجل الاستقرار والاستقلال والدفاع عـــن الدين والوطن داخل نفسه، برز مردود عمله أثناء التصدى للعدوان الإيطالى عام ١٩١١م، عندما أنذرت إيطاليا السلطنة العثمانية بعدم معارضة احتلال الأراضي الليبية، وشنت بعد إنذارها الحرب فى ١٩١١/٩/٢٩ وساعدتها القوات الإنجليزية، بمنع عبور الإمدادات العثمانية إلى ليبيا عبر الأراضي المصرية، مما سهل علي الطليان احتلال طرابلس الغرب وبعدها درنة وبنغازى وطرابلس، وبدأت معركة الجهاد الإسلامي الليبى ضد الإيطاليين، وقاد العلماء طلائع المجاهدين ضد الغزاة، وتصدى الفرنسيون للتونسيين، بعد أن قاد حزب «تونس الفتاة» حملة للتضامن مع الشعب الليبي ضد الاحتلال. ومن هنا بدأ التحالف الإيطالى الفرنسى ومعهما الإنجليز والإسبان، للسيطرة على شمال أفريقيا، حيث سيطرت إسبانيا على جزء من المغرب، وسيطرت فرنسا على تونس والجزائر، وسيطرت إيطاليا علي ليبيا والحبشة، وسيطرت بريطانيا على مصر والسودان.

لم يهـــدأ العـــدوان الإيطالى علي ليبيا، حيث استهدف المناطق العامرة بالسكان بغية القضـــاء عليهم تمهيداً للاستيطان، ونتج عن ذلك نزوح آلاف الأسر عن ديارها إلى بلدان أخرى، لكن ذلك لم يحد من متابعة رسالة الجهاد. وبدأ تفعيل المقاومة بشكل أكبر ومنظم. لكـــن الفـــتن الداخلـــية والنزاعات العشائرية أضعفت موقف المجاهدين في عدد من مناطق المقاومة. وبرغم ذلك تجدد الجهاد فى «برقة» في شرق ليبيا بقيادة الشيخ عمر المختار.

استنـــزاف:

ازدادت شراســـة المعـــارك، وشـــعر شـــيخ المجاهدين بخطورة الموقف، فشكل قيادة عليا لـــلمجاهدين تكونت برئاسته وضمت القبائل العربية الليبية، التى جاءت من شبه الجزيرة العربية أيام الفتوحات الإسلامية، والقبائل الآخرى، ولم يقتصر الجهاد على أبناء القبائل، بل انضم إليهم أيضا، عدد كبير من المجاهدين، الذين قدموا من غربى ليبيا ووسطها وشمالها. وتعاضد الليبيون ضد العـــدوان، مما أجبر الإيطاليين على اتخاذ خطوات إرهابية قتالية، وظن الإيطاليون أنهم بذلك قد يصـــلون إلى بغيتهم ويحققون هدفهم، ولكن ما أبداه عمر المختار من النشاط فى الغزو والهجوم والثبات والإقدام وشدة البأس والإيمان، أفشل مخططهم.

وقـــد حصل انقلاب سياسى فى الحكومة الإيطالية، بسبب الخلاف على السياسة، التى يجب اتباعها للتعجيل بالقضاء على «عمر المختار».

ففـــى ديسمبر ١٩٢٨م استقال وزير المستعمرات في روما وحاكم طرابلس وحاكم برقة، وأعلن موسولينى توحد الإدارة في طرابلس وبرقة، وعين «الجنرال بادوليو» حاكماً عليها، وكان من أشهر القادة الطليان في الحرب العالمية الأولى واشتهر بالثبات والإقدام. وكان موسولينى يرى فـــيه المـــنقذ الوحيد للسياسة الإيطالية في طرابلس، مما حل بها من الفشل والتذبذب طوال ثماني عشـــرة ســـنة. وبدأ «بادوليو» مهمته بدعوة المجاهدين إلى الاستسلام للحكومة الإيطالية، ووزع منشـــورات في جمـــيع المناطق يدعو لذلك ويهدد بالعقاب الصارم، بلا رحمة لكل من يستمر في الخـــروج عـــلي الحكومة. وأصدر «بادوليو» عفواً عن السياسيين المبعدين، وأخذ يستعد لتنفيذ خطـــته، الـــتى جاء من أجلها، وهى القضاء على حركة «السيد عمر» تمهيداً لاستقرار السياسة الاستعمارية الإيطالية في طرابلس.

وأراد «بادولـــيو» أن يقضـــى على ثورة المختار عن طريق المفاوضات، فدعاه إليها. وكان يعتقد أن «عمر المختار» قد يرضخ مقابل إصدار عفو يكفل له حياته هو ومن معه، نظراً لموقفه الحرج من انقطاع المواصلات من كل جهة والحصار المفروض عليه.

وظـــن «عمـــر المختار» أن هذه المفاوضات قد تأتى بخير، وليقيم الدليل العملى على حبه للســـلام أجـــاب طلب «بادوليو»، لبدء المفاوضات، وكان من شروط «عمر المختار» أن يحضر مندوب من طرف الحكومة المصرية وآخر من الحكومة التونسية ليشهدا الشروط المتفاوض عليها، وألا تتدخل الحكومة الإيطالية في الأمور الدينية للشعب الليبي، وأن تكون اللغة العربية معترفا بها رسميا، وأن تُفتح مدارس خاصة يدرس فيها التوحيد والتفسير والحديث وعلوم الدين، وألا يُحرم الوطنـــيون من التعليم العالى، وأن يكون للبلاد رئيس من أهلها ويكونوا أحراراً في حمل السلاح للدفاع عن الوطن. لكن «السيد عمر» اكتشف أن هدف المباحثات الإيطالية سواء في الخارج مع المجاهدين الليبيين أم في الداخل، ترمى إلى المراوغة وكسب الوقت وتمزيق وحدة المجاهدين، وتأكد

«المختار» من نياتهم فأصدر نداءه المشهور عام ١٩٢٩م، ودعا مواطنيه إلى المضى في طريق الجهاد باذلين دماءهم الزكية فداء للوطن وفى سبيل الوصول لتحقيق غايتهم المنشودة. وكان المنشور في حيثياته يدل على صراحة «عمر المختار» في سبيل الوصول إلى التفاهم، فلبى الدعوة إلى المفاوضات وطرح شروطه الأولية وقبل مد الهدنة وانتظر رد الإيطاليين، لكنهم أبوا أن يردوا عليه مع أنهم هم الذين طلبوا الهدنة، ولكنهم لم يطلبوها لتبادل الآراء، بل لتكون طريقا من طرق الخداع الحربية.

عودة القتال:

وقد استعمل «عمر المختار» حقه في جباية الزكاة من العرب بمقتضى شروط الهدنة، التى سقطت، وعاد القتال بين الطرفين، وامتدت أيدى الطليان إلى كل من أعطى زكاة أمواله «لعمر المختار» وحُكم على بعضهم بالإعدام، ودارت المعارك الحربية علي الأراضي الليبية وتوافق معها حملة إعلامية قادها بشير السعداوى وشكيب أرسلان ضد العدوان الإيطالى. وتكاملت الوحدة الجهادية بين المقاتلين والكتاب المناضلين، واشتد سعير الحرب الجهادية، فأرسل الإيطاليون السفاح «غراتسيانى» إلى ليبيا، فاستخدم ما توافر لديه من أسلحة برية وجوية في الحرب لإبادة الليبيين، وحاصر الحدود الليبية وزرع الألغام ووضع الأسلاك الشائكة وأطلق أيدى حكامه للتنكيل بالليبيين عن طريق «المحاكم الصورية»، التى طبقها لاحقا، واستمرت المعارك الضارية بين قوى الحق وقوى العدوان في ظروف غير متكافئة من حيث العدة والعدد.

احتلال الكفرة:

وقامت القوات الإيطالية آنذاك بحشد قواتها، وكانت أكبر حملاتها في تاريخ الاحتلال الإيطالى، لاحتلال «الكفرة» وهى مجموعة واحات في صحراء ليبيا، وهى أكبر معقل للسنوسية، وفيها من الخيرات الكثير، وجاء احتلال «الكفرة» كالصاعقة علي الرؤوس، وأحس بخطرها كل من يهمه أمر طرابلس.

و لم يبق منفذ «لعمر المختار» يتصل منه بالعالم، بعد احتلال الكفرة إلا الحدود المصرية المخفورة بجيوش إيطاليا وطائراتها، ولكن هذه الجيوش وتلك الطائرات ما كانت تمنع «عمر المختار» من الاتصال بالأسواق المصرية ليرسل إليها ما يغنمه المجاهدون من الطليان، ويختار منها ما يلزم المجاهدين.

وعاد «غراتسيانى» من الكفرة لحصار المجاهدين من ناحية الحدود المصرية، فرأى أن وجود الجنود والطائرات لا يكفى لمنع اتصال المجاهدين بالأسواق المصرية، فأضاف إلى ذلك قوة ثالثة، هى الأسلاك الشائكة لمسافة ثلاثمائة كيلومتر، أصبح المجاهدون بعدها معزولين عن الخارج من جميع الجهات. وقد حاولوا عدة مرات اختراق هذه الأسلاك، لكنها كانت مانعاً قوياً استحال عليهم اختراقها.

المجـاهد الأسـير:

وكـان من عادات «عمر المختار» أن يقوم باستكشاف مواقع العدو بنفسه، ولمعرفة آفاق الهجوم عليها بغتة. وكان يرافقه من أصحابه المجاهدين ما لا يزيد على الأربعين فارساً، وبينما هو يسـير مساء يوم جمعة في سرية من أصحابه فاجأته جيوش الطليان، بعد أن علموا بخبره، وحاول هـو وأصـحابه الخروج من الوادى الذى هم فيه، لتفادى محاصرتهم، ففاجأته طليعة أخرى من جـنود المعـتدين، ونشب القتال بينهم وبين العدو، وقُتل كثير من أصحاب «عمر»، كما قُتل حصانه فأوقعه على الأرض، وبينما كان يحاول النهوض رآه أحد الجنود فتقدم إليه وقبض عليه.

وحضـر حاكم المرج في طائرة خاصة، وقد عرف «عمر» بمجرد رؤيته، لأنه اجتمع به عدة مرات في المفاوضات، ونقل إلى مرسى سوسة، ونقل منها بحراً إلى بنغازى ثم إلى السجن، وبقى فيه إلى يوم محاكمته في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣١م حيث عُقدت محاكمته في القاعة الكبرى للحزب «الفاشيستى» وهى دار مجلس النواب (السابق) فى بنغازى، وبعد أن اكتملت هيئة المحكمة نودى بـالدعوة ضد «عمر المختار» لاعتدائه على سلامة الدولة، وعلى أمن البلاد ولقطعه الطريق، ثم نودى عليه لاستجوابه.

وكان أول سؤال له: لماذا حاربت الإيطاليين؟ وكان الجواب: «حاربت من أجل ديني ووطني..»

إعـدام البـطل:

وبعـد محاكمـة قصـيرة مدتها نصف ساعة صدر الحكم بإعدام «عمر المختار»، وفى اليوم التالى مباشـرة، صباح يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر ١٩٣١م اتخذت التدابير اللازمة بمركز «سلوق» لتنفيذ الحكم فيه، وحضر جمع غفير من سكان تلك الناحية والبوادى القريبة منها، وأحضر جميع المعتقلين السياسيين خصيصـاً من أماكن مختلفة لمشاهدة تنفيذ الحكم، وحشد الإيطاليون حشداً كبيراً من القوات البحرية والمشـاة لهذا الغرض. وفى التاسعة صباحاً سُلم «عمر المختار» إلى الجلاد. فوضع حبل المشنقة في عنقه، وبعد بضع دقائق صعدت روحه الطاهرة إلى ربها تشكو إليه ظلم الظالمين، وجور المستعمرين.

وبعد موته رثاه كبار الشعراء «كخليل مطران» وأمير الشعراء «أحمد شوقى» الذى قال:

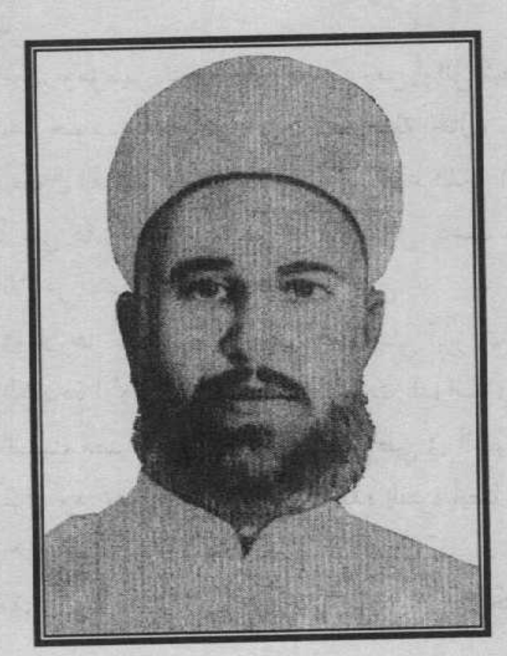
ركـزوا رفـاتك في الـرمال لـواء	يسـتنهض الـوادى صـباح مسـاء
يـا ويحهـم: نصـبوا مـناراً مـن دم	يوحـى إلى جـيل الغـد البغضـاء
مـا ض لـو جعلـوا العلاقـة في غـد	بـين الشـعوب مـودة وإخـاء
خُـيرت فاخـترت المبيـت على الطوى	لم تـبن جاهـاً أو تـلم ثـراء
إن الـبطولة أن تمـوت مـن الظمـأ	لـيس الـبطولة أن تعـب المـاء

وتخلـيداً لذكـرى هذا الرجل العظيم، واعترافاً بفضله في استقلال ليبيا، واستنكاراً لإعدام الإيطالـيين هذا البطل، أصدرت اللجنة الشعبية الليبية، قراراً يقضى باعتبار يوم استشهاده يوماً للحداد الوطنى في البلاد.

عز الدين القسام

(١٨٨٢-١٩٣٥م)

وجع في قلب إسرائيل



اسمه يثير الرعب والفزع، تحرك اتباعه تصاحبه حالة من إعلان الطوارىء، في صفوف الجـــيش الإسرائيلي، كتائبه هي أخشى ما يخشاه قادة اليهود، رغم أنه قد استشهد منذ عام ١٩٣٥م. فهـــو قائد أول ثورة مسلحة ضد البريطانيين واليهود في فلسطين. وصاحب أول تنـــظـــيم جهـــادي يخوض الحرب دفاعا عن عروبة فلسطين، كان خير مثال لرجل الدين المجـــاهد والمعلم، وباعث الوطنية والهمم في النفوس الأبية. يظل اسمه علماً من أعلام النضال العربي في العصر الحديث. عندما يُذكر اسمه تتزلزل الأرض تحت أقدام اليهود.

هو الشهيد المناضل «عزالدين القسام»، الذي تزرع كتائبه الخوف وتبث الرعب داخل إســـرائيل بعملـــياتها الاستشـــهادية التي ينفذها تلاميذ مدرسته البطولية «كتائب عزالدين القسام».

وهكذا شأن الرجال الأبطال الذين عاهدوا الله علي التضحية والفداء، فمنهم من قضي نحبه شهيدا في سبيل الله والوطن، ومنهم من ينتظر.

شـــيخ القســـامين:

هو شيخ القسامين، ومؤسس تنظيمهم، وقائده، ومن أوائل شهدائه، وُلدَ سنة ١٨٨٢م في بلدة جُبلة السورية، جنوب اللاذقية، من أسرة متوسطة الحال، كان أبوه صاحب كُتاب يُعـــلم فيه الأطفال أصول القراءة، وحفظ القرآن. تلقي «عزالدين القسام» دراسته الابتدائية في بلدتـــه، ونشـــأ علي هدي الدين، والصلاح والفضائل. ذهب وهو في الرابعة عشرة إلي القاهرة للدراسة في الأزهر الشريف،برفقة أخيه فخرالدين.

أمضى القسام في الأزهر سنوات، أخذ فيها العلم علي أبرز أئمته، وفيهم «الشيخ محمد عبده»، نال بعدها الشهادة الأهلية، وقد تركت سنوات الدراسة في الأزهر، في نفسه آثاراً بعـــيدة، فقـــد كانـــت مصر تعيش في حالة غليان وطني في أثناء هذه الفترة، التي أعقبت الاحـــتلال الإنجلـــيزي وهزيمة العرابيين، شهدت هذه الفترة أيضا بروز العديد من الزعماء الوطنـــيين، الذين حملوا الدعوات الإصلاحية التي كانت تؤكد أن من أهم عوامل وأسباب استقلال وحفظ الأمة، الاتحاد والشوري، وعدم الاعتماد علي الأجنبي.

بـــوارد ثـــورة:

عـــاد «القســـام» إلي بلدته، وهو يحمل بين جوانحه بوادر وبذور ثورة، ووعي وإيمان بضـــرورة اتحـــاد والتقاء كل الشعب حول هدف واحد، وهو الاستقلال والتحرر، وبناء الوطـــن علي أساس من القيم والأخلاق والمبادئ الوطنية. آمن «عزالدين القسام» أن رجل الديـــن ليس معلم الفروض والعبادات فحسب، بل معلم الإباء والوطنية وعزة النفس. كان

دور رجل الدين عنده، دفع المؤمنين إلي رفض التواكل والاستكانة، وعدم عز لهم عن قضايا شعبهم.

كـــان أول تجســـيد لمفهومه عن رجل الدين المجاهد العملي، حين قاد مظاهرة طافت شـــوارع بلدته، تأييداً للعرب الليبين، يوم هاجم الإيطاليون ليبيا. وقد دعا «القسام» الناس إلي الـــتطوع لقـــتال الإيطاليين، وكون قوة من المتطوعين وصلت إلي ٢٥٠ متطوعاً، وقام بحملـــة جمع تبرعات لتأمين ما يلزمهم ويلزم أسرهم، لكن السلطات العثمانية لم تسمح لهم بالسفر لنصرة إخوالهم الليبيين.

كـــان يكره الاستعمار. لذا رفع راية المقاومة ضد فرنسا في الساحل الشمالي لسورية، وكان في طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح في ثورة جبال صهيون (١٩١٩ - ١٩٢٠م) مع المرحوم «عمر البيطار».

تـــرك قريته، وباع كل ما يملك، وانتقل مع أسرته إلي قرية الحفة ذات الموقع الحصين، في سبيل الثورة. التي كانت بالنسبة له مدرسة عملية صقلته، وعلمته الكثير من الدروس.

وللدور الخطير الذي قام به القسام في الثورة ضد الفرنسيين، حكموا عليه بالإعدام، لما عرفوا من قوة نفوذه، وتأثيره علي الناس.

مرحلة جديـــدة:

بعـــد إخفاق الثورة في جبال صهيون، التجأ «القسام» مع ستة من رفاقه إلي فلسطين، حيـــث وصل إلي حيفا أواخر صيف ١٩٢١م، ثم لحقت به أسرته بعد حين، وكان وصوله إلي فلســـطين إيذانـــا ببداية مرحلة جديدة ومجيدة في تاريخ النضال الفلسطيني ضد قوات الانـــتداب البريطاني وقطعان اليهود التي جاءت تغتصب الأرض وتقيم وطنها القومي الذي وعدهم به بلفور وزير خارجية بريطانيا علي حساب عرب فلسطين.

اســـتقرت الأمـــور له ولأسرته في حيفا، وبدأت حياة القسام النضالية منذ ١٩٢٢م، عمل مدرسا في المدرسة الإسلامية بحيفا، وكان خطيباً وإماماً لجامع الاستقلال فيها، وراح يـــزرع روح الجهـــاد والكفاح في النفوس، مركزاً في دروسه الدينية علي ضرورة التآخي والتلاحم والتناصر بين الناس من أجل حماية الوطن.

آمن «القسام» مستفيداً من دروس النضال التي عاشها، أن الثورة المصلحة هي وحدها القادرة علي إلهاء الانتداب، والحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين. ومن الطبيعي أن تحتاج الثورة المسلحة إلي تخطيط سياسي وعسكري، وإلي تعبئة الجماهير نفسيا لتأييد الثورة والاشتراك فيها، وإلي تنظيم سري ثوري يُربي فيه المقاتلون عسكرياً وسياسياً.

دقـــة التنظيم:

إتصــف «الشيخ عزالدين» بقدرة فائقة علي التنظيم واختيار الأعضاء والقيادة، وسُبل الإمـــداد والتســـليح، وكان يدقق في اختيار الأعضاء، ويضع المرشح الذي يتوسم فيه الخير والاســـتعداد زمنا تحت المراقبة، إلي حين دعوته للعمل في التنظيم من أجل إنقاذ فلسطين، وكان كل ذلك يتم في إطار من السرية الكاملة.

ســـاعد «القســـام» عمله مدرساً وخطيباً وإماماً ومأذونا شرعياً، علي معرفة الناس، وســـبل إقـــناعهم والتأثير فيهم. وقد ربط «القسام» الجانب النضالي بالجانب الاجتماعي، فكـــان يهـــتم بتحسين أحوال الفقراء ومساعدتهم، ويسعي إلي مكافحة الأمية بينهم، إيمانا مـــنه، بأن ذلك يُعمق الوعي بين الجماهير، ويزيدها إيمانا بالثورة، ويشحذ عزمها للكفاح المســـلح، وحيث كان يقيم العمال وفقراء الفلاحين الذين طُردوا من أراضيهم، ولجأوا إلي حيفا طلبا للعمل راح «القسام» يؤلف القلوب من حوله.

وكـــان «القســـام» في جمـــيع مراحل عمله من الإقناع إلي ضم المناضلين إلي جماعته يســـتعين بالكـــتمان علي تحقيق هدفه، فكان لا يبوح بالسر الذي يحمله، وهو الدعوة إلي الثورة لمنع إقامة وطن قومي صهيوني في أرض فلسطين، إلا لأشخاص قلائل بعد أن يدرس نفسيتهم ويمتحن إخلاصهم لمدة قد تطول عدة سنوات.

وكـــان ينتقي أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة، ويقوم بتدريبهم في رحلات ليلية، كما كانوا يقومون بتحركات استطلاعية يتمرنون في أثنائها علي إصابة الهدف.

بسرعة مذهلة أخذت نواة الحركة الثورية تتألف حول «القسام» وتتسع، وازداد عدد المنضمين إلي جهازه، الذي أداره بمهارة وحكمة ولباقة، وشكل «القسام» من أفراد المنظمة حلقات صغيرة،تتألف الوحدة منها من رقيب وخمسة أفراد.

مهمة صعبـــة:

كانـــت مهمـــة تمويل حركة «القسام» ومدها بالسلاح صعبة للغاية، بسبب الأحوال السائدة، وسريان مفعول أنظمة الطواريء والقوانين الاستثنائية، وكانت مصادر التمويل مع ذلـــك متعددة وإن كانت تتم بشكل سري، منها: تبرعات الأفراد أعضاء التنظيم، تبرعات من أبناء حيفا كان يتولي جمعها سراً بعض أعضاء الحركة والرجال الوطنيين. وتبرعات من الجمعية الإسلامية في حيفا تسجل في ميزانيتها تحت بند مساعدة المعوزين من المسلمين.

وكان الحصول علي السلاح أكثر صعوبة من الحصول علي المال، وقد قدم كبار قادة المـــنظمة بعـــض البنادق والمسدسات القديمة، إضافة إلي الأسلحة التي هربها إلي حيفا بعض أنصار «القسام» ومريدية في جبلة واللاذقية.

عندما قرر «القسام» القيام بأعمال مسلحة ضد الأعداء، لم يكن الشعب، أو الإنجليز، أو اليهود يعلمون شيئا عن المنظمة القسامية، فيما كان الشيخ القسام يمارس وظائفه وأعماله في حـيفا ويظهر أمام الجميع. قام القساميون وتشكيلات الشباب المرتبطة بهم فور صدور قـرار «القسـام»، بسلسـلة من الأعمال ضد المستعمرات الصهيونية، ودوريات الجيش البريطاني والشرطة، أشاعت هذه الأعمال القلق والذُعر في الأوساط الإنجليزية والصهيونية.

حـالة تخبـط:

احـتار الانجلـيز والـيهود، وأصابتهم حالة من التخبط، لعدم معرفة أصحاب هذه الأعمـال ومـن يقف خلفهم. و لم تقع معارك كبيرة مكشوفة بين القساميين والجيش، إذ اقتصرت أعمال المجاهدين علي مهاجمة المستعمرات الصهيونية ودوريات الشرطة والجيش ثم الاختفاء، وهي من أساليب حرب العصابات.

وقد ألحقت هذه الأعمال خسائر كبيرة بالممتلكات والمزروعات الصهيونية، وأدت إلي قـتل كثير من الإنجليز والصهيونيين. ووقعت اصطدامات شديدة وواسعة بعض الشيء بين المجـاهدين وقـوات السـلطة في كل من أم الزينات وفرادة وعرابة والبطوف، وبيت جن والناصـرة وجـبل الكـرامل وبلد الشيخ ووادى الطبل باكرمل وشعب ولوبية. وفى عام ١٩٣٣م هاجم عدد من المجاهدين مستعمرة «نهلال» الواقعة قرب الطريق الرئيسى بين حيفا والناصـرة، وكـان هجوما مركزا استعملت فيه القنابل والمتفجرات، مما الحق بالمستعمرة خسائر كبيرة في الأرواح والأموال.

اسـتشهاد البطل:

في ٢٠ نوفمـبر سـنة ١٩٣٥م وقعت المعركة الكبري بين القساميين والأعداء، وقد اسـتمرت أربـع سـاعات، هلك خلالها عدد غير قليل من رجال السلطة، واستُشهد من القسـامين الشيخ «يوسف عبدالله»، و«أحمد الشيخ سعيد»، و«سعيد عطية أحمد»، و«أحمد مصلح الحسين»، وجرح عدداً آخر، وبعد الظهر استؤنفت المعركة، فاستشهد «الشيخ عز الديـن القسـام» وجـرح عدداً من رجاله، بينما سقط عدد منهم أسرى بأيدي الإنجليز فنقلوهم إلي سجن نابلس. وقُتل من الجانب البريطاني أكثر من خمسة عشر.

اسـتطاع عدد من القسامين اختراق الحصار والوصول الي منطقة الشمال الفلسطينية، وهـم يحملون جثة قائدهم الشهيد، إلي مدينة حيفا، اضطرب الرأي العام الفلسطيني لدي سماعـة أنـباء المعركة، واستشهاد «القسام» وأصاب الحادث فلسطين كلها بالألم والحزن، وخرجـت الصحف تشيد بالشهداء وببطولاتهم وثباتهم في وجه الأعداء، وقد نُقل الشهداء إلي المدينة ملفوفين بالأعلام العربية.

هرَع إلي حيفا عدد كبير من زعماء البلاد للاشتراك في تشييع جثمان «القسام» ورفاقه الشــهداء، وغصت المدينة بوفود حضرت من جميع أنحاء فلسطين، في حين قضي أهل حيفا ليلتهم بانتظار تشييع الجنازة وأعلنوا الإضراب العام فيها.

نُعــى الشيخ «القسام» وصحبه من مآذن المسجد الأقصي ومساجد فلسطين، وصلي الناس عليهم في كل مكان صلاة الغائب، وحملت الجماهير نعش «القسام»، وصار موكب الجنازة مجللاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية.

ودُفــن الشهيد في مقبرة الباجور قرب بلدة «الشيخ» التي تبعد ٧كم تقريبا عن حيفا واستغرقت مسيرة الجنازة نحو ٤ ساعات، وتحولت إلي مظاهرة عاصفة، وقعت خلالها عدة اصطدامات دامية بين الجماهير، وقوات الحكومة وجرح فيها كثيرون من الجانبين.

نــيران الغضب:

تــرك استشــهاد «القســام» رد فعل عنيفاً في الأوساط الفلسطينية والعربية، فعمت المظاهرات الصاخبة مدن فلسطين وقراها، نادي خلالها المتظاهرون بوجوب الثأر للشهداء، والالــتجاء إلي القــوة المســلحة لمحاربــة الأعداء، وجرت في العواصم العربية مظاهرات ومهرجانات تحتفل «بالقسام» ورفاقه الشهداء.

وكــان لحــركة القسام واستشهاده أكبر الأثر في إشعال نيران الغضب والثورة، وغدا الشعب برمته مؤمنا بوجوب النضال الفلسطيني المسلح.

البشـــير الإبراهـــيمى

(١٨٨٩-١٩٦٥م)

الـــــتحرير بالعـــلم



في عـــبارات وقحة، وفي افتتاح مهرجانات الحرية، التي أقامها الحاكم الفرنسي بمناسبة مرور مائة عام علي احتلالهم للجزائر سنة ١٨٣٠م. وقف يقول في قسنطينة: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات لبلوغنا مائة عام في الجزائر فحسب، فقد أقام الرومان من قبلنا ثلاثمائة عام وخـــرجوا كارهين، ألا فلتعلموا أن مغزي هذه المهرجانات هو: تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار».

هـــذا القـــول المغرور الذي جاء علي لسان الجنرال الفرنسي المحموم، جانبه الصواب، فالإســـلام أقـــوي وأبقي من أن تشيع جنازته في أي مكان يصل إليه نوره، مادامت هناك صدور وقلوب شملها هذا الضياء.

وقـــد أكدت حرب تحرير الجزائر هذا المعني، فقد كان للإسلام الدور الأكبر في إلهاب الحمـــية الباسلة لجنود معارك التحرير وإعدادهم لهذا الجهاد الذي استأصل شأفة الفرنسيين بالجزائر.

أذكي روح الجهاد في نفوس الجزائريين علماء الدين الإسلامي المستنيرون الذين تحدوا الظـــلم في بسالة رائعة، مستمدين من عقيدتهم الإسلامية وتاريخهم الممتد عبر القرون وقوداً لا تهدأ ناره ولا يخمد ضرامة، فهم قادة المشاعل التي لا تخبوا أبدا.

لقـــد أقلـــق هـــؤلاء العلماء الاحتلال بما أثاروا من همم وأحيوا من حمية، وبنوا من مـــدارس، وانشئوا من صحف مستمدين من كتاب الله غذاءهم وضياءهم الهادي لاسترداد حقوقهم المغتصبة وتحرير أرضهم.

كـــبير العلـــماء:

مـــن هؤلاء العلماء «محمد البشير الإبراهيمي» كبير علماء الجزائر وشيخ المجاهدين بها، والـــذي وُلِدَ في عام ١٨٨٩م من أسرة كريمة ترجع بنسبها إلي الأدارسة العلويين من أمراء المغـــرب في أزهـــي عصوره، وكان عمه «الشيخ محمد الملكي الإبراهيمي» العالم في علوم الـــنحو والصـــرف واللغة والفقه، وقد تعهده هذا العالم ووضع له نظام تعليمي محدد، فقد حفـــظ القرآن الكريم وألفية ابن مالك، وألفية ابن معطي، وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثـــر، وهو في السابعة من العمر، إضافة إلي معظم رسائل بلغاء الأندلس، ودواوين المتنبي والبحتري والطائي وغيرهم.

وقـــد هـــيأه هذا المحصول الضخم من الثقافة العلمية المتنوعة للتدريس العلمي لزملائه عقب وفاة عمه، وهو في الرابعة عشرة من عمره.

وعندما وصل إلي سن العشرين ورغبة في المزيد من العلم شد الرحال إلي مراكز الثقافة الإســـلامية في مصر والمدينة. وصل إلي القاهرة فأقام بها ثلاثة أشهر، حيث حضر الدروس بالأزهر ولاقي كبار علمائه، إذ استمع إلي «الشيخ سليم البشري»، وحضر دروس «الشيخ بخيت المطيعي» في الحديث بالرواق العباسي، ودروس «الشيخ يوسف الدجوي» في البلاغة، ودروس «الشــيخ الســمالوطي» بالمسجد الحسيني، وحلقة «الشيخ سعيد الموجي» بجامع الفكهاني، كما زار دار الدعوة والإرشاد حيث قابل «الشيخ محمد رشيد رضا».

ومـــن القاهرة سافر إلي المدينة ليستأنف العلم في حلقات الحرم النبوي سنة ١٩١١م. وهناك التقي بعالمين كبيرين هما: «الشيخ عبدالعزيز الوزير التونسي»، و«الشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي».

أخذ عن الأول الموطأ ولزم دروسه في الفقه المالكي وشرح التوضيح لابن هشام، وعن الثاني شرح صحيح مسلم.

نقطـــة تحـــول:

وكـــان مقام «البشير» في المدينة المنورة نقطة تحول خطير في اتجاهه العلمي والسياسي فقد فاض عليه المكان بإشراقاته الروحية الفياضة، فأقبل علي المكتبات المليئة بكنوز العلم في دار الهجــرة، فـــأخذ يـــنهل منها ما استطاع من كتب الفقه واللغة، والأدب مثل الكامل للمـــبرد، والبيان والتبين للجاحظ، كما حفظ كثيراً من دواوين الشعراء، فضم إلي تضلعه الفقهـــي تضـــلعاً أدبـــياً أمده بالطلاقة والفصاحة، حيث تصدر حلقات التدريس كعهده بالجزائر.

وعـــندما قامـــت الحرب العالمية الأولي اضطر إلي السفر إلي دمشق ليواصل التدريس بالمســـجد الأموي مع «الشيخ بدر الدين الحسيني» و«الشيخ جمال الدين القاسمي» و«الشيخ الخضـــر حســـين» فأثمرت تلك الدروس الثمينة، التي أعادت بهاء الشريعة وجمال العربية في ديار الشام.

وتغـــير اتجاهـــه السياســـي في المدينة المنورة، عندما التقي فيها بزعيم الإصلاح الديني بالجزائر «عبدالحميد بن باديس» وامتد الحديث بينهما إلي نكبة الجزائر بالاستعمار، وأخذا يضـــعان الخطط لبعث الأمة الإسلامية بالجزائر، حتي ينهض الجزائريون ويقاومون الاحتلال الفرنسي بإعاز من الدين وعملاً بقواعده.

فقد اتفق الاثنان علي أن البعث الإسلامي بالجزائر لن يتم إلا بتربية جيل مؤمن يعتنق مبادئ الإسلام عن حمية وإخلاص، وأن كل معركة سياسية تسبق هذه التربية الإسلامية لن تحقق الثمار المرجوة منها.

لذلــك عكفــا علي تدارس الوسائل التي يمكن أن تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصــلة لتلك النهضات الشاملة، وأثناء هذه اللقاءات التي جرت خلال سنة ١٩١٣م، تم وضــع الأســس الأولي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م.

نــدوات ودروس:

وبعــد عودتــه إلي وهران في بلدة الجزائر أخذ البشير يعقد الندوات العلمية للطلاب، وأعــد الــدروس الدينــية الموسمــية لكافة المسلمين من صغير وكبير، وبعد أن تزايد عدد الحاضــرين، انتقل إلي الدروس النظامية ذات المنهج المحدد، وبعث بطلابه إلي البلاد المجاورة ينشــرون رســالته ويهيــئون النفوس للقائه في أيام الجمع، حيث كان يزور القري والمدن ليخطب الناس أيام الجمع.

وكــان لهذه الخطب أثراً كبيراً في إحياء جذوة الدين وإشعالها في النفوس المتعطشة لمن يعــيد للإســلام ندارتــه وبهائه، ويذكرهم بأمجادهم، ويحثهم علي الجهاد لرفع راية دينهم العظيم.

هــذا النشــاط أزعج سلطات الاحتلال، خاصة وأنه توازي مع نشاط ابن باديس في قســنطينة، فعملــوا علي تعويقه بكافة الطرق. ولكن البشير لم يأبه بما يفعلوه، ظل يلتقي بطلاب العلم ويحثهم علي الثورة والتمسك بقيم ومبادئ الإسلام، متعاوناً مع ابن باديس، وأثمــرت دعوتهمــا وجهادهمــا ما بين سنتي ١٩٢٠-١٩٣٠ عن تأسيس جمعية العلماء الجزائريين.

وقــد ظــن المســتعمرون أن جماعة علماء الجزائر ليست إلا نمطا من مشيخة الطرق الصوفية، أنشأها العلماء لإقامة حفلات الذكر وتلاوة الأدعية والطواف بالأضرحة، وجمع الــزكاة. كانوا يعتقدون أن طول فترة الاحتلال، قد قضي علي كل معني كريم من معاني الإسلام وأن جذوة الوطنية قد خبت.

وجــاءت الأحداث لتثبت لهم خطأ هذا الاعتقاد. ففي العام الذي خرجت فيه جمعية العــلماء الجزائــريين إلي الوجود، نظم الفرنسيون مهرجاناً للاحتفال بمرور مائة عام علي احــتلال الجزائر، ورغم إحضارهم أعلام الفن الباريسي رجالا ونساءاً، ممن توهم المحتلون أنهم سيأخذون علي الجزائريين أسماعهم وأبصارهم بما يعرضون من فنون. فلم تكد تحين أيام الاحــتفال حــتي قاطعها الجزائريون ووجد الفرنسيون أنفسهم وكأنهم يحتفلون بأنفسهم. وعرف الفرنسيون أن الجمعية التي أنشئت منذ أيام قد تركت هذا الدوي الرنان.

محـــاربة المحتلـــين:

وكـــان «ابن باديس» و«البشير» من الحصافة بحيث أبدوا شيئا وأضمروا أشياءاً، فقد اكتفوا في نصوص اللائحة الرسمية بإعلان الدعوة إلي الإصلاح الديني والتعليم، بينما تواصي المجـــتمعون في أول انعقـــاد رسمي لجماعة العلماء بمحاربة المحتلين، وتقويض دعائم السيطرة الفرنسية علي البلاد، وبث الروح الإسلامية عقيدة ولغة وتشريعاً.

وقـــد اختص «ابن باديس» بالإشراف علي مقاطعة قسنطينة، والبشير بالإشراف علي مقاطعة وهران، و«الشيخ الطيب العقبي» علي مقاطعة.. الجزائر. وأثمرت هذه الحركة الجادة النشـــطة، فسرعان ما أقيمت عشرات المدارس والمساجد، وطُبعت الكتب الإسلامية القديمة لتقدم الزاد الحي للنشيء الجديد.

وفي هذه المعركة الجهادية بذل «الشيخ البشير» مجهودا كبيرا، حيث كان يلقي عشرة دروس في اليوم الواحد، يبتدئها بدرس الحديث بعد صلاة الصبح، ويختتمها بدرس التفسير بين المغرب والعشاء. ثم ينصرف بعد ذلك ليلقي المحاضرات في التاريخ الإسلامي في النوادي والمنتديات. وفي أيام الجمع كان يتجول بالقري يُنشط العزائم ويبعث الهمم.

وقـــد أثمـــر هـــذا النشاط بناء ٤٠٠ مدرسة إسلامية، تضم مئات الآلاف من البنات والبـــنين، وإنشاء أكثر من ٢٠٠ مسجد للصلوات والمحاضرات. مما أفزع المحتلين فاعتقلوا البشير ونفوه إلي صحراء وهران.

وصـــل الليل بالنـــهار:

وعـــندما تـــوفي «ابن باديس»، اجتمعت جمعية العلماء يوم وفاته وانتخبت بالإجماع «الشيخ البشير» لرياسة الجمعية من بعده. وقد أُبلغ بهذا الاختيار في منفاه بصحراء وهران، فـــتحمل التبعة الكبيرة بعزيمة شماء، وشجع تلاميذه علي الذهاب إلي الأماكن النائية لمجاهدة الاحتلال.

وبعـــد أن انتهت فترة المنفي واصل نشاطه، حيث راح يعظ ويرشد ويحاضر، وينشئ المـــدارس ويضع المناهج، ويرأس تحرير جريدة البصائر، ويدير جمعية العلماء، ويقوم بالصلح بين الجماعات المتخاصمة في ربوع البلاد، حتي كان كثيرا ما يصل الليل بالنهار دون نوم.

وخطي المجاهد الكبير خطوة أكبر علي طريق النضال، حيث عمل علي إنشاء المدارس الثانوية،فبدأ بإنشاء معهد ديني ثانوي كبير بقسنطينة، وأطلق عليه اسم «ابن باديس» تخليدا لذكري الرائد الأول في ميدان الكفاح. وكان تلاميذ السنة الأولي به أكثر من ألف طالب.

ومـــن تلاميذ هذا المعهد كان دعاة الحركة التحريرية بالجزائر، حيث تقدمت الوفود المؤمنة إلي معركة الاستقلال بحماسة ورغبة في الشهادة قبل الانتصار.

حريـــة وانتصـــار:

وهكذا أثمر جهاد علماء الدين في الجزائر حرية وانتصاراً، فقد كانت التربية الدينية في مـــئات المدارس والمساجد والمعاهد التي عمل علي إقامتها البشير ورفاقه، بمثابة المعسكرات الحربـــية المؤمـــنة الـــتي أعدت الجنود ودفعت بهم إلي ساحة الحرية، فاستأصلوا الاحتلال الفرنسي في معارك رهيبة، صدق القوم فيها صدق المناضلين، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، بـــل تمـــت كـــلمة الله باستقلالهم الباهر. كما يقول الدكتور محمد رجب البيومي- وانتصـــروا بمـــبادئ الإسلام التي عبئتهم لهذا الجهاد الطويل. الذي حطم غرور الاحتلال الفرنســـي وقضي علي أوهامه. فقد جهلت فرنسا، أو تجاهلت أن أبناء الجزائر كغيرهم من أبناء العروبة، قد انحدروا من أصلاب قوم كرام يأنفون الذل، ولا يصبرون علي الضيم، بل كـــانوا يؤثرون الموت في عزة وكرامة علي الحياة في ذلة ومهانة. وتناسي هؤلاء الفرنسيون أنـــه لا بقاء للاستعمار في أمة مسلمة لأن مبادئ هذا الدين وتعاليمه وتوجيهاته خير دعامة للحرية، وأقوي حافز إلي الثورة ضد الذل والعسف.

إن الدين يأمرنا بالاتحاد والتعاون والتآزر، ويفرض علينا القتال والنضال، كلما خيف علي حريتنا أن تُسلب، وعلي كرامتنا أن تُهدر، فكيف يمكن أن يكون للاستعمار بقاء مع هذه المبادئ العظيمة التي قررها الدين.

أديـــب كبـــير:

يـــبقي أن تعـــرف أن «البشير»كان أديبا كبيرا صرفه الجهاد الإسلامي لا عن تأليف الكتـــب، وإنمـــا صـــرفه عن طبع ما كتب وألف، فقد كان يجمع آلاف الجنيهات لينشئ المـــدارس ويـــبني المســـاجد والمعاهد، وشغله الجهاد عن مؤلفاته، فترك كتبه العلمية رهينة مخطوطاتـــه. وكـــان مـــن بين هذه المؤلفات: بقايا فصح العربية في لهجة الجزائر، النقايات والنفايات، أسرار الضمائر في العربية، التسمية بالمصدر، الإطراد والشذوذ في العربية، قصة كاهـــنة أوراس، حكمـــة مشـــروعية الزكاة في الإسلام، شُعب الإيمان، مخارج الحروف، الملحمية الرجزية في التاريخ، فتاوي متناثرة وغيرها الكثير. إضافة إلي مجموعة عيون البصائر التي تضم افتتاحيات جريدة البصائر.

تحقـــق أمـــل «البشير الإبراهيمي» في التحرير، وعاش حتي رأي الحرية وشمس العربية والإسلام تشرق علي الجزائر، حتي توفي في مايو سنة ١٩٦٥م.

ابـــــن بـــــاديس

(١٣٠٧-١٣٥٩هـ) (١٨٨٩-١٩٤٠م)

الأب الـــــروحى لـــــثوار الجزائـــــر



لسبب ما في نفوس بعض الحكام، ونفاقا لذوي السلطان، أهمل كُتاب التاريخ المحدثين دور الديـــن الإســـلامي وجهاد علماء الدين في حركات التحرر العربية في العصر الحديث. فقد كان الديـــن هو المحرك الأساسي والباعث علي الصمود في وجه المستعمرين، وكان هو الطاقة التي لا تنفدو التي استمد منها أهالي البلاد المحتلة المدد لمواصلة الجهاد حتي تحررت بلادهم.

ســجلات التاريخ المنصف التي لم تُزيف تؤكد ذلك بجلاء ووضوح، سواء في مصر أو الجزائـــر، أو في تونـــس وغيرها من الأوطان التي اصطلت بنيران الاحتلال. فلا يمكن لمحلل منصف أن يُنكر دور جبهة علماء الجزائر في الجهاد وإعداد النفوس للثورة، وبناء جيش من الإسلاميين كان في طليعة الثوار الذين أجبروا الاحتلال الفرنسي علي الرحيل.

ومـــن علماء الدين الجزائريين، الذي يمكن بحق اعتباره الأب الروحي لثوار الجزائر، والذي أوقـــد شعلة الحرية وظل حارسا لها حتي اليوم الأخير من عمره، والتي حملها «من بعده تلاميذه الذين غرس فيهم روح الجهاد والدفاع عن الدين والوطن». «الشيخ عبدالحميد بن باديس».

نشـــأة دينيـــة:

ولـــد عبدالحمـــيد بمديـــنة قسنطينة في ١١ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧هـ، ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٩م. لأســـرة اشتهرت بمكانتها العلمية والأدبية. نشأ نشأة دينية نيرة، درس علوم اللغة العربية والإسلام علي أيدي أناس يفهمون الشريعة فهماً صافياً، ثم رحل إلي جامعة الزيتونة (١٩٠٨م) وهـــو في التاسعة عشرة من عمره فأكمل دراسته الدينية بتونس علي يد كثيرين في مقدمتهم «الشيخ محمد النخلي» و«الشيخ طاهر بن عاشور»

وبعـــد أربـــع سنوات من الدراسة بالزيتونة، سافر إلي الحجاز ١٩١٢م، وهناك التقي «بالشـــيخ حمـــدان الونيس» الذي درس علي يديه بالجزائر والذي أخذ علي «ابن باديس» عهـــداً ألا يعمـــل موظفاً بالحكومة الاستعمارية في يوم من الأيام. كما تتلمذ علي الشيخ «أحمـــد الهـــندي» الـــذي نصحه بعد تحصيل العلم أن يعود إلي وطنه والاجتهاد في خدمة العروبة والإسلام.

بعـــث إســـلامي:

وقـــبل أن يعـــود الي الجزائر، وهو في المدينة المنورة تدارس مع رفيق جهاده «الشيخ البشير الإبراهـــيمي» خطـــة النضـــال لبعث الإسلام من جديد في الجزائر، وإعداد النفوس للثورة وبناء كتائـــب الشـــباب المســـلم وتجهيزهم ليوم التحرير، واتفقا علي ضرورة تربية جيل من العلماء والمثقفين ينهض بمهمة إعادة الجزائر إلي العروبة والإسلام والقومية، جيل يمتلك فكرة صحيحة عن الدين ولو مع علم قليل، وتوفير كتائب معدة لمهمة محددة، هي مهمة وضع الوطن الجزائري علي طريق الاستقلال، وتسليمه لجيل جديد يواصل رحلة النضال بالسلاح.

وكانت هذه الخطة هي الرد الواجب والضروري لمواجهة إجراءات الاحتلال الفرنسي التي هدفت إلي فرنسة الجزائر، ومطاردة اللغة العربية والإسلام بأقصي صور الإبادة والتشريد والسحق والاستئصال، فقد أقدمت قوات الاحتلال علي هدم المساجد وإغلاق المدارس والكتاتيب في غلظة وحشية، وحاربت القضاء الشرعي محاربة ضارية حاقدة. ووضعت سلطات الاحتلال مجموعة من القوانين الجائرة لإبادة اللغة العربية، إذ أعلنت فرنسا: أن اللغة الفرنسية هي لغة الدولة الرسمية، وأصدرت قوانين صارمة تُحرم أن يقوم أي مسلم بإدارة مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بتصريح من قائد المنطقة، فإذا اتجه عربي غيور إلي المطالبة بهذا التصريح أُعتقل أو أُعدم، ثم فتحت المدارس الفرنسية، وكانت المناهج التعليمية لا تعتبر اللغة العربية مادة تستأهل الدراسة، وكذلك الدين الإسلامي، ولكنها تركز اهتمامها بتاريخ فرنسا القديم والحديث، والتغني بالحرية والحضارة الفرنسية المزعومة.

برنامج تعليمي:

وحتي يقاوم ويواجه هذه الهجمة الشرسة علي الإسلام ولغة القرآن، نهض «ابن باديس» بعد عودته إلي الجزائر بتنفيذ برنامج تعليمي وتثقيفي وإصلاحي كبير استمر ثمانية عشر عاماً في إعداد العدة وتكوين النواة التي تبلورت في قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٤٩هـ، ٥مايو سنة ١٩٣١م. التي نضج تيارها الفكري وولد هيكلها التنظيمي من خلال لقاءات المثقفين الجزائرين، في نادي الترقي بالعاصمة الجزائر، بعد مؤتمر حضره علماء الجزائر وفقهاؤها، دام أربعة أيام، وانتخب «ابن باديس» – في غيابه– رئيساً لها.

طوال هذه السنوات التي سبقت قيام جبهة العلماء، كان «ابن باديس» يُلقي بقسنطينه دروسه في مسجد سيدي قموش وفي الجامع الكبير، وعندما منعته الحكومة الفرنسية ١٣٣٢ هـ – ١٩١٤م من التدريس في الجامع الكبير، تحول إلي التدريس في الجامع الأخضر. وكانت دروسه تبدأ في مسجد سيدي قموش بعد صلاة الفجر، ثم يقضي النهار في تعليم أطفال المدينة القرآن والعربية والدين.

وفي المساء تبدأ دروسه للكبار والكهول في الجامع الكبير أو الجامع الأخضر، وكثيرا ما كان يسافر بعد الفراغ من دروسه الليلية إلي الجزائر العاصمة ووهران وتلمسان.

ومن سنة ١٣٣١هـ – ١٩١٣م حتي انتهاء الحرب العالمية الأولي سنة ١٣٣٦هـ – ١٩١٨م، كانت قد تكونت من حوله مجموعة من التلامذة والمريدين والأنصار بلغت الألف عددا، كل ذلك بالتعليم واللقاء المباشر، فقد كان بحق مصنع لصناعة الرجال.

اســتغلال الطرق الصوفية:

وكمــا حارب الفرنسيون عروبة الجزائر وذاتيتها القومية بواسطة إشاعة الجهل والأمية بين الأغلبية الساحقة من الشعب، وبواسطة فرنسة التعليم للقلة القليلةمن الجزائريين الذين أتيحت لهم فــرص الالــتحاق بمدارسهم، فإنهم قد شنوا هجومهم علي الإسلام عندما رأوه لحنا يميز المواطن الجزائري، ووشيجة تربطه بالعروبة والعالم العربي، وتشده بعيداً عن فرنسا والفرنسيين.

و لم يعتمد الفرنسيون في حربهم للإسلام بالجزائر علي المبشرين فقط، ولا علي إطلاق العنان لجماعات التبشير في المناطق الجنوبية وإغلاقها أمام جمعية العلماء فحسب، وإنما اعتمدوا أيضا علي رجــال الطــرق الصوفية -(الطرقية)- ومكنوا لهم من إحكام القبضة علي القلوب وشل عقول أغلبــية الشعب بالشعوذة والخرافات، وشل إرادتهم وفعاليتهم بالتواكل والاستسلام. ولذلك بدأ «ابــن بــاديس» حملته العلنية ضد الطرق الصوفية سنة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م. ذلك المسخ المشوه للإسلام وتعاليم الدين الحنيف.

فقد وضع رجال هذه الطرق أنفسهم في خدمة المستعمر، وأصبحوا أدواته التي يعتمد عليها في تخديــر الجمــاهير، وصــوروا للناس ما أنزل الفرنسيون بالبلاد من خراب علي أنه إرادة الله سبحانه، ودعوا من أجل ذلك للاندماج في فرنسا امتثالا لإرادة الله. أعلن «ابن باديس» الحرب ضد هذه الطائفة الضالة التي فرت إلي حمي المستعمر والتي نسبت إلي الله زورا وبهتانا، والله بريء مما يفترونه عليه.

وقد نجحت جمعية العلماء الجزائريين بقيادة «ابن باديس» نجاحا ملحوظا في تجريد هؤلاء المشعوذين من صلاحيات التحدث باسم الإسلام، وأخذ المجتمع الجزائري ينظر إليهم كمارقين بــاعوا ديــنهم وكرامــتهم للمســتعمر، حتي لم يعودواهم ومن تبعهم علي درب الاندماج يســتحقون شرف الانتساب للإسلام، بل امتنع الناس عن دفن هؤلاء بمقابر المسلمين. وكان انحســار نفــوذ هؤلاء المشعوذين يعني زيادة القوة والأنصار لجمعية العلماء، وتصحيح صورة الإسلام، واتخاذه أداة في مناوأة الإستعمار. فقد رأي «ابن باديس» أن العودة إلى منابع الإسلام النقــية الأولي وأصوله الجوهرية السبيل الأوحد لبعث الجزائر المناضلة، والطريق الذي لا طريق ســواه كــي يتحول الإسلام إلي سلاح في معركتها ضد المستعمر، بعدما حوله المتصوفة إلي وسيلة لتبرير الخضوع للفرنسيين.

الجــهاد بالقلم:

وكانــت الصحافة أحد الجوانب الهامة من كفاح «ابن باديس»، فقد أنشأ صحيفتا؛ المنتقد والشهاب ليؤديا دور الإرشاد والتوجيه والتحفيز والدعوة إلي التحرير، وجعل «ابن باديس» من الصحيفتين ميدانا رحبا لضحض وإبادة ادعاء الفرنسيين أن بلدهم تحمل رسالة الحــرية والحضارة والإنسانية في العالم. فأخذ يبين كيف تشن بلد الحرية والحضارة حرب

الإبـــادة والاستئصـــال دون رحمة أو هوادة، وراح يكشف فظائع فرنسا في الجزائر. فيعلن كـــيف هاجمت القوات الفرنسية قبيله «العوفية» ليلة ١٨٣٢/٤/١٦م، وهي نائمة في الخيام قـــبل الفجـــر، فذبحت هؤلاء العزل الآمنين ذبحا لا رحمة فيه، كما بين كيف كانت تساق حـــيوانات الفلاحـــين غصبا للبيع، وكان من بين الغنائم أساور نساء في الأيدي المقطوعة وأقراط فتيات لا تزال تلتصق بها قطع من الآذان.

نـــذالة الطغـــيان:

ومـــن الفظائع التي بينها «ابن باديس» أيضا في الصحف ما فعله جنود الاحتلال، حين أوقـــدوا الـــنار لـــيلة كاملة أمام كهف يضم قبيلة بأجمعها، وما جاء الصباح ودخل الجند الكهـــف حتى وجدوا نحو ثمانمائة من جثث الضحايا البريئة من نساء وشيوخ وأطفال تحت أقـــدام الثيران والحيوانات التي انطلقت تتلمس النجاة من النار فداست كل عزيز ثم لقيت حتفها مع الناس.

ومن أفظع ما شوهد داخل الكهف، رجل أسلم الروح وهو ممسك بقرني أحد الثيران وخلفه امرأته وابنه الصبي، كأنه كان يدفع عنهما الثور الهائج من لفح اللهيب.

هـــذه الفظائع وأمثالها كانت أدلة «ابن باديس»، وحججه القاطعة علي نذالة الطغيان الفرنســـي، وهـــي التي أوحت له العزم في جهاده المستشهد حتى تنوعت آفاقه الإصلاحية، واستطاع أن يعصف بأسطورة فرنسة الجزائر وتنصير المسلمين.

هـــذا الجهـــاد المتواصـــل بكـــل وســـيلة جعله يتعرض للإغتيال في سنة ١٣٤٥هـ، ١٩٢٧م، وهـــو عائد إلي بيته في منتصف الليل بعد فراغه من إلقاء درسه في تفسير القرآن، لكـــن المحاولـــة فشلت، وألقي القبض علي الجاني بواسطة أعوان «ابن باديس»، ولكنه عفا عنه، واستمر في جهاده لا يخاف في الله لومة لائم.

موقـــف ثـــوري:

كان «الشيخ عبدالحميد ابن باديس» صاحب موقف ثوري ضد الاستعمار الفرنسي، وقـــد تصاعد هذا الموقف الثوري بتصاعد قوة التنظيم الذي أسسه وقاده ورعاه، كما كان يدعو الجميع أن يسلكوا مثله هذا المسلك الثوري، وأن ينفخوا مثله روح الاجتماع الثوري في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد.

وسافر إلي «باريس» في ١٨ يونيو ١٩٣٦م وفد يمثل المؤتمر الإسلامي الجزائري، ولقيهم دلايـــيه وزيـــر شئون الجزائر في الحكومة الفرنسية، الذي هدد أعضاء الوفد بقوله: إن لدي فرنســـا مدافع طويلة، فتصدي له «ابن باديس» قائلا: إن لدينا مدافع أطول، فتساءل دلاييه عن أمر هذه المدافع الأطول التي تحدث عنها الشيخ، فأجابه الرجل: إنها مدافع الله.

وشـــهدت ســـنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م تزايد حرارة المواقف الثورية ((لابن باديس))، فعـــندما أراد الفرنســـيون الاحـــتفال بمرور قرن علي احتلالهم لمدينة قسنطينة طالب ((ابن بـــاديس)) الأهـــالي بمقاطعة الاحتفال فاستجاب له الشعب، وفشلت احتفالات الفرنسيين. ووجه إلي الأمة نداء يدعوها فيه إلي المقاومة السلبية حتي تسلم السلطات الفرنسية بالمساواة بين الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين في المجالس النيابية بالجزائر.

وعـــندما اقـــترب خطر الحرب العالمية الثانية من فرنسا، سعت الحكومة الفرنسية إلي الحصـــول عـــلي مســـاندة جبهة علماء الجزائر، فهدد ((ابن باديس)) بتقديم استقالته إذا ما ساندت الجبهة فرنسا في حربها. وقال: إنني لن أوقع هذه البرقية حتي لو قطعوا عنقي. وكان ثلاثة من أعضاء الجبهة قد اقترحوا إرسال برقية تأييد للحكومة الفرنسية.

عـــيد النهـــضة:

وأطلـــق ((ابـــن باديس)) علي يوم افتتاح جمعية العلماء لمؤسسة دار الحديث التعليمية بتلمســـان يـــوم عـــيد النهضة الجزائرية تعبيرا عن اقتراب الثمرة التي عمل لها من النضج والاستواء. وفي خطابه في ذلك اليوم ٢٧ سبتمبر ١٩٣٧م، حدد ((ابن باديس)) أعداء هذه النهضة وهم: الظلمة المستعمرون والدجالون الطرقية والخونة دعاة الاندماج، وأعلن أن هذه النهضة قد بلغت الحد الذي يخشاها فيه هؤلاء الأعداء.

وفي ســـنة ١٩٣٨م أعلـــن الشيخ المجاهد أن الحركة التي صنعها وقادها قد انتقلت إلي طـــور جديـــد فقد أصبحت تخيف بعد أن كانت تخاف. ومنذ هذا التاريخ وهذه الكتيبة المؤمنة تقدم العديد من النجوم المتألقة وترتفع بها إلي سماء النضال.

وإذا كـــان المصلح العظيم قد انتقل الي جوار ربه في سنة ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م، فإنه قد خلـــف من بعده أساتذة يحملون الراية ويوالون الجهاد، وفي مقدمتهم رفيق كفاحه ((الشيخ محمد البشير الإبراهيمي))، كما ترك من تلاميذه الشبان من صاروا قادة الثورة الجزائرية التي انطلقت في الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤م، ٥ ربيع الأول ١٣٧٤هـ، التي حققت حلم ابن باديس في الاستقلال عام ١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م، بعد قرن وثلث قرن من الاحتلال الفرنسي الوحشي ومحاولات الإبادة لهذا الشعب العربي المسلم الصابر المناضل العنيد، الذي دفع ثمن حريته مليون شهيد من خيرة شبابه*.

---

*محمود قاسم: ((عبد الحميد بن بارديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية))، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

الإمام أبو زهرة

(١٨٩٨-١٩٧٤م)

قلق في عقل النظام



رغـــم فترة الحكم الشمولى وتكميم الأفواه التى عاشتها مصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، وفى الوقت الذى خفتت فيه أصوات قائلى الحق، ظل الإمام الفقيه «الشيخ محمد أبو زهرة» يقول الحق بصـــوت جهـــير، لا يخشى فى الله لومة لائم، فقد كان لهذا الإمام قوة لا تُغلب، فهو مع فقهه الصـــائب، وعـــلمه الغزير ذو حجاج وجدل، يقتحم المعارك القلمية فى الصحف، والمصاولات اللســـانية فى الـــندوات، فيُسيطر على الموقف بدامغ الحجة، وواضح البرهان، لأن الرجل ممتلئ بأصول الشريعة، بصير بتيارات العصر ودوافعه، عالم بما يحيكه المغرضون من مكايد، ثم هو صريح لا يمـــارى ولا يـــدارى. لذلك كان موضع الهيبة والخشية يحذره معارضوه، ويؤيد أنصار رأيه فى حب خالص.

فى الوقـــت الـــذى كـــان فيه الكتاب والمفكرون الموالين للسلطة يتنافسون فى مدح الاشتراكية، ويشيدون بمنهجها فى تحقيق العدل، وزعم فريق منهم أنها من أصول الإسلام، كـــان الشيخ أبو زهرة معارضاً لهذه الآراء، فالإسلام شرعة سماوية فوق المذاهب الوضعية التى تتبدل وتتحول، وتظهر سوءاتها عند التطبيق.

شـــجاعة عـــالم:

هـــذا الرأى أغضب صاحب السلطان فى مصر وقت ذاك، فدعاه، لا ليناقشه بالمنطق الواضـــح، ولكن ليصيح به: أنت يا أبا زهرة تؤلف الكتب وتبيعها بالثمن الباهظ، وتعيش عـــيش المترفين، ثم تصيح فى الناس منددا بالاشتراكية غافلاً عن حقوق الكادحين والفقراء، وتقول أنك عالم من علماء الإسلام!!

بـــدأ المتحدث صاحب الجبروت حديثه مهاجماً للشيخ، وكان يعتقد أنه سيعتذر متراجعاً، ولكـــنه قال له فى ثبات وقوة حجة: أنا أؤلف الكتب داعياً إلى الله، يقرؤها المسلمون فى جنبات الأرض، خارج مصر وداخلها، ويسارعون إلى المناداة بإعادة طبعها حين تنفـــذ على وجه سريع فأســـتجيب، ثم أدفـــع الضرائب للدولة، وأعطى الزكاة للمستحق، وذلك كله مباح فى شريعة الإســـلام، بـــل إنـــه فـــرض على من يقدرُ عليه من العلماء، ولكنكم تصدرون الكتب مؤيدة سياســـاتكم، وتتحمل الدولة نفقاتها الكثيرة وتمتلئ بها المخازن الحكومية، وتوزع على الطلاب وغير الطلاب، فلا يقرؤها أحدا؛ فمن هو الصحيح؛ من يكتب لنفع المسلمين فيسعون لقراءة ما كتب، أم من يؤلف وتطبع الدولة مؤلفاته ثم تُركن على الرفوف؟

منـــطق قـــوى:

كـــان مـــنطق الشيخ قوياً، فلم يستطع المسئول جواباً، وبدلاً من الحرج، ترك الشيخ ينصـــرف ثم أوحـــى للمسئولين عن القطاع الذى يعمل به لمضايقته وملاحقته، ولكن هذه

المضـــايقات لم تُزد الشيخ إلا ثباتاً وتمسكاً بقول الحق. ليس فى مصر وحدها، بل وفى كل مكان ذهب إليه من بلاد العرب والمسلمين.

مـــن ذلـــك أن «الشيخ أبى زهرة» قد دُعى إلى ندوة إسلامية كبرى بإحدى العواصم العربـــية التى اشتُهرت بالثورية، وكان ضيوف الندوة من كبار العلماء فى العالم الإسلامى. أراد حـــاكم هذه الدولة أن يجعلهم يؤيدون ما يذهب إليه، ويوم افتتاح الندوة حضر رئيس الدولة ليلق كلمة الافتتاح، ويقول إنه دعا إلى هذه الندوة ليقرر العلماء أن الاشتراكية هى المذهب الإسلامى، وأن يدافعوا عن هذا الرأى.

بعد كلمة الرئيس عبست الوجوه، وتكدرت النفوس، ولم يتقدم أحد ليعلق على مـــا قالـــه هـــذا الرئيس، ولكن «الشيخ أبا زهرة» طلب الكلمة، واتجه إلى المنبر وقال بشجاعة منقطعة النظير:

((نحـــن عـــلماء الإسلام وفقهاؤه، وقد جئنا إلى هذه الندوة، لنقول كلمة الإسلام كما نـــراها نحن لا كما يراها السياسيون، ومن واجب رجال السياسة أن يستمعوا للعلماء، وأن يعـــرفـــوا أنهـــم متخصصـــون فـــاهمون، لا تخدعهم البوارق المغرية، وقد درسوا ما يسمى بالاشـــتراكية، فـــرأوا الإسلام أعلى قدراً، وأسمى اتجاهاً من أن ينحصر فى نطاقها، وسيصدر المجتمعون رأيهم كما يعتقدون، لا كما يريد رجال السياسة، فهم أولُو الأمر فى هذا المجال، ثم توجه الشيخ إلى زملائه قائلاً: هل فيكم من يخالف؟)).

فـــرأى الإجمـــاع منعقداً على تأييده، فقال: الحمد لله أن وفق علماء المسلمين إلى ما يرضى الله ورسوله.

وبعد موقف «الإمام محمد أبو زهرة»، لم تستمر الندوة فى انعقادها أسبوعاً كما كان من المقرر لها من قبل، بل كان حفل الاستقبال هو حفل الختام – كما يقول الدكتور محمد رجب البيومى.

وكـــان الشيخ يرى أن الفقيه لابد أن يكون أديباً على درجة عالية من البيان، فالثقافة الإسلامية جزء لا يتجزأ، وكم لا ينفصل، فلابد لدارس الفقه والحديث والتفسير أن يدرس علوم الأدب، لأنه لا يستطيع التعبير عن نفسه إلا إذا رُزق البيان الناصع. والأئمة الكبار من الفقهاء كانوا يملكون نعمة البيان، فاستطاعوا أن يضعوا المؤلفات القيمة. وما انحطت كتب الفقـــه فى العصور المتأخرة إلا لأنها كُتبت بأقلام لم تتذوق البيان العربى فجاء أكثرها شبيهاً بالأحاجى والألغاز.

وكان فضيلة «الشيخ محمد أبو زهرة» يحرص على المساهمة فى الندوات العلمية، مهما كان موضوعها، وحتى لو لم تتم دعوته إليها. فهو يرى أن الإسلام لم يترك كبيرة أو صغيرة

فى أمور الدنيا والدين إلا وتصدى لها، ومن هنا يجب أن يكون للعالم الديني المجتهد رأى فى كل أمر. ومن هنا كان حرصه على حضور هذه الندوات. وكان له آثار صوتية فى الندوات العلمية، لو جُمع مضمونها فى مؤلفات لبلغت عدداً كبيراً، إذ كان يحرص على أن يقول كلمة الإسلام جهيرة مدوية، فيتحول الموقف إلى النقيض.

الإسلام والسينما:

عندما عُرض فيلم «ظهور الإسلام» المأخوذ عن كتاب «الوعد الحق» للدكتور طه حسين، دعا بعض الكتّاب إلى تمثيل العصر النبوى على الشاشة باعتبارها عامل تأثير فى النفس. وأُقيمت ندوة أدبية لتدعيم هذا الاتجاه، ولم يجرؤ المنظمون لها على دعوة «الشيخ أبو زهرة» خوفاً من معارضته. ولكنه سعى إلى الندوة مستمعاً، وبعد أن تبارى المشاركون فى الحديث عن أهمية هذه الدعوة وأن للفن دوره المؤثر فى ذلك، طلب أبو زهرة الحديث، واضطر مُنظم الندوة أن يدعو الشيخ للكلام، فقال:

إن الذين يتحدثون عن أثر السينما فى الدعاية للإسلام بدليل انكباب الجمهور على مشاهدة فيلم «ظهور الإسلام» لم يوفقُوا فيما يدعون، لأننا نعلم أن هذا الفيلم لم يزد المؤمن إيماناً فوق إيمانه، ولم يردع فاسقاً عن غيه، ولم يدخل أحداً من ذوى الأديان الأخرى إلى حظيرة الإسلام، فهل نفدت كل وجوه الدعايات للإسلام، ولم يبق إلا تمثيل أحداث العصر النبوى بأعلام من صحابة رسول الله (ﷺ)؟ وهل يُعقل أن يقوم ممثل اليوم بتمثيل دور «بلال» حين عُذب فى ذات الله، ثم يجده المشاهد فى رواية أخرى يمثل دور ماجن خليع؟ وهل يُعقل أن تضع ممثلة لبعض الصحابيات الماكياج فى وجهها، ثم تزعم أنها تمثل صحابية شهيدة ذهبت روحها فداء لدينها الحبيب؟ وماذا نصنع إذا وجدنا هذه الشهيدة فى فيلم آخر تأتى بما ينكره الإسلام فى بعض المشاهد المخلة بالآداب؟ أليست هذه إساءة واضحة للصحابيات؟

وهكذا بحجة قوية وبأسلوب سهل بسيط واضح من «الشيخ أبو زهرة» عارض رأى المؤيدين لموضوع الندوة، وكان لكلمة «أبو زهرة» أثرها فى عقول وقلوب المشاركين فخرجوا غير مؤيدين ورافضين للهدف الذى من أجله أُقيمت الندوة.

شتان بين حرية وحرية!:

وفى ندوة أخرى عن حرية المرأة، فوجئ المجتمعون بحضور «فضيلة الإمام محمد أبو زهرة» وقد طلب الكلمة ليقول مُعقباً على من يمنع التعدّد فى الزوجات ويرى تقييد الطلاق.

بصوت جهورى، صاح فى المجتمعين: يا قوم، أنتم تريدون حرية للمرأة المسلمة مثل حرية المرأة الأوربية، ونحن نرى قوانين التشريع فى ألمانيا وإيطاليا تتجه وجهة إسلامية،

فتجيز الطلاق لدوافعه المعقولة، وتبيح التعدد لضرورته الملزمة، فهل فقدت المرأة الإيطالية أو الزوجة الألمانية حريتها، حين اتجه قانون البلاد إلى ما يتجه إليه الإسلام؟

إن المـــرأة فى منزلها ذات حرية، ولكن الذين يطالبون باحتذاء الغرب، لا يرون الحرية إلا فى تمزق الأسرة، وتأكيد أسباب الفرقة والانفصام.

واســتطاع الشيخ كعادته أن يستحوذ على اهتمام الحاضرين ويحوذ على تأييدهم لما يقـــول، لسلامة منطقه وقوة حجته: فقد كان «الشيخ محمد أبو زهرة» رجل شُجاع، جهر بما يرى، وبما يعتقد أمام الناس وأمام السلطان.

كانـــت له آراء فى قضايا الشورى، والربا، والحكم بالطاعة وغيرها وغيرها، وفى حدود ما يعتقد أنه الصواب، قال رأيه دون مواربة. وكانت له أفكار حول إصلاح الأزهر وقوانين الأسرة والأحوال الشخصية.

وكانـــت لـــه مواقف مع سعد زغلول، ومصطفى النحاس، ومحمد نجيب، ثم مواقف أخـــرى مع جمال عبد الناصر والميثاق والاشتراكية والشيوعية، وغير هياب ولا وجل أعلن هذه المواقف.

الـــرأى الحـــق:

ولأنـــه كـــان شجاعاً، فقد خلص الحاكم النصيحة لأن صاحب الرأى المخالف يأتى للحاكم بجديد، والموافق يأتيه بما عنده ويرجع إليه صداه، ولكن الحاكم لم يكن يريد سوى رجـــع الصدى، فأصدر قراره بمنعه من الكتابة والفتيا، وصدرت قرارات مختلفة بحرمانه من الـــتدريس فى الجامعة، وإلقاء الأحاديث العامة، وأوصدت أمامه أبواب التليفزيون والإذاعة والصحف، بل وصل بهم الأمر بأن قيدوا حريته فى بيته.

فقـــد وقـــع خلاف حاد بين أبو زهرة وبين جمال عبد الناصر فى أمور عدة منها: ما ذهـــب إليه الميثاق فى شأن الاشتراكية العلمية، التى رأى فيها الشيخ المبادئ الشيوعية، كما اخـــتلف معـــه حول إعادة تنظيم الأزهر والمعاهد التابعة له. وحول تحديد النسل. وفى كل هذه الخلافات ظل معتزاً بكرامته إلى أبعد الحدود متمسكاً برأيه الذى يعتقد أنه الحق.

كان يكره النفاق والتملق، حدث أن شارك فى مناقشة دكتوراه فى جامعة الأزهر للمرحوم الدكـــتور حســـن صبرى الخولى عن المسألة الفلسطينية، وبصراحة الشيخ المعهودة فيه قال: إن الرسالة عبارة عن بعض التقارير الخاصة برئاسة الجمهورية، إن الطالب لم يكلف نفسه حتى بجهد ترتيـــب الصفحات، أو حتى إصلاح الأخطاء اللغوية الفادحة، وهمس أحدهم فى أُذن الشيخ بأن الطالـــب هـــو الممـــثل الشخصى لرئيس الجمهورية، فصاح أبو زهرة: «متحدث رسمى.. ممثل شخصى، تلـــك مسميات فى مكتب رئيس الجمهورية لا دخل لنا بها».

بـــين الميلاد والرحيل:

هذا العالم الشجاع الجرئ فى الحق وُلد فى مدينة المحلة الكبرى فى ٢٩ مارس ١٨٩٨م و ١٣١٦هـ، دخـــل الكُتاب والمدرسة الأولية، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ العلوم العامة، والتحق بالجامع الأحمدى فى طنطا سنة ١٩١٣م. فاتجه للعمل بالمحاماة، وحصل عام ١٩٢٧م عـــلى دبلوم دار العلوم، وعُين مدرساً للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم. وفى ســـنة ١٩٣٣م اشـــتغل بالـــتدريس فى كلـــية أصول الدين، وجمع بين التدريس فيها والـــتدريس فى كلـــية الحقـــوق من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٤٢. عندما تفرغ للتدريس بالحقوق، وأصبح رئيساً لقسم الشريعة بها حتى أُحيل إلى المعاش سنة ١٩٥٨م. وشارك فى إنشـــاء معهـــد الدراسات الإسلامية، وقام بتدريس الشريعة الإسلامية فى كلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر عامى١٩٦٣- ١٩٦٤م.

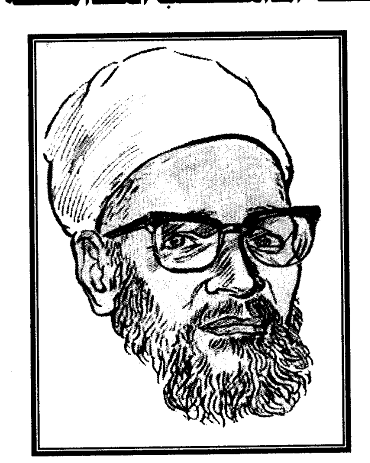
وقـــد ظـــل متمســـكاً بكـــل آرائه الدينية والاجتماعية والسياسية إلى أن رحل فى ١١ إبريل سنة ١٩٧٤*.

*د. محمد رجب البيومى، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، الجزء الثالث، ١٩٨٠.

الإمام عبد الحليم محمود

(١٩١٠-١٩٧٨م)

محاربة المذاهب الهدامة



«لا يفـــارقك– وأنت في مجلس الإمام عبد الحليم محمود– إحساسك أنك مع إنسان يعرف ربــه، وأنه بهذه المعرفة الحقيقية قد ارتفع إلي مستوي وضيئ، فأنت معه في مكان واحد، ولكن شـــعورك يدعوك إلي أن تري أنه في السماء وأنك في الأرض، والإمام–رضي الله عنه– متواضع نبـــيل، لا يـــأتي بما يوحي بأنه من طراز نادر، ولكن هيبته تملأ مشاعرك، وتواضعه يزيده لألاء، ويزيدك إجلالا للعارفين بالله، فتحاول أن تسمع منه ليعطيك، مفضلا مأثرة السكوت الناطق أمام وجه وضيئ الملامح، طاهر القسمات، تنطق أساريره المؤمنه بمعان لا تعرفها الأرض، لأن بوارقها الفاتنه تلوح في الأفق الأعلي كما تلوح أشعه الشمس، وضياء القمر».

بهذه الكلمات وصف أحد مريديه مجالس «الإمام الراحل عبدالحليم محمود» .

والـــده العالم الجليل الحسيب النسيب الشيخ محمود علي أحمد من نسب الحسين بن علي– رضـــي الله عـــنه– فهو من تلك العتره النقيه الطاهره له من خصائصها ما تمتاز به تلك الدوحه المصطفاه من الطهر والشرف وكمال النبل.

النجـــم اللامـــع:

لقـــد كان «الشيخ محمود» النجم اللامع للأسره مشهودا له بالرأي السديد وحسن المشوره وصـــدق النصيحه، وكان ذا همه عاليه يعطف علي الفقراء والمحتاجين وله أريحيه عاليه، ورجوله ذات شهامه وحزم: إذا عاهد وفي وإذا قال صدق وإذا استشير أشار بخير رأي، وإذا استجير أجار بكل صدق.

فى هـــذه الأســـرة وُلد إمامنا الأكبر فى مايو سنة ١٩١٠م. ولم يكن في الذهن من مستقبل مرموق لواحد من آل البيت الكريم الشريف إلا أن يذهب إلي الأزهر فأدخلوه كتاب القريهحتي أتم حفـــظ القرآن الكريم، وكان يومها يوم الفرحة العارمه والبهجة والسرور فقد ذُبحت الذبائح وأكل الشارد والوارد وأُقيمت حفله الذكر شكرا لله تعالي.

أما الشيخ الذي تعهد مولانا بحفظ القران الكريم، فقد ظفر بما لم يكن في حسبانه، وقد أتم الإمـــام الأكبر حفظ القرآن الكريم في سن صغيره لم يستطيع بعدها الالتحاق بالأزهر الشريف، فالتحق بالمدرسة الأولية «الإلزامي الأن» حتي ناسب سنه دخول الأزهر.

وفي عام ١٩٢٣مسافر مع والده إلي القاهرة ليدخل الأزهر، وكانت الدراسة في ذلك الحين داخـــل المسجد نفسه، وداوم الإمام في الأزهر يدرس زهاء عامين افتتح بعدها معهد «الزقازيق» فانـــتقل إليه، ليمضي سنوات الدراسة بنجاح، حتي حصل علي الثانوية الأزهرية، ليلتحق بجامعة الأزهر بالقاهرة بعد ذلك ويحصل علي شهادة العالمية.

الســـفر إلى أوروبـــا:

بعـــد أو حصل الشيخ «عبدالحليم» على شهادة العالمية، كان والده في نشو الفرحة بنجاح ولده الأكبر، فهو أصغر الحاصلين علي العالمية من الأزهر ووسط هذه النشوة فوجئ الوالد برغبة

ولده فى السفر إلى فرنسا. وعلى عادة الآباء حاول أن يقنعه بالعدول عن رأيه، ولكن التصميم قد أخـــذ حده، فلم يأل الوالد جهداً عن تحقيق رغبة ولده الأكبر ورافقه إلى الإسكندرية مودعاً إياه إلى فرنســـا وقد خرج «الشيخ عبدالحليم» من مصر وهو محصن عفيف، عالم معتز بأزهره فاهم لكـــل مخططات الاستعمار، مدرك لأبعاد المعركة ضد التيار الإسلامى في مصر، مدركاً لنواحى الضعف في نفوس بعض الناس.

التحق الشيخ بجامعة «السوربون» وتعرف فيها بأساتذة الاستشراق «ماسينيون» و «موسيه» وهناك حصل على الدكتوراة في يونية ١٩٤٠م بمرتبة الشرف الأولى عن الحارس المحاسبى وبعدها عاد إلى الأزهر.

الـــزواج المبـــكر:

وقد تزوج «عبدالحليم محمود» وهو في السنة الأولى الابتدائى بالأزهر، ومع هذا فقد تخطى كـــثيراً من الزملاء ودخل في مسابقتين نجح في «مدرسة المعلمين» و «تجهزية دار العلوم» وحصل على العالمية دون تعثر أو صعوبة، يقول الشيخ عن زواجه: «في منتصف العام زارنى والدى رحمه الله في المعهـــد المســـجد ولعله جاء إلى المعهد يقف على مدى انتظامى في الدراسة، ولعله أخذ يراقبنى عن بعد، ثم التقى بى وشرع يحدثنى عن الزواج وعرض عليّ أسماء فتيات واستطلع رأيى.. وكانت سنى آنذاك ثلاث عشرة سنة، وكان رأيى الذى قلته له: «الأمر لك».

وعـــاد والـــدى إلى العزبة ومضت فترة جاءنى بعدها خطاب يقول فيه والدى: «إن الأسرة كلها في شوق إليك فاحضر لتراك ولتطفئ غلة شوقها إليك».

وعـــدت إلى «العزبة» في مساء الأربعاء وتم عقد زواجى في يوم الخميس وعدت إلى القاهرة في يوم الجمعه.

ونجـــح شـــيخنا في الإمتحان من السنة الأولى وعاد ليقضى أجازته الصيفية وكانت فرصة للأسرة لاتمام زواجه بالزفاف.

ثم كانـــت سهرة ظل طيفها مماثلا في الأذهان سنوات طويلة، فقد سهر الناس ليلتهم يذكرون الله.

اللغـــة والأصـــول:

عين الدكتور «عبد الحليم محمود» مدرساً لعلم النفس في كلية اللغة العربية أثر وصوله إلى مصر، واستمر في هذه الكلية عشرة أعوام، ثم نقل إلى كلية أصول الدين أستاذا للفلسفة وكان ذلك في عام ١٩٥١، ثم تولى بعد ذلك مشيخة الأزهر الشريف إثر عام كامل قضاه في وزارة الأوقاف من ١٩٥١ - ١٩٥٢م.

وسار الشيخ في أول مشيخته يدعو الناس إلى الاستغفار والتوبة ويذكرهم بالاستعداد لتحرير أرض الوطـــن، وأخذ شوطاً طويلاً في فروع القوات المسلحة يحاضر هنا وهناك باعثاً الحمية في

الـــنفوس ، وراح كذلـــك يدعو الشعب إلى التخلص من كل ذنب والتوجة إلى الله بقلب سليم والعزم علي تحرير الوطن من كل عدو وغاصب.

وفي وقـــاره الشـــامخ راح يطالـــب برفق المسئولين لإعادة الأزهر إلى مكانته وإعادة مشيخة الأزهر إلى جوهرها الطبيعي.

عبد الحليم والغـــزالي:

اتفـــق عبد «الحليم محمود»، في طريق سلوكه مع أبي حامد الغزالي، إذا بدأ كما بدأ الأخير دارســـا فاحصا، متعطشا متطلعا، ناقبا منقرا، ثم انتهى إلي ما انتهى إليه: صوفيا ذواقا، لقلبه عين بصيره تري ما لا يراه الناظرون، ولعل «الإمام عبد الحليم محمود» قد فطن إلي ذلك، حين أثر أن يشــــرح كـــتاب:المنقذ من الضلال للغزالي وأن يفسر اتجاهاته، وأن يقرره علي طلابه، في كليه أصول الدين، حيث كان يعتقد: أن الغزالي يعبر عن نفسه وينطق عن وجدانه.

لقد كان التصوف أسلوب الإمامين معا، وهو تصوف عاقل فعال، لم يكن هروبا من الحياه، بل كان علاجا لمعضلاتها، لقد كان عبد الحليم لا يفارق الناس إلا عند نومه، ولكنه يزور ويرحل ويجتمع ويناقش، ويدفع إلي الخير، ويأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر. والفرق بينه وبين سواه من النظريين، أنه يصدر عن يقين، وينفعل عن عقيدة، وينصح عن إدراك، وقد فهم رسالة المسلم في الحياه فهم أنه خليفه في الأرض.

ومـــن هـــنا كان التصميم التام أقوي دعائمه الإصلاحية، وكان النجاح المثمر نتيجة هذا التصميم، لأنه تصميم الموقن الجازم، تصميم المتصوف، الذي اعتقد أن عمره في هذه الحياة مرحله محـــدودة، تعـــد ابتداء لمرحله مقبلة غير محدودة، حين يقرأ كتابه عند ربه، فيجد سجله الواعي الدقيق، لا يغادر من كبيره أو صغيره إلا أحصاها! هذا الإيمان الجازم الموقن، هو مفتاح شخصيه «عبد الحليم محمود» وبه حالفه التوفيق وآزره النجاح.

التســـامح الديـــني:

لقـــد درس الدكتور: «عبدالحليم» مأساه التبشير ظاهره ومقنعه، ولمس جهود السابقين من شـــيوخ الأزهر في مجال التسامح الديني، وعرف أن الأستاذ «الإمام محمد مصطفي المراغي» حبذ فكـــره مؤتمـــر الأديان، وأرسل كلمه ضافية تدعو إلي السلام الروحي، وتمنع أن يتشاجر رجال الدين كما يتشاجر سماسرة البورصة في سوق الربا، فكانت النتيجة أن واصل المبشرون اعتداءاتهم الصـــارخة عـــلي الإسلام، بمحاولة تنصير أبنائه في أفريقيا، ودس الشبهات المسمومة في تعاليمه بأيدي قساوسة المستشرقين، تحت ستار البحث العلمي النزيه!

وقـــد تطلع الدكتور «عبد الحليم» إلي عوامل هذه البغضاء الكامنه في أوروبا وأمريكا نحو الإســـلام، فلمس أن الكنيسه تقيم جهازا دقيقا للتبشير بين المسلمين في أفريقيا وآسيا، وأنها تبني المستشـــفيات والمدارس لا للعلاج والثقافة بل لتشويه مكانه الإسلام، وتخالف الوقائع حين تعلن

عــلي لسان مبعوثيها أن الإسلام دين وثني! وهو دين التوحيد الخالص، والمسيحية بإزائه لا تصل إلي أصالته العريقة في التوحيد!

مخاطبة القلوب المؤمــنة:

لقد كان الإمام حاسما حازما حين واجه الحقائق بلسان الصراحة، وحين رد هذه الدعوات المسمومة ردا صريحا لا تعوزه شجاعة الحق، وجهاره الإيمان، فكمم أفواها تعودت القول المعسول والفعل المرذول، لقد اهتدي الإمام بعد عناء طويل في رحلته الفكريه إلي أن القلب موضوع إقناع المؤمن، فالمؤمن لا يتطلب تغلغل العقل كي يقتنع، ولكنه يلتمس ماء الهدايه كي يرتوي!

المؤمــن: مؤمن، قام يقينه علي صخره ثابتة لا تعصف بها الأعاصير، ولا تنال منها الزلازل، وقد آمن بكتاب ربه وسنه نبيه، وسيره السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وفي ذلك كله ما يقدم الغذاء الهنئ والطعام المرئ.

يصــعد الإمــام المنبر في مناسبة عامه، فلا يجعل هذه المناسبة تأخذ عليه أقطار تفكيره، لأن المناسبات تتكرر كل عام، وقد ألم المجتمعون بما قيل في موضوعها سنه وراء سنه: فالهجرة والميلاد النــبوي، والإســراء، وصوم رمضان وذكري بدر وفتح مكه، ورحله الحج والعمره، مما تقام له الحفلات العامة وقد شبع المجتمعون حديثا عنها، فإذا وقف الرجل في أمثال هذه المجتمعات فإنه يمر بالمناســبة مرورا سريعا، ويختار آيه من كتاب الله، أو حديثا للرسول، ليجعل منهما مجالاً للشرح والتوجيه.

فقــد وقــر في ذهنه أن القرآن كتاب المسلم الأول، وأن الحديث مورده الثاني، ولن يسأم مؤمــن ترداد ما بهما من الكنوز، فجعل يتجه إلي الشرح الهادئ المبسط وقد يعلو المنبر مرتين في اليوم الواحد، ثم يجد المدد المتجدد المستفيض لأنه يرشف من معين الكتاب والسنه.

الاهتمام بالمعــاهد الأزهرية:

* أدرك الشــيخ عقبي ما ينتظر الأزهر من قضاء علي صميم رسالته الدينية، فجعل يجوب القــري والمراكز والمدن ليدعُ الناس إلي التبرع الحتمي كي ينشئوا المعاهد الدينية في كل مكان.

كــان الرجل من قوة العزيمة ومضاء الهمه، بحيث هانت عليه أعباء الطريق من أقصي الصعيد إلي أقصي الدلتا، فلم يترك محافظه ما دون أن يتصل بذوي أمرها، ودون أن يدعو الناس إلي استماع موعظته بالمسجد الجامع ليعلن رغبته في إنشاء معهد ديني في الإقليم.

ثم امــتد بنظره إلي مكاتب تحفيظ القرآن لتكون المدد الأولي للمعاهد، حيث تسلح الطالب الأزهــري بحفــظ قدر كبير من كتاب الله، وبذل ما بذل حتي ضم أكثر هذه المكاتب إلي إدارة الأزهر.

وليت المتسرعين تركوه في جهاده الشاق، كي يجني جميع الثمار المرتجاة، ولكن فريقا يعارض لوجــه المعارضة حينا، أو ينسي الهدف الأساسي من ذيوع المعاهد علي هذا النطاق الشامل حيناً

أخـــر، أو يحـــاول إحباط مساعي الإمام لحاجة خاصة في نفسه، هذا الفريق يدَّعي الحرص علي الكـــيف، ويلـــوم من يسعي إلي انتشار المعاهد بدعوي أنها لا تجد ما تتطلب من أساتذة ومقاعد وأبنـــية وغذاء، حتي رجفت الراجفة في صحيفة يومية دأبت علي استنكار ما يقوم به هذا المجاهد المكـــافح من نضال ولكن الرجل لا يسكت عن لجاج فشرع يرد، وأخذ يقنع بالحجة الداحضة، ليدمغ الشبهة الواهية.

الدعـــوة إلى تطبيق الشريعة:

أما المطالبة بالشريعة الإسلامية تطبيقا والتزاما، فما نعرف أن الإمام قد كل عنها ذات يوم، فقد كتب عشرات المقالات ليُعلن أن مصر لم تعرف الأحكام المدنية إلا بعد الاحتلال الإنجليزي ســـنة ١٩٨٢م، وأن الشـــريعة بعـــد هذا التاريخ بقيت في مسائل الأسرة وما يُعرف بالأحوال الشخصـــية، كمـــا بقيت في أكثر مواد القانون المدني، وعلينا أن نطالب بتعميمها في كل المواد، جنائية ومدنية ودستورية ودولية!

وقد سارع رحمه الله فألف لجنة علمية لصياغة قوانين الشريعة، في مواد محددة لتسهل مهمة التطبـــيق، وراجع ما كتب من المواد، ونشره في الصحف، ثم اتصل بأعضاء مجلس الشعب فردا وراء فـــرداً ليجمع تكتلاً إسلامياً ينادي بتطبيق الشريعة، وأخذ يتعجل التطبيق ملحا، ولم ييأس ذات مـــرة، وكـــان يطالع آراء المسئولين في وجوب تطبيق الشريعة فيتساءل متعجبا: إذا كانوا صادقين في إصدار هذه الآراء، فما الذي يقعد بهم إلي الآن؟

ومن المواقف المشرفة للإمام الراحل «عبد الحليم محمود» رفضه القاطع لتعديل قانون الأحوال الشخصـــية، الذي حاولت الحكومة أيام الرئيس السادات بكل جهدها تمريره في مجلس الشعب، والذي عرف وقتها بقانون «جيهان السادات» لأنه رأي أنه مخالف للشريعة الإسلامية.

ويُحسب له أيضا اهتمامه بتدريس الإعلام بجامعة الأزهر، حتى يتم إعداد الإعلامي المسلم علي هدى من تعاليم الكتاب والسنة.

وكـــثيرة هـــي مواقـــف الإمام المتصوف الهادئ الوقور والثائر في دعة دفاعاً عن الإسلام وضرورة أن يكون هو أساس وجوهر التشريع.

وجـــاءه الـــيقين ولقى ربه في صباح الثلاثاء ١٧ أكتوبر ١٩٧٨م وهو يحشد جاهدا الآراء خلفـــه، ليظفر بموافقة مجلس الشعب على مشروعه لتطبيق الشريعة الإسلامية في كافة القوانين.. فليت الذين أعطوه الكلمة الواحدة يحترمون ذكراه فيعملون علي تنفيذ ما تعاهدوا عليه، والله من ورائهم محيط*.

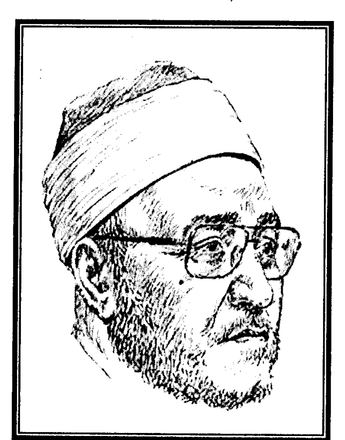
---

*د. محمد رجب البيومى، مرجع سابق.

الشـــيخ محمــد الغـــزالى

(١٨١٧- ١٩٩٦)

الإمـــام المجـــدد



كـــان «الشـــيخ محمـــد الغزالي» -رحمه الله- مدينة حافلة ذات ميادين شتي، متسعة الأرجاء، فهو مؤلف بارع ومجاهد صادق، وخطيب مؤثر، وعالم بأجواء المجتمع الإسلامي في شتي ربوعه.

تربي «الغزالي» في بيئة مؤمنة بإحدى قري مديرية البحيرة، وحفظ القرآن وقرأ الحديث في منزل والده قبل أن يلتحق بالأزهر، ومضت حياته العلمية في هذا المعهد الخالد حتي نال درجـــة التخصص في الوعظ والإرشاد وعُين واعظا فور تخرجه، ولعل من توفيق الله بعد أن يلتحق بكلية العقيدة والفلسفة لأن ميوله الأدبية وتمتعه بالبيان العربي المشرق واطلاعه علي أمهات الكتب في عهد الدراسة الثانوية مما كان يرشحه لكلية اللغة العربية، ولكن الله يعلم أنــه سيكون مناضلا باسلا في ميدان الدعوة الإسلامية وسيصير زعيما إسلاميا تلتف حوله القلـــوب، فهيأ له أن يلتحق بكلية أصول الدين وأن يخرج منها مجاهدا بقلمه ولسانه معا، بلسانه في الندوات وفوق المنابر وبقلمه في حقل التأليف العلمي وهو حقل مديد.

روعـــة البيـــان:

لقد كان «الغزالي» من أكبر دعاة الإسلام في عصره، إذ يملك روعة البيان وقوة الإيمان وصـــلابة العقـــيدة، وأسلوبا حارا يتوهج حمية، ويلتهب غيرة، أسلوبا يملك المشاعر حين يكـــون الغـــزالي خطيبا ويأسر عواطفه حين يكون الغزالي كاتبا، إذ تكفلت كتبه الكثيرة بشـــرح الفكرة الإسلامية الصحيحة في عصر الإلحاد. واقترن اسم الغزالي بالفكر والمنهجية في الدعـــوة الإسلامية، فقد قاد العديد من المعارك الفكرية أوضح من خلالها رؤية الإسلام ووســـطيته في مواجهـــة الفلسفات المعاصرة، كما أظهر سماحة الإسلام في مواجهة التشدد والغلـــو والـــتطرف باســـم الدين من خلال مؤلفاته العديدة وكتاباته ولقاءاته مع وسائل الإعلام.

الحـــوار الحـــضارى:

والســـاحة الكـــبري التي صال فيها الغزالي وجال وحاور وجادل وكر وفر وفاز، هي ســـاحة الـــتماس بـــين الإسلام والغرب، أو موقف الإسلام من الحضارة الحديثة، والغزالي حضـــاري التفكير، واقعي الرؤي، لا يلقي بالتهم في وجه منجزات الحضارة الغربية الحديثة -شـــأن البعض من علماء المسلمين- ولكنه يفتش عن مواطن الداء في طريقة فهم المسلمين لدينهم وكيفية تعاملهم مع منجزات العلم الحديث.

هذه الرؤية الناقدة دفعت بالشيخ الغزالي -رحمة الله- إلي رصد ايجابيات حركة التلاقي بين الإسلام والغرب، وهي حركة يجب أن يفيد المسلمون من تفاعلها وليس من تصادمها.

والغزالي الداعية المستنير في كتابه «الغزو الثقافي يمتد في فراغنا» يؤكد أن صلة الحضارة الحديـــثة بالعـــرب أيام صدارتهم لا يمكن إنكارها، فإن أحبار اليهود وآباء الكنيسة جميعا حرصـــوا علي الالتحاق بجامعة الأندلس، والارتواء من ثقافتها الخصيبة، وقد ترجموا القرآن الي العبرية واللاتينية، وكان لترجمات معاني القرآن الكريم في مناهجهم أثر كبير، ويكشف الغـــزالي النقاب عن عدة ملامح تجسد إيجابيات التلاقي المتفاعل بين الإسلام والغرب فنراه يشـــيد بالمنجزات العلمية الباهرة للحضارة الغربية، وينعي علي المسلمين تخلفهم المزري في هذا المضمار!!

ومـــن ملامح التفاعل والتلاقى بين الحضارتين: حضارة الإسلام وحضارة الغرب. ما يســـوقه «الشيخ الغزالي» علي لسان نابليون، ورأيه في نابليون نفسه فهو في نظره رجل من عشـــاق المجد وطلاب العلا، ومما يفسر ذلك أن نابليون في كتاب «نظرات سياسية» يؤكد حـــبه للإسلام وتقديره لمده الحضاري وتعاليمه الرشيدة، ويري أن نابليون كان مقتنعا بأن الإسلام هو أصلح قاعدة لبناء أعظم دولة في التاريخ، وأن هذا الاقتناع صاحبه لدي إعداد الحملة الفرنسية علي مصر.

تفـــاعل لا تصـــادم:

وأما الملمح الثاني من مظاهر التفاعل وليس التصادم بين الإسلام والحضارة الحديثة فهو يتمـــثل فى رأي الفيلســـوف الفرنسي فولتير في الإسلام وموقفه من الذين يهاجمون القرآن الكـــريم. ويكـــيدون لاتـــباعه يقول فولتير: «كيف تحقرون كتابا يدعو الي الفضيلة والزكاة والـــرحمة؟، كـــتابا يجعل الرضوان الأعلي جزاء لمن يعملون الصالحات، وتتوفر فيهم الكمالات الذاتية، إن الذين يهاجمون القرآن لم يقرؤوه قطعا!».

وبعد هذه الشهادة القوية لفولتير عن القرآن الكريم.. والدفاع عنه والدعوة الي قراءته بـــتدبر يؤكد «الغزالي» هذه الرؤية الحضارية الإيجابية للعلاقة بين الإسلام والغرب، فيقدم للأجيال المعاصرة شهادة المفكر المسيحي أبادي في كتابه المطبوع سنة ١٧١٩هـ حيث يقول أبادي منوها بني الإسلام ومدافعا عنه، ومشيدا بالقرآن الكريم.

«لا يســـعنا إلا أن يكون لنا رأي رفيع في مكانة محمد (ﷺ) وعده نبيا عظيما، فقد علم البشر أن يفردوا ربهم بالسلطان المطلق، ولم يمنح هذا السلطان أحدا من الخلق، ودفع الأجيال المتعاقبة الي عبادة الله ذي الجلال والإكرام، فالله فوق عرشه رفيع الدرجات والناس في إطار الخلـــيقة الفقيرة إليه وحده.. هل هناك شرع أكثر صحة من هذا الشرع؟. إن القرآن كتاب نبيل ومن المؤكد أن محمدا (ﷺ) شتت به ضلالات كثيرة».

رأب الصـــدع:

إن هذه الرؤي الإيجابية عن الإسلام والقرآن في الفكر الغربي يقدمها «الشيخ الغزالي» الي جمـــاهير الأمـــة الإسلامية والعربية رغبة في رأب الصدع وإزالة الفجوات العميقة التي حفرها الكثيرون في الطريق الواصل ما بين الحضارتين.

وحـــين يقـــرأ المتشككون من أبناء جلدتنا في طبيعة الإسلام والقيمة الإنسانية للقرآن الكـــريم حين يقرأ هؤلاء المستغربون هذه الشهادات لمفكري الغرب وفلاسفته عن الإسلام ســـيراجعون أنفســـهم، ويعيدون حساباتهم مع منهجهم التصادمي أو الرافض لقدرة الفكر الإسلامي علي مواكبة ما يتطلبه العصر من تقنية وإنجازات حضارية.

إن «الغـــزالي» يستثير حمية المثقفين المسلمين المفتونين بالثقافات الأجنبية ويأسي كثيرا، لأن هـــؤلاء لم يســـتثمروا طاقاتهم الفكرية ومنافذهم الثقافية في إلقاء الأضواء علي طبيعة الإســـلام، وقيمه العليا وأهدافه الإنسانية النبيلة ويتساءل: ماذا أفدتم من هذه المقدرة؟ وماذا أفادت أمتكم منكم؟. هل استصحبتم دينكم وتاريخكم وأنتم تطالعون الثقافات الأجنبية؟

إنكـــم لم تترجموا العلوم، وكنا أفقر إليها وأحوج من الروايات الغرامية والجنائية التي زحمتم بها لغتـــنا، وشغلتم بها أولادنا، ونقلتم أكاذيب المستشرقين، وفي الحضارة الغربية عباقرة كثيرون عرفوا للإسلام فضله وقد روا له ما أسدي للعلم وللعالم.

أخـــطاء تاريخيـــة:

إن هـــذه الرؤية الإيجابية لحركة التلاقي بين الإسلام والغرب لا تعني أن «الغزالي» غافل عن الوجه الاخر المضاد المتجدد للصراع والتصادم وهو وجه سلبي يشارك في تشكيل ملامحه المشوهة بعـــض اتـــباع الإسلام قبل أعدائه، أو الذين يجهلون معالمه وتضاريسه ويسيئون تقديم الخطاب الإسلامي للناس، ومأساة الإسلام كما يري «الشيخ الغزالي» تكمن في ان أناسا يتقدمون بتقاليد الشعوب علي إنها تعاليم الوحي بل إنهم يتقدمون بالأخطاء التاريخية علي أنها توجيهات سماوية.

وستبقي الحضارة الحديثة حاكمة ما بقي هؤلاء يدعون ويكابرون، ولن تصح مسيرة العالم إلا بعودة الإسلام ذاته علي أيدي أولي الألباب ومن لهم قلوب، وسنظل نردد مع الداعية الفارس المؤمـــن الشـــيخ الغزالي والأسي يتملكنا والأمل يدفعنا إلي البحث عن الطريق الصحيح، والمنهج القـــويم للـــتفاعل مع المد الحضاري المعاصر، حتي لا تظل آفاق المستقبل أمامنا -كما هي الان- غائمة الرؤي، مطفأة الشموس حالكة الأقمار.

إعـــادة النـــظر:

يقول «الغزالي»: «**لابد من إعادة النظر في ثقافاتنا كلها، أعني ثقافتنا الذاتية لننبذ منها ما ليس له رصيد من هداية الله وإعادة النظر في العلوم الكونية والإنسانية التي تموج بها الأرض لنقتبس منها ما نحتاج إليه علي عجل**».

المولـــد والنشـــأة:

وحـــتى نعرف كيف وصل «الشيخ الغزالى» إلى هذه الدرجة الرفيعة من الفكر والفهم الصـــحيح للإســـلام ودعوته، يجدر بنا أن نتعرف على مراحل حياته والبيئة التى إحاطت بنشأته وتعليمه.

ففـــى قرية «نكلا العنب» التابعة لمحافظة البحيرة بمصر ولد «الشيخ محمد الغزالى» في ٢٢ مـــن سبتمبر ١٩١٧م ونشأة في أسرة كريمة، وتربى في بيئة مؤمنة؛ فحفظ القرآن، وقرأ الحديـــث في مترل والده، ثم التحق بمعهد الإسكندرية الدينى الابتدائى، وظل به حتى حصل عـــلى الـــثانوية الأزهرية، ثم انتقل إلى القاهرة سنة (١٣٥٩هـ - ١٩٣٧م) والتحق بكلية أصـــول الديـــن، وفي أثـــناء دراسته بالقاهرة اتصل بالإمام حسن البنا وتوثقت علاقته به، وأصـــبح مـــن المقـــربين إلـــيه، حتى إن الإمام البنا طلب منه أن يكتب في مجلة «الإخوان المســـلمين» لما عهد فيه من الثقافة والبيان؛ فظهر أول مقال له وهو طالب في السنة الثالثة بالكلـــية، وكـــان البـــنا لا يفتأ يشجعه على مواصلة الكتابة حتى تخرج سنة (١٣٦٠هـ - ١٩٤١م) ثم تخصص في الدعوة، وحصل على درجة «العالمية» سنة (١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م) وبدأ رحلته في الدعوة في مساجد القاهرة.

فى ميدان الدعوة والفكر:

كان الميدان الذى خُلق له «الشيخ الغزالى» هو مجال الدعوة إلى الله على بصيرة ووعى، مســـتعينا بقـــلمه ولســـانه، فكان له باب ثابت في مجلة «الإخوان المسلمين» تحت عنوان «خواطـــر حـــية» جلى قلمه فيها عن قضايا الإسلام ومشكلات المسلمين المعاصرة، وقاد حمـــلات صـــادقة ضد الظلم الاجتماعي وتفاوت الطبقات وتمتع أقلية بالخيرات في الوقت الذى يعانى السواد الأعظم من شظف العيش.

ثم لم يلبـــث أن ظهـــر أو مؤلفات «الشيخ الغزالى» بعنوان «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» سنة (١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م) أبان فيه في أن للإسلام من الفكر الاقتصادى مـــا يدفع إلى الثروة والنماء والتكافل الاجتماعى بين الطبقات، ثم أتبع هذا الكتاب بآخـــر تحـــت عنوان «الإسلام والمناهج الاشتراكية»، مكملا الحلقة الأولى في ميدان الإصـــلاح الاقتصـــادى، شارحا ما يراد بالتأمين الاجتماعي، وتوزيع الملكيات على الســـنن الصحيحة، وموضع الفرد من الأمة ومسئولية الأمة عن الفرد، ثم لم يلبث أن أصدر كتابه الثالث «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين».

فـــي المعـــتقل:

ظل الشيخ يعمل في مجال الدعوة حتى ذاعت شهرته بين الناس لصدقه وإخلاصه وفصـــاحته وبلاغته، حتى هبّت على جماعة «الإخوان المسلمين» رياح سوداء؛ فصدر قـــرار بحـــلها في (صفر ١٣٦٨هـ - ديسمبر ١٩٤٨م) ومصادرة أملاكها والتنكيل بأعضـــائها، واعـــتقال عدد كبير من المنضمين إليها، وانتهى الحال باغتيال مؤسس الجماعـــة تحـــت بصر الحكومة وبتأييدها، وكان «الشيخ الغزالى» واحدا ممن امتدت إلـــيهم يد البطش والطغيان، فأودع معتقل الطور مع كثير من إخوانه، وظل به حتى خـــرج مـــن المعتقل في سنة (١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م) ليواصل عمله، وهو أكثر حماسا للدعوة، وأشد صلابة في الدفاع عن الإسلام وبيان حقائقه.

ولم ينقطع قلمه عن كتابة المقالات وتأليف الكتب، وإلقاء الخطب والمحاضرات، وكان مـــن ثمرة هذا الجهد الدؤوب أن صدرت له جملة من الكتب كان لها شأنها فى عالم الفكر مـــثل: «الإســـلام والاســـتبداد السياسى» الذى انتصر فيه للحرية وترسيخ مبدأ الشورى، وعدهـــا فريضة لا فضيلة، وملزمة لا مُعلمة، وهاجم الاستبداد والظلم وتقييد الحريات، ثم ظهرت له تأملات فى: الدين والحياة، وعقيدة المسلم، وخلق المسلم.

مـــن هـــنا نعلم:

وفي هـــذه الفترة ظهر كتاب للأستاذ «خالد محمد خالد» بعنوان «من هنا نبدأ»، زعم فيه أن الإسلام دين لا دولة، ولا صلة له بأصول الحكم وأمور الدنيا، وقد أحدث الكتاب ضجة هائلة وضخبا واسعا على صفحات الجرائد، وهلل له الكارهون للإسلام، وأثنوا على مؤلفـــه، وقد تصدى «الغزالى» لصديقه «خالد محمد خالد»، فند دعاوى كتابه في سلسلة مقالات، جُمعت بعد ذلك في كتاب تحت عنوان «من هنا نعلم».

ويقتضـــى الإنصاف أن نذكر أن الأستاذ «خالد محمد خالد» رجع عن كل سطر قاله في كتابه «من هنا نبدأ»، وألف كتابا آخر تحت عنوان «دين ودولة»، مضى فيه مع كتاب الغزالى في كل حقائقه.

ثم ظهر له كتاب «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام»، وقد ألفه على مضض؛ لأنـــه لا يـــريد إثارة التوتر بين عنصرى الأمة، ولكن ألجأته الظروف إلى تسطيره رداً على كـــتاب أصدره أحد الأقباط افترى فيه على الإسلام. وقد التزم الغزالى الحجة والبرهان في الرد، ولم يلجأ إلى الشدة والتعنيف، وأبان عن سماحة الإسلام في معاملة أهل الكتاب.

الغـــزالي وعبد الناصـــر:

بعـــد قيام ثورة ١٩٥٢م، ونجاح قادمًا في إحكام قبضتهم على البلاد، تنكروا لجماعة الإخـــوان المسلمين التي كانت سبباً في نجاح الثورة واستقرارها، ودأبوا على إحداث الفتنة بـــين صـــفوفها، ولولا يقظة المرشد الصلب «حسن الهضيبي» وتصديه للفتنة لحدث ما لا تُحمـــد عقـــباه، وكان من أثر هذه الفتنة أن شب نزاع بن الغزالي والإمام المرشد، انتهى بفصل الغزالي من الجماعة وخروجه من حظيرتها.

وقـــد تناول «الغزالي» أحداث هذا الخلاف، وراجع نفسه فيه، وأعاد تقدير الموقف، وكتـــب في الطبعة الجديدة من كتابه «من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث»، وهو الكـــتاب الـــذى دون فيه الغزالي أحداث هذا الخلاف فقال: «لقد اختلفت مع المغفور له الأســـتاذ حســـن الهضـــيبي، وكنت حادّ المشاعر في هذا الخلاف؛ لأني اعتقدت أن بعض خصـــومي أضغنوا صدر الأستاذ «حسن الهضيبي» لينالوا مني، فلما التقيت به –عليه رحمة الله– بعـــد أن خرج من المعتقل تذاكرنا ما وقع، وتصافينا، وتناسينا ما كان. واتفقت معه على خدمة الدعوة الإسلامية، وعفا الله عما سلف».

وهـــذا مما يحسب «للغزالي»، فقد كان كثيرا المراجعة لما يقول ويكتب، ولا يستنكف أن يؤوب إلى الصواب مادام قد تبين له، ويُعلن عن ذلك في شجاعة نادرة لا نعرفها إلا في الأفذاذ من الرجال.

وظـــل الشـــيخ في هـــذا العهد يجأر بالحق ويصدع به، وهو مغلول اليد مقيد الخطو، ويكشف المكر السيئ الذي يدبره أعداء الإسلام، من خلال ما كتب في هذه الفترة الحالكة الســـواد مثل: «كفاح دين»، «معركة المصحف في العالم الإسلامي»، و«حصاد الغرور»، و«الإسلام والزحف الأحمر».

ويُحسب «للغزالي» جرأته البالغة وشجاعته النادرة في بيان حقائق الإسلام، في الوقت الذى آثر فيه الغالبية من الناس اصمت والسكون؛ لأن فيه نجاة حياتهم من هول ما يسمعون في المعـــتقلات. ولم يكـــتف بعضهم بالصمت المهين بل تطوع بتزيين الباطل لأهل الحكم وتحـــريف الكلم عن مواضعه، ولن ينسى أحد موقفه في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية الذى عقـــد ســـنة (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م) حيث وقف وحده أمام حشود ضخمة من الحاضرين يدعو إلى استقلال الأمة في تشريعاتها، والتزامها في التزيي بما يتفق مع الشرع، وكان لكلام «الغزالي» وقعه الطيب في نفوس المؤمنين الصامتين في الوقت الذى هاجت فيه أقلام الفتنة، وسلطت سمومها على الشيخ الأعزل فارس الميدان، وخرجت جريدة «الأهرام» عن وقارها وســـخرت مـــن الشيخ في استهانة بالغة، لكن الأمة التي ظن أنها قد استجابت لما يدبر لها

خرجـــت في مظاهـــرات حاشـــدة من الجامع الأزهر، وتجمعت عند جريدة الأهرام لتثأر لكرامـــتها وعقـــيدتها ولكرامة أحد دعاتها ورموزها، واضطرت جريدة الأهرام إلى تقديم اعتذار.

في عهد الســـادات:

واتســـعت دائرة عمل الشيخ في عهد الرئيس السادات، وبخاصة في الفترات الأولى من عهـــده الـــتي سُمح للعلماء فيها بشيء من الحركة، استغله الغيورون من العلماء؛ فكثفوا نشـــاطهم في الدعـــوة، فاســـتجاب الشباب لدعوتهم، وظهر الوجه الحقيقى لمصر. وكان «الشيخ الغزالى» واحداً من أبرز هؤلاء الدعاة، يقدمه جهده وجهاده ولسانه وقلمه، ورزقه الله قـــبولا وبكرة في العمل؛ فما كاد يخطب الجمعه في جامع «عمرو بن العاص» -وكان مهملا لسنوات- حتى عاد إليه بهاؤه، وامتلأت أروقته بالمصلين.

و لم يـــتخلَّ «الشـــيخ الغـــزالى» عن صراحته في إبداء الرأى ويقظته في كشف المتربصين بالإسلام، وحكمته في قيادة من ألقوا بأزمتهم له، حتى إذا أعلنت الدولة عن نيتها في تغيير قانون الأحوال الشخصية في مصر، وتسرب إلى الرأى العام بعض مواد القـــانون الـــتي تخـــالف الشـــرع الحكيم؛ قال الشيخ فيها كلمته، بما أغضب بعض الحاكمين، وزاد من غضبهم التفاف الشباب، ونقده بعض الأحوال العامة في الدولة، فضُيق عليه وأُبعد عن جامع عمرو بن العاص، وجُمّد نشاطه في الوزارة، فاضطر إلى مغادرة مصر إلى العمل في جامعة «أم القرى» بالمملكة العربية السعودية، وظل هناك ســـبع سنوات لم ينقطع خلالها عن الدعوة إلى الله، في الجامعة أو عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.

فـــي الجـــزائر:

ثم انتقل «الشيخ الغزالى» إلى الجزائر ليعمل رئيسا للمجلس العلمى لجامعة الأمير عـــبد القادر الإسلامية بقسطنطينة، و لم يقتصر أثر جهده على تطوير الجامعة، وزيادة عدد كلياتها، ووضع المناهج العلمية والتقاليد الجامعية، بل امتد ليشمل الجزائر كلها؛ حيث كان له حديث أسبوعي مساء كل يوم اثنين يبثه التلفاز، ويترقبه الجزائريون لما يجدون فيه من معان جديدة وأفكار تعين في فهم الإسلام والحياة. ولاشك أن جهاده هناك أكمل الجهود التي بدأها زعيما الإصلاح في الجزائر: «عبد الحميد بن باديس»، و«محمد البشير الإبراهيمي»، ومدرستهما الفكرية.

وبعـــد الســـنوات السبع التي قضاها في الجزائر عاد إلى مصر ليستكمل نشاطه وجهـــاده في التأليف والمحاضرة حتى لقى الله وهو في الميدان الذى قضى عمره كله، يعمل فيه في (٩ من مارس ١٩٩٦م) ودفن بالبقيع في المدينة المنورة.

الغزالى بين رجال الإصلاح:

يقـــف «الغزالى» بين دعاة الإصلاح كالطود الشامخ، متعدد المواهب والملكات، راض ميدان التأليف؛ فلم يكتف بجانب واحد من جوانب الفكر الإسلامى؛ بل شملت مؤلفاتـــه: الـــتجديد في الفقـــه السياسى ومحاربة الأدواء والعلل، والرد على خصوم الإسلام، والعقيدة والدعوة والأخلاق، والتاريخ والتفسير والحديث، والتصوف وفن الذكر. وقد أحدثت بعض مؤلفاته دويًّا هائلا بين مؤيديه وخصومه في أخريات حياته مثل كتابيه: «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» و«قضايا المرأة المسلمة».

وكان لعمق فكره وفهمه للإسلام أن اتسعت دائرة عمله لتشمل خصوم الإسلام الكـــائدين له، سواء أكانوا من المسلمين أو من غيرهم، وطائفة كبيرة من كتبه تحمل هذا الهمّ، وتسد تلك الثغرة بكشف زيغ هؤلاء، ورد محاولاتهم للكيد للإسلام.

أما الجبهة الأخرى التي شملتها دائرة عمله فشملت بعض المشتغلين بالدعوة الذين شـــغلوا الناس بالفروع عن الأصول وبالجزئيات عن الكليات، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب، وهذه الطائفة من الناس تركزت عليهم أعمال الشيخ وجهوده؛ لكى يفـــيقوا مما هم فيه من غفلة وعدم إدراك، ولم يسلم الشيخ من ألسنتهم، فهاجموه في عنف، ولم يراعوا جهاده وجهده، ولم يحترموا فكره واجتهاده، لكن الشيخ مضى في طريقه دون أن يلتفت إلى صراخهم.

وتضمنت كتبه عناصر الإصلاح التي دعا إليها على بصيرة؛ لتشمل تجديد الإيمان بـــالله وتعمـــيق اليقين بالآخرة، والدعوة إلى العدل الاجتماعى، ومقاومة الاستبداد السياســـى، وتحريـــر المرأة من التقاليد الدخيلة، ومحاربة التدين المغلوط، وتحرير الأمّة وتوحـــيدها، والدعوة إلى التقدم ومقاومة التخلف، وتنقية الثقافة الإسلامية، والعناية باللغة العربية.

واســـتعان في وســـائل إصـــلاحه بالخطبة البصيرة، التي تتميز بالعرض الشافى، والأفكار الواضحة التي يعد لها جيدا، واللغة الجميلة الرشيقة، والإيقاع الهادئ والنطق المطمـــئن؛ فلا حماسة عاتية تهيج المشاعر والنفوس، ولا فضول في الكلام يُنسى بعضه

بعضا، وهو في خطبة معلّم موجه، ومصلح مرشد، ورائد طريق يأخذ بيد صاحبه إلى بَـــر الأمان، وخلاصة القول أنه توافرت للغزالي من ملكات الإصلاح ما تفرق عند غيره؛ فهو: مؤلف بارع، ومجاهد صادق، وخطيب مؤثر، وخبير بأدواء المجتمع بصير بأدويته*.

*أحمد تمام، ((الغزالي فارس الدعوة البليغ)) من موقع ((الإسلام أون لاين)).

أهم المصـــادر والمراجع

أولا: الكتب العربية:

١- أحمد رضوان أبو الخير، ((من مواقف العلماء)) دار المنار، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢- د. إسماعيل إبراهيم عبد الرحمن، ((شخصيات صنعت التاريخ في البطولة والفداء والنهضة الفكرية))، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٣- السـيد يوسـف، ((الإمـام محمد عبده، رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث))، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٤- جرجي زيدان، ((بناة النهضة العربية))، دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ.

٥- جمـال الدين الشيال، ((أبو بكر الطرطرشي))، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، والقاهرة، ٦٨م، سلسلة أعلام العرب.

٦- سعد القاضي، ((جعفر الصادق))، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م.

٧- سعيد عبد الرحمن، ((شيوخ الأزهر))، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٩٧م.

٨- سمير محمد طه، ((أحمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية))، هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.

٩- سنية قراعة، ((تاريخ الأزهر))، مكتب الصحافة الدولي، ١٩٦٨م.

١٠ صبري الأشوح، ((التفكير عند أئمة الفكر الإسلامي))، مكتبة رجب، القاهرة، ٩٧م.

١١- صلاح عبد الصبور، ((قصة الضمير المصرى الحديث)) كتاب الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، ١٩٧٨م.

١٢-عبد الرحمن الشرقاوى، ((أئمة الفقه التسعة))، دار إقرأ، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١٣-د. عبد الرحمن عميرة، ((مواقف العلماء أمام الحكام والولاة))، دار العلم والثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١٤-د. عثمان أمين، ((رائد الفكر المصري، الإمام محمد عبده))، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٩٦م.

١٥-على الطنطاوى، ((رجال من التاريخ))، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٦-د. كمـال الديـن عبد الغنى المرسى، ((الإمام محمد عبده وأثره في تجديد الفقه والفكر الإسلامي))، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، الطبعة الأولى،١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٧-لمعى المطيعى، ((موسوعة هذا الرجل من مصر))، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

١٨-د. محمـد حسـن الحمصى، ((الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق)) دار الرشيد، دمشق وبيروت.

١٩-محمـد رجب البيومى، ((النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين)) الجزء الأول، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، فبراير ١٩٨٠م.

٢٠-محمـد رجب البيومى، ((النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين)) الجزء الثالث، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، فبراير ١٩٨٠م.

٢١-محمد عبد الله ماضى، ((الأزهر في ١٢ عاما)) ، مجمع البحوث الإسلامية.

٢٢-د. محمد عمارة، ((الإسلام بين التنوير والتزوير)) دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٣-محمـود قاسـم، ((عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية))، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٤-د. ناصـر الديـن سعيدونى، ((عصر الأمير عبد القادر الجزائرى))، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى، الكويت، ٢٠٠٠م.

ثانيا: مقالات ودراسات:

١- أحمد تمام، ((الغزالى فارس الدعوة والتبليغ))، من موقع إسلام أون لاين على الانترنت.



المؤلف.. سيرة ذاتية

الاســـم بالكامل : د. إسماعيل إبراهيم عبد الرحمن محمد.

تاريخ ومحل الميلاد: ٥ مارس ١٩٥٢ في قرية ميت فارس بمحافظة الدقهلية.

المؤهـلات العلمية :

- ليسانس الآداب من جامعة القاهرة، تخصص صحافة سنة ١٩٧٤م. بتقدير جيد جداً.
- درجة الماجستير في الإعلام من جامعة الزقازيق عام ١٩٩٣م، بتقدير امتياز مع التوصية بالطبع والتداول مع الجامعات العربية والأجنبية، وكان موضوعها: ((فن التحرير الصحفى في مجلات المرأة والأسرة في الوطن العربى)).
- درجة الدكتوراة في الإعلام من جامعة الزقازيق سنة ١٩٩٥م، بمرتبة الشرف الأولى. وكان موضوعها: ((مجلات المرأة والأسرة في الوطن العربى.. دراسة تاريخية فنية)).

الخـبرات العلمية:

- التحق بجريدة الأهرام بتاريخ ١/١٠/١٩٧٦م.
- سكرتير تحرير فنى جريدة الأهرام من ١٩٧٦ـ ١٩٨٢م.
- محرر أول بمجلة ((زهرة الخليج)) بدولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٣مـ ١٩٨٨م.
- مدير تحرير مجلة ((زهرة الخليج)) ١٩٨٨ـ ١٩٩٠م.
- مدير تحرير ((جريدة الأهرام المسائى)) ١٩٩١ـ ١٩٩٨م.
- مساعد رئيس تحرير جريدة الأهرام ٢٠٠٤م.
- أستاذ صحافة محاضر بكليات الإعلام بالجامعات المصرية.
- عضو اتحاد الكتاب المصريين.
- شارك في مناقشة العديد من رسائل الماجستير والدكتوراة في الإعلام.
- معد ومحاور ومقدم برامج بالإذاعة والتليفزيون.

المؤلفـات:

١- ((**الصحافة النسائية في الوطن العربي**)).. الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.
٢- ((**صحفيات ثائرات**)).. الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧م.
٣- ((**الشباب بين التطرف والانحراف**)).. الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٨م.
٤- ((**فن التحرير الصحف بين النظرية والتطبيق**)).. دار الفجر، ١٩٩٨م.
٥- ((**مواقف حاسمة في حياة الخلفاء الراشدين**)).. المكتبة العلمية، ١٩٩٨م.
٦- ((**انتحار الحب**)).. مجموعة قصصية - دار قباء، ١٩٩٩م.
٧- ((**فن المقال.. الأسس النظرية والتطبيقات العملية**)) دار الفجر، ٢٠٠٠م.
٨- ((**الصحفى المتخصص**)).. دار الفجر، ٢٠٠٠م.
٩- ((**زيد بن ثابت.. جامع القرآن**)) - دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.
١٠- ((**أبو حزيفة بن عتبة.. الشهيد المجاهد**)).. دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.
١١- ((**عبد الله بن عمر.. الفقية المجاهد**)).. دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.
١٢- ((**عبد الله بن رواحة.. الشهيد الطائر**)).. دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.
١٣- ((**عياش بن أبى ربيعة .. الشهيد الظامئ**)).. دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.
١٤- ((**عتبة بن غزوان.. الأمير الزاهد**)).. دار العلم والثقافة، ٢٠٠٠م.
١٥- ((**شخصيات صنعت التاريخ في الآداب والفنون**)).. عالم الكتب، ٢٠٠٣م.
١٦- ((**شخصيات صنعت التاريخ في البطولة والفداء والنهضة الفكرية**)).. عالم الكتب، ٢٠٠٣م.

فهرست الموضوعات